

مُدارسات في رسالات الهدى المنهاجيّ
لِلْقرآنِ الكريمِ من التلقّي إلى البلاغ

الجزءُ الثّاني

فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مُدارساتٌ في رسالاتِ الهُدى المنهاجيّ للقرآنِ الكريمِ
مِنَ التَّلقي إلى البلاغِ

الجزءُ الثاني

تأليف
فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الثالثة
١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الأنصاري ، فريد.
مجالس القرآن : مدارسات في رسالات الهدي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ / تأليف فريد الأنصاري . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١١م .
ج ٢ ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ١٧ ٥٠٥٩ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الأخلاق الإسلامية .
أ - العنوان . ٢١٢

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتقاطع مع شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٠٨٠٢٨٧٦ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نعمةُ القرآن

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

بابُ القرآن

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

حقُّ القرآن

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا.. ﴾ [الفرقان: ٣٠].

واجبُ القرآن

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

* * *

فِهرسُ المُحتَوَيات

إهداء

إلى حُمَّالِ رِسَالَاتِ القُرآن..

السَّالِكِينَ بِهَا إلى اللَّهِ، تَعَبُّدًا وبَلَاغًا..

الْـمُكَابِدِينَ بِهَا مِحَنَ هذَا الزَّمَان!

إلى بَلَابِلِ اللَّيالِي الْـخُضْر..

الْـمُرَتِّلَةِ خَوْفَهَا ورَجَاءَهَا بِمَحَارِيبِ السَّحَر!

إلى طَلَائِعِ الْـخُيُولِ الغُبْـر..

الْـمُورِيَةِ بِسَنَابِكِهَا لَهِيبَ الفَتْحِ الْـمُبِين

سَلَامًا وأَمَانًا للعَالَـمِين!

إلى أجْيَالِ الشَّبَابِ الصَّادِقِ الْـمُؤْمِن..

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]

إلَيْكُمْ سَادَتِي.. أُهْدِي هَذِهِ اللَّوعَات..!

خادمكم المحب:

فَرِيد الأنْصَاري

• • •

مُقَدِّمَة

الحمد للّه الذي أنزل القرآن العظيم ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِهِ ﴾ جل عُلاه! وجعله نورًا يحيي به موات القلوب! ويفرج به ظلمات الكروب! ويمسح به الخطايا، ويشفي به البلايا!

وصلى اللّه وسلم وبارك على البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا محمد النبي الأمي، الذي أرسله اللّه رحمةً للعالمين؛ فلم يزل ﷺ - مذ أكرمه اللّه تعالى بالنبوة الخاتمة - كوكبًا دُرِّيًّا، متوقدًا في سماء البشرية إلى يوم الدين! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. وإنما أشرق نورُه عليه الصلاة والسلام بما أنعم اللّه عليه من جلال الوحي وجماله: هذا القرآن العظيم! فكان ﷺ بذلك هُدًى للعالمين. ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ذلك هو النور..! ولكنْ أين من يرفع بصره إلى السماء..؟ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

أما بعد؛

فهذه مدارسات في القرآن الكريم، تعرض مشروع « مجالس القرآن » بصورة عملية، يرجى لها أن تجعل المؤمن يندمج في فضاء القرآن، ويتلقى آياته كلمة كلمة، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا. وهي لذلك تمثل صلب المنهاج الفطري الذي ندعو به وإليه، كما بيناه مفصلًا في كتاب « الفطرية ».

فإلى العلماء العاملين..

إلى السادة المربِّين..

إلى أهل الفضل والصلاح..

إلى دعاة الخير والفلاح..

إلى الشباب الباحثين عن وَارِدٍ من نور، يخرجهم من ظلمات هذا الزمن العصيب!..

إلى جموع التائبين، الآيبين إلى منهج اللّٰه وصراطه المستقيم..

إلى المثقلين بجراح الخطايا والذنوب مثلي! الراغبين في التطهر والتزكية.. والعودة إلى صَفِّ اللّٰه، تحت رحمة اللّٰه..

إلى الذين تفرقت بهم السبُلُ حيرةً واضطرابًا، مترددين بين هذا الاجتهاد وذاك، من مقولات الإصلاح!

إليكم أيها الأحباب أبعث « رسالات القرآن »!

إليكم سادتي أبعث قضية القرآن، والسِّرُّ كلُّ السِّرِّ في القرآن! **ولكن كيف السبيل إليه؟**

أليس بالقرآن وبحِكْمَةِ القرآن جعل اللّٰهُ - تَقَدَّسَتْ أسماؤُهُ - عَبْدَهُ محمدًا ابنَ عبدِ اللّٰه النبي الأمي - عليه صلوات اللّٰه وسلامه - مُعَلِّمَ البشرية وسيد ولد آدم؟ وما كان يقرأ كتابًا من قبل ولا كان يخطُّه بيمينه!

ثم أليس بالقرآن - وبالقرآن فقط! - بَعَثَ اللّٰهُ الحياةَ في عرب الجاهلية فنقلهم من أُمَّةٍ أُمِّية ضالة؛ إلى أُمَّةٍ تمارس الشهادة على الناس كل الناس؟

ألم يكن القرآنُ في جيل القرآن مفتاحًا لعالم المُلْكِ والملكوت؟

ألم يكن هو الشفاء وهو الدواء؟ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ألم يكن هو الماء وهو الهواء لكل من كان حَيًّا - على الحقيقة - من الأحياء؟ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

ألم تكن تلاوته - مجرد تلاوته - من رجل قرآني بسيط تُحْدِثُ انقلابًا ربانيًا عجيبًا، وخرقًا نورانيًا غريبًا في أمر المُلْكِ والملكوت؟

ألم تتنزل الملائكة ليلًا مثل مصابيح الثريا لسماع القرآن من رجل منهم، بات يَتَبَتَّلُ في سكون الدُّجى، يناجي ربه بآيات من بعض سوره؟ [١].

(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن أُسيد بن حضير ﷺ؛ بينما هو ليلةً يقرأ في مربده؛ إذ جالت فرسه. فقرأ =

ألم يقرأ رجل آخَرُ سورةَ الفاتحة على لَدِيغ من بعض قبائل العرب، اعتقله سم أفعى إلى الأرض، فلبث ينتظر حتفه في بضع دقائق، حتى إذا قُرِئَتْ عليه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ - التي يحفظها اليوم كل الأطفال! - قام كأنْ لم يكن به شيء قط؟ (١).

أليس هذا القرآن هو الذي صنع التاريخ والجغرافيا للمسلمين؛ فكان هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف؟ وكان له هذا الرصيد الحضاري العظيم، الموغل في الوجدان الإسلامي؛ بما أعجز كل أشكال الاستعمار القديمة والجديدة عن احتوائه وهضمه! فلم تنل منه معاول الهدم وآلات التدمير بشتى أنواعها وأصنافها المادية والمعنوية، وبقي - رغم الجراح العميقة جدًّا - متماسك الوعي بذاته وهويته!

وما كانت الأمة الإسلامية قبل نزول الآيات الأولى من (سورة العلق) شيئًا مذكورًا! وإنما كان هذا القرآن فكانت هذه الأمة! وكانت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أليس القرآن الذي نتلوه اليوم هو عينه القرآن الذي تلاه أولئك من قبل؟

فما الذي حدث لنا نحن أهلَ هذا الزمان إذن؟

ذلك هو السؤال! وتلك هي القضية!

= ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أيضًا! قال أسيد: فخشيتُ أن تطأ يحيى [يعني: ابنه الصغير] فقمت إليها، فإذا مثل الظُّلة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُج [جمع سراج: وهي المصابيح] عَرجتْ في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي؛ إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: « اقرأ ابن حضير! » قال: فقرأت؛ ثم جالت أيضًا! فقال رسول الله ﷺ: « اقرأ ابن حضير! » قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: « اقرأ ابن حضير! » قال: فانصرفتُ. وكان يحيى قريبًا منها، خشيتُ أن تطأه. فرأيت مثل الظُّلة فيها أمثال السُّرج، عرجتْ في الجو حتى ما أراها! فقال رسول الله ﷺ: « تلك الملائكة كانت تستمع لك! ولو قرأت لأصبحَتْ يراها الناس، ما تستتر منهم! » رواه مسلم. وقد روى البخاري نحوه مختصرًا.

(١) عن أبي سعيد الخدري قال: نزلنا منزلًا فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سليم لُدغ؛ فهل من راقٍ؟ فقام معها رجل منَّا، ما كنَّا نظنه يحسن رُقيةً، فرقاه بفاتحة الكتاب؛ فبرأ، فأعطوه غنمًا وسقونا لبنًا. فقلنا: أكنت تحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: فقلت: لا تحركوها (يعني الغنم) حتى نأتي النبي ﷺ، فأتينا النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: « ما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم! »، وفي صيغة البخاري: فسألوه، فضحك، وقال: « وما أدراك أنها رقية؟ خذوها واضربوا لي بسهم! » متفق عليه.

لا شك أن السر كامِنٌ في منهج التعامل مع القرآن! وذلك هو سؤال العصر! وقد كتب غير واحد من أهل العلم والفضل حول إشكال: (كيف نتعامل مع القرآن؟) [(١)].

ولقد أجمع السابقون واللاحقون على أن المنهج إنما هو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه من أمر القرآن. فمن ذا اليوم يستطيع الصبر عليه؟ وإنما هو تَلَقٍّ للقرآن آيةً آيةً، وتَلَقٍّ عن القرآن حِكْمَةً حِكْمَةً! على سبيل التخلق الوجداني، والتَّمَثُّلِ التربوي لحقائقه الإيمانية العُمُرَ كلَّه! حتى يصير القرآن في قلب المؤمن نَفَسًا طبيعيًّا، لا يتصرف إلا من خلاله، ولا ينطق إلا بحكمته! فإذا بتلاوته على نفسه وعلى من حوله غَيَّرَ تلاوة الناس، وإذا بحركته في التاريخ غير حركة الناس!

وهكذا صنع الرسول ﷺ - بما أُنْزِلَ عليه من القرآن آيةً آيةً - نَماذِجَ حوَّلَتْ مَجْرَى التاريخ! ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فلم تكن له وسائل ضخمة ولا أجهزة معقدة! وإنما هي شِعَابٌ بين الجبال، أو بيوتٌ بسيطة، ثم مساجدُ آمنة مطمئنة! عُمْرانُهَا: صلاةٌ ومجالسُ للقرآن! وبرامجها: تلاوةٌ وتعلمٌ وتزكية بالقرآن! بدءًا بشعاب مكة، ودار الأرقم بن أبي الأرقم، وانتهاءً بمسجد المدينة المنورة، عاصمة الإسلام الأولى، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام! كانت البساطة هي طابع كل شيء، وإنما العظمة كانت في القرآن، ولمن تَشَرَّبَ - بعد ذلك - روحَ القرآن!

هكذا كانت مجالسُه ﷺ ثم مجالسُ أصحابه في عهده، ومن بعده ﷺ، مجالسَ قرآنيةً، انعقدت هنا وهناك، وتناسلت بصورة طبيعية؛ لإقامة الدين في النفس وفي المجتمع معًا على السواء، وبناء النسيج الاجتماعي الإسلامي من كل الجوانب، بصورة كلية شمولية؛ بما كان من شمولية هذا القرآن، وإحاطته بكل شيء من عالم الإنسان! وذلك أمرٌ لا يحتاج إلى برهان. واقرأ إن شئت الآية المعجزة! ولكن بشرط: اقرأ وتَدَبَّرْ! تَدَبَّرْهَا طويلًا! وَقِفْ عليها مَلِيًّا! حتى بعد طَيِّ صفحات هذه الورقات! فيا أيها المؤمن السائر إلى مولاه! الباحث بكل شوق عن نوره وهداه! أَبْصِرْ بقلبك - عساك تكون من المبصرين - قولَه تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) منهم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، والدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله.

ولك أن تشاهد هذه الْمِنَّةَ العظمى من خلال عديلتها، وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

نعم! هذه هي الآية، وإنها لعَلَامَةٌ وأيُّ علامة! فلا تَنْسَ الشرط!

تلك إذن كانت رسالة القرآن، وتلك كانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام!

فيا أتباع محمد ﷺ! يا شباب الإسلام! ويا كهوله وشيوخه! يا رجاله ونساءه! ألم يئن الأوان بعدُ لتجديد رسالة القرآن؟ ألم يئن الأوان بعدُ لتجديد عهد القرآن؟ وإنما قضية الأمة كل قضيتها ههنا: تجديد رسالة القرآن! ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

فيا أيها الأحباب! لنعد إلى مدرسة رسول الله ﷺ! لنعد إلى مدرسة القرآن! ومجالس القرآن! على منهج القرآن! صافية نقية! كما شهد عليها اللَّهُ ﷻ في جيل القرآن، لا كما تلقيناها مُشوَّهة من عصور الْمَوَاتِ في التاريخ!

هذا، وقد جعلنا سيماء هذا الكتاب بعنوان رئيس هو: (**مجالس القرآن**)، ثم ذيلناه بعنوان هامشي هو: (**مُدارَساتٌ في رِسَالاتِ الْهُدَى المنهاجي للقرآن الكريم، من التَّلَقِّي إلى البَلَاغ**)؛ وذلك لبيان أن « المجالس القرآنية » هي القضية المركزية في تجديد الاتصال بالوحي، والتلقي للهدى الرباني، وأنها المسلك الذي عليه الرهان اليوم - كما كان قديمًا - للخروج بالأمة من هذا النفق المظلم الذي تتخبط فيه! فمجالس القرآن هي سفينة النجاة إلى بَرِّ الأمان إن شاء اللَّه. إنها وسيلة وغاية في ذاتها ككثير من العبادات في الإسلام، غايةٌ يُعبد اللَّه بها ابتداءً، ووسيلةٌ إلى إصلاح النفس والمجتمع؛ ولذلك فقد اجتمع فيها الخير كله. وبما أنها هي جوهر هذا المشروع الدعوي الذي نقدمه في هذا الكتاب؛ فقد جعلنا عبارتها هي عنوانَه الرئيسَ وسِيمَاءَهُ الكبرى. وأما العنوان التابع فهو لبيان أن طبيعة هذه المجالس عبارةٌ عن مُدَارَسَاتٍ في رسالات القرآن، التي هي رسالات الهدى المنهاجي، والتي تطبع متلقيها بخلق الربانية. فالتدارس لكتاب اللَّه هو سبيل الربانية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. والربانية عندما تصبح سِمَةً

غالبة في المجتمع، فتلك هي العلامة الكبرى على تحوله الجذري، وارتقائه من جديد إلى مقام « الخيرية » الشاهدة على الناس! ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد جاء الجزء السابق من هذا الكتاب مشتملًا على قسمين:

الأول منهما: عبارة عن « مدخل إلى مجالس القرآن »، القصد منه بيان أهمية هذا المشروع الدعوي؛ بما هو منهاج قرآني صرف، يتخذ كتاب اللَّه مورده الرئيس، منه يتلقَّى نورَه وهداه، وعليه يبني قواعدَه ورُؤَاه. كما أنه موضوع منهجيًا لبيان الصورة العملية لإقامة « مجالس القرآن » بكل تفاصيلها الجزئية، بما يشبه أن يكون « دليلًا عمليًا »؛ لمساعدة من لا خبرة له سابقة في تدارس القرآن وتدبره، يشرح الخطوات المنهجية بصورة مبسطة، وسهلة؛ حتى يَعِيَها كلُّ قارئ ومستمع؛ رغبةً في تعميم الاشتغال بالقرآن، والرجوع إليه لتربية الفكر والوجدان، وتمتين نسيج المجتمع على مِنْسَجَةِ الإيمان.

والقسم الثاني: عبارة عن نموذج تطبيقي لمدارسة القرآن الكريم، من خلال بعض سوره، ومحاولة لتقديم صورة عملية لكيفية تَلَقِّي « الْهُدَى المنهاجي »، الذي تتضمنه السور المختارة من خلال آياتها وكلماتها.

فجاء هذا القسم بيانًا عمليًا لما يُرْجَى أن تسير عليه « مجالس القرآن »، من تلقي رسالات الهدى الواردة بكتاب اللَّه؛ عسى أن ينال الْجُلَسَاءُ المتدارِسون من بركات هذا القرآن خُلُقًا ربانيًا، يجعلنا وإياهم - بتوفيق اللَّه - على هُدًى من ربنا، في أمر ديننا ودعوتنا، تأسيًا بمن (كانَ خُلُقُهُ القُرآن) [1] عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولقد يسَّر اللَّه في ذلك الجزء إنجاز مدارسات لسور أربع، هي: الفاتحة، والفرقان، ويس، والحجرات. وقد كان اختيار تلك السور لحكمة تربوية، وموافقات ربانية، ذكرناها مفصلة بمحلها.

ويأتي هذا الجزء الثاني استكمالًا لما بدأناه هناك، وهو يشتمل على ما يسر اللَّه من **مجالس سورة « ق »، وسورة الذاريات، وسورة الطور، ثم سورة النجم،** وهي السور الأربع الموالية في ترتيب المصحف لسورة الحجرات التي وقفنا عندها في الجزء الأول.

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأما منهاج هذه المدارسات - كما سبق بيانه من قبل في الجزء الأول - فهو راجع إلى تَلَقِّي رسالات القرآن وبلاغها؛ ذلك أنا وجدنا دعوة محمد بن عبد الله ﷺ إنما قامت على هذا المنهاج. وأن الدين - كل الدين - إنما هو دائر على تَلَقِّي رسالات اللَّه والدخول تحت ابتلاءاتها تخلقًا وتحققًا. وعلى ذلك استمر الصحابة من بعده ﷺ، وعليه سار خيار التابعين وكبار الأئمة المجددين عبر التاريخ! فلا عبادة للَّه إلا بتلقي رسالاته، ولا دعوة إلى اللَّه إلا ببلاغ رسالاته، ولا تجديد لدين اللَّه إلا بتجديد التلقي لرسالاته، ولا حياة إيمانية إلا بالتخلق بحقائقها في النفس وفي المجتمع! فماذا بقي بعد ذلك من الدين خارج رسالات القرآن؟

وإنما السعيد من أكرمه اللَّه بالاشتغال بالقرآن الكريم، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا وتعليمًا! إذ ذلك هو مجمل وظائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم سيدنا رسول اللَّه ﷺ. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وتلك هي مَدَارَاتُ رسالات القرآن تَلَقِّيًا وبلاغًا! فطوبى لِعُمُرٍ عَمَرَهُ صاحبُه بهذه المعاني العظيمة! وطوبى لعبد حمل هذه الرسالة الربانية؛ فكان بذلك من « **أهل القرآن أهل اللَّه وخاصته!** » [١].

ولقد تهتُ زمنًا طويلًا في طريق البحث عن الحق في الشأن الدعوي على العموم، حتى مَنَّ اللَّه عليَّ بالْهُدَى! ولقد وجدتُ الهدى كل الهدى في كتاب اللَّه! وبمجرد أن فتح اللَّه بفضله البصيرة على القرآن اكتشفتُ أدواءَ نفسي المريضة! ففزعت من هول عللها الكثيرة وجروحها الغائرة! ووجدتُ أنني أنا المعنيُّ الأول بدعوة القرآن وأدويته! فطرقت باب الرحمن مستغيثًا: رَبَّاهُ أنا المريض فداوني! فماذا أَعَلَّ من قلبي الكليل؟ ومن ذا أَهْلَكُ من نفسي المغرورة!؟

ثم وجدت أنه لا نور للمرء إلا بإشعال فتيل قلبه بمواجيد القرآن نبضًا نبضًا! على وِزَانِ قول رسول اللَّه ﷺ: « **شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأخواتُها!** » [٢]، وأن من لم يكابد حقائق

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢١٦٥).

(٢) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

القرآن لهيبًا يُحَرِّقُ باطن الإثم من نفسه فلا حظَّ له من نوره!

ورأيت أن أول ما ينبغي أن أواجهه بهذه الدعوة هو كبرياء نفسي الخفي، وغرورها الباطن! وأن أول الطريق إلى اللّه هو تحقيق « العبدية » الخالصة له وحده جل علاه! وأن ما دون ذلك من المسالِك إنما هو مَحَالِكُ ومَهَالِكُ!

ووجدت أن تلميذ القرآن لا يكون « أستاذًا » أو « زعيمًا » أبدًا! [١]؛ فالقرآن العظيم كلام اللّه رب العالمين، وما كان للمتلقي الحق عنه إلا أن يكون عبدًا! وإنها لنعمة عظمى أن يبقى المؤمن حياته كلها تلميذًا بين يدي ربه الكريم تقدست أسماؤه! وذلك أول خُلُقِ سيدنا رسول اللّه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « **آكُلُ كمَا يأكلُ العبدُ، وأجلس كما يجلس العبدُ!** » [٢].

ووجدتُ هذه التجربة الروحية مؤلمة جدًّا! فقد كانت النفس مغرورة بتُرَّهات « علم الكلام الحركي! » وكانت حُجُبُهَا من ذلك كثيفة جدًّا، وكانت جراحاتها بسببه عميقة جدًّا! فما أصعب الانتقال بالنفس من « أنَاهَا » إلى « فَنَاهَا »!

وما وَجَدَ رسولُ اللّه ﷺ نجاتَه إلا في الاعتصام برسالات ربه بلاغًا! وهو صريح قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣] فأدى بلاغَ كلمات ربه ﷺ وبلَّغ على أتمِّ ما يكون البلاغ؛ استجابة لأمره العظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ومن هنا جاء الثناء الرباني الكريم نورًا خالدًا يحلي الربانيين ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وما أن أبصرتُ هذه الحقيقة الجميلة والمؤلمة في الوقت نفسه؛ حتى اكتشفت هول ما ضيعت من العمر خارج مدار رسالات القرآن! وحجم ما خسرت من السير خارج فَلَكِ نور الإيمان!

---

(١) المقصود هنا الأستاذية المنتفخة بداء الغرور! والزعامة المتورمة بمرض الكبرياء!

(٢) رواه ابن سعد، وأبو يعلى، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة.

وشاهدت بعد ذلك معنى قول رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام في دعائه الكريم: « **أسألك أن تجعل القرآنَ رَبِيعَ قلبي!** »[١]، والرَّبِيعُ في العربية: هو جدول الماء المتدفق على البطاح والسهول! فما أجمله وما أجَلَّهُ من دعاء! فأن يكون « القرآن ربيع القلب! » معناه: أن يكون القرآن هو نبع الماء الصافي المتدفق الرقراق، الذي يسقي الروحَ بنور اللَّه! فماذا يبقى بعد ذلك بهذا القلب من الهم والغم؟ وماذا يبقى به من الدَّرَنِ والضلال؟ أو من الأوجاع والأدواء؟ ولذلك كانت تتمة الدعاء هكذا: « **ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي!** »[٢].

ومن هنا لم يعد لنا من مورد في التلقي لرسالات اللَّه سوى كتاب اللَّه. وقد يسَّر اللَّه أن صارت لنا مجالس مع القرآن الكريم في بعض المساجد، ومجالس أخرى مع بعض الأحبة من أشياخنا وإخوتنا في اللَّه، ممن أكرمنا اللَّه بمدارسة بعض سور القرآن وآيه بمعيتهم، فكانت هذه التقييدات التي يرجع الفضل فيها - بعد اللَّه - إلى ما أكرمنا اللَّه به من إشاراتهم وعباراتهم، فما كان مني إلا أن جمعت ما يسر اللَّه جمعه في هذه الورقات من « **رسالات القرآن** »، فبعثنا بها إلى كافة المؤمنين؛ عسى أن تعم حكمةُ القرآن العظيم، فتمسي سُرُجًا تنير طريق السالكين، وعسى أن يتم التنبيه على منهاجه الدعوي الكريم. فطوبى لمؤمن مخلص للَّه، أكرمه اللَّه بحمل رسالات اللَّه، أخذًا من كتاب اللَّه؛ فأَحْسَنَ التَّلَقِّي وتَفَانَى في البَلاغ! ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

وأما طريقة عرض مادة هذه الرسالات فهي قائمة على المنهج التالي:

أولًا: تقديم، وذلك بتقديم السورة المقصودة بالمدارسة تقديمًا كليًّا، يلخص قضيتها، ويعرِّف بشخصيتها.

---

(١) مختصر من حديث رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وابن أبي شيبة، وأبو يعلى. وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٥٢٨).

(٢) والنص الكامل للحديث هو: عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ما أصابَ أحدًا قَطُّ هَمٌّ ولا حزنٌ فقال: اللَّهم إني عَبْدُكَ وابْنُ عبدِك وابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمُك، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسْمٍ هو لك، سمَّيتَ به نَفْسَك، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ رَبِيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي! إلَّا أذهبَ اللَّهُ همَّه وحزنه، وأبدله مكانَه فَرَجًا! » قال: فقيل: يا رسول اللَّه ألا نتعلمها؟ فقال: « بلَى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها! ».

ثانيًا: المجالس؛ حيث يتم تقسيم السورة إلى مجموعة من « المجالس » مرقمة بشكل ترتيبي. وجعل كل « مجلس » مقتصرًا على مجموعة من الآيات، مما يشكل وحدة متكاملة في ذاته من جهة؛ ومما يمكن استيعاب رسالاته في مجلس واحد من جهة أخرى، أي مما تطيق الفطرة البشرية تلقيه من الرسالات القرآنية والحقائق الإيمانية تخلقًا وتحققًا في مجلس واحد! على نحو ما كان ينزل من الآيات مُنَجَّمًا - في عهد الرسالة - على قلب رسول الله ﷺ.

ثالثًا: كلمات الابتلاء، وقد سمينا مجموع الآيات التي هي موضوع الدرس: « كلمات الابتلاء »؛ باعتبار أن القرآن الكريم كلام الله، وأن آياته من « كلماته » جل علاه، بما لهذا اللفظ في القرآن من عمق دلالي يرتبط بمعاني السَّعة والشمول من جهة، كما هو واضح من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقوله سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

ثم بما لعبارة « الكلمات » - من جهة أخرى - من ارتباط بحقائق الابتلاء للإنسان المتلقي لها! « فكلمات الله » المنزلة هي حقائق الابتلاء، ومعاني التكليف التعبدي بهذا الدين، في العقائد والعبادات والتصرفات؛ ومن هنا كانت مقتضياتها ثقيلة: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] وعلى هذا جاء قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]. فقد كانت الكلمات التي تلقاها إبراهيم عليه السلام هي الابتلاءات الإيمانية التي امتُحن بها وكان من الفائزين الكُمَّل! كما كانت الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام هي عبارات التوبة وحقائقها الوجدانية؛ فكان من المسارعين إلى ربه تائبًا إليه منيبًا! ومن هنا كان القرآن كله « كلمات » أي آيات للعمل والتطبيق، وحقائق للابتلاء والتكليف! لا مجرد كلام للقص أو التأريخ! بل هو عمل وامتحان! والناس إزاءه بين مُتِمٍّ لكلماته أو مُقَارِبٍ أو خَائِنٍ! إذ كل كلمة من كلمات الله إنما تُتَلَقَّى رسالتُها من هذا القرآن، من خلال الدخول في ابتلاءاتها

تخلقًا وتحققًا. ولا يتم ذلك للنفس إلا بمكابدة ومجاهدة! ومن هنا ثقل الابتلاء التربوي بهذا القرآن!

وقد كابد الرسول ﷺ تلقي القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة! وكابد معه أصحابه - رضوان الله عليهم - مكابدة؛ حتى تحققوا من « مَعِيَّتِهِ الإيمانية » ﷺ خُلُقًا ربانيًا رفيعًا! وبهذه السيماء مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم في القرآن، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فلم يكن القرآن في حياة الرسول وصحبه مجرد مرجع قانوني، ولا مجرد توثيق للأخبار والحقائق التاريخية، ولا مجرد قص لإشباع فضول المعرفة البشرية! كلَّا! كلَّا! بل كان كتابَ الله الكامل الشامل، الحامل رسالاته إلى الناس أجمعين؛ ابتلاءً لهم بحقائقها قولًا وعملًا، ومنهاجَ حياة يسلكونه في الأرض، على مستوى كل نفس في نفسها خاصة، وعلى مستوى الاجتماع العمراني البشري عامة، على سبيل التعبد، توحيدًا وتفريدًا لله الواحد القهار! ودون ذلك ما دونه من ثقل الأمانة وشدة وقعها على النفس! ومن ثَمَّ لم يكن من السهل على الإنسان أن يتلقى رسالات هذا القرآن جملة واحدة! بل كان من رحمة الله بالعباد أن نزَّله عليهم عبر رسالات تترى، الواحدة تلو الأخرى، آيات آيات: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] وذلك حتى يكون لكل كلمة أثرها الفعلي في الأرض، على مستوى الممارسة البشرية والتنفيذ التعبدي! وهو معنى « الكلمات ». فمن استجاب لابتلائها كانت له صِفَةً وخُلُقًا، ومن خانها لم يكن منها ولا كانت منه في شيء! وعلى هذا المعنى جاء قولُ عائشة رضي الله عنها في حق رسول الله ﷺ: « كانَ خُلُقُهُ القرآن! »[1]. وبذلك المنهاج الرباني العظيم تم بناء المجتمع الإسلامي الأول، على عهد سيدنا محمد ﷺ.

ذلك هو القرآن وتلك هي كلماته! ومن رام الاشتغال بدعوته خارج هذه الحقيقة المنهاجية العظمى فقد رام المحال!

---

(١) رواه مسلم.

رابعًا: البيان العام: بعد عرض كلمات المجلس للتلاوة والتدبر، نورد خلاصة تفسيرية تحت عنوان: « البيان العام ». والمقصود بالبيان العام ههنا: عرض خلاصة ما قاله المفسرون في الآيات موضوع الدرس، وما مَنَّ اللّه به إزاءها من معان. وذلك بمنهج يرمي إلى التلخيص والتيسير، دون الإغراق في الجدل الكلامي أو الاستطراد اللغوي أو التفريع الفقهي، إلا ما دعت إليه ضرورة البيان؛ إذ الهدف إنما هو تلقي الحقائق الإيمانية والرسالات القرآنية قصد تيسير العمل بها.

خامسًا: الْهُدَى المنهاجي: إذا تم ذلك انتقلنا إلى عرض ما يسر اللّه تَلَقِّيهِ من الْهُدَى الوارد في تلك الآيات. وذلك من خلال تخصيص فقرة من تصميم الدراسة تحت عنوان: « الْهُدَى المنهاجي » (١). والمقصود بالهدى المنهاجي: هو ما تحصل للقلب من الكلمات المتلوة - بعد التدبر - من رسالات منهاجية، توضح خطوات السير القلبي إلى اللّه دينًا ودعوة، تعرفًا إليه وتعريفًا به تعالى، وتبين مسلك بناء الشخصية الإسلامية في كل ما يلزمها من معانٍ تعبدية وعمرانية، مما جاء هذا القرآن لبنائه في الإنسان فردًا وجماعةً، في طريق إخراج الأمة المسلمة. ومن هنا فإننا نعمد إلى تقسيم حقائق « الهدى المنهاجي » إلى مجموعة من « الرسالات »، نعرضها الواحدة تلو الأخرى تحت عناوين مستقلة؛ تيسيرًا أيضًا لتلقي أحكامها وحِكَمِهَا. فكل رسالة تشكل في نفسها ابتلاءً عمليًا، أو خطوة إيمانية من خطوات إصلاح النفس، ومدرجًا من مدارج الترقي بمعارج القرآن، سيرًا إلى اللّه تعالى رَغَبًا ورَهَبًا (٢).

سادسًا: مَسْلَكُ التَّخَلُّق: ثم نُعَرِّجُ في آخر كل مجلس على بيان المسلك العملي للدخول في تلك الحقائق الإيمانية جميعًا، والمنهاج التطبيقي الميسر الذي يُمَكِّنُ القلب من التخلق بما تَلَقَّى من رسالات الهدى. فجعلنا ذلك - بعد عرض « الرسالات » - في فقرة خاصة، تحت عنوان: « مَسْلَك التخلق ». وهكذا نمضي حتى نهاية السورة.

سابعًا: خاتمة: حتى إذا كان المجلس الخاتم جعلنا بعده مباشرة « خاتمة »، ترجع على

---

(١) هو من اصطلاح أستاذنا - وأستاذ الأجيال - الدكتور الشاهد البوشيخي رائد المدرسة القرآنية بالمغرب تعليمًا ودعوةً.

(٢) إيرادنا للرسالات المستنبطة من الهدى المنهاجي لا يعني الحصر طبعًا! بل استنباط المزيد من رسالات الهدى بابه مفتوح إلى يوم القيامة؛ لأن كلمات اللّه ﷻ لا يحدها حد!

أهم حقائق السورة المدروسة بالتذكير، مع النظر في علاقتها بالنفس تحقيقًا وتقويمًا.

وبهذا وذاك نرجو أن يتم للمؤمن « تَلَقِّي » حقائق القرآن؛ إذ التلقي للآيات هو غير التلاوة التبركية العامة، بل هو أعمق من ذلك! إنه تفاعل وجداني مع حقائقها الإيمانية، ودخول فعلي تحت ابتلاءاتها الربانية! بما يُخْضِعُ النفسَ لمشارطها ومقارضها تشذيبًا وتهذيبًا! فهي بذلك إذن تَخضع لعمليات جراحية روحية، تستأصل زوائد الأمراض وخبائثها من أعماق القلب؛ تخليصًا له من أهوائه الضالة وعاداته الفاسدة! عسى أن يخرج بذلك عن داعية هواه، فيكون عبدًا خالصًا للَّه!

ومن هنا فمَنْ تحقق بتلقي كلمات اللّه من القرآن؛ فقد تحقق بأهم مفتاح من مفاتح القرآن! وإنما يُنال ذلك كله بشرطين، **أولهما:** الصبر على المكابدة، **وثانيهما:** إخلاص قصد السير إلى اللّه! وإنه ليسيرٌ على من يسَّره اللّه له وأكرمه بِهُدَاه! ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

اللَّهُمَّ مغفرتُك أوسعُ من ذنوبي، ورحمتُك أَرْجَى عندي من عملي!

وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

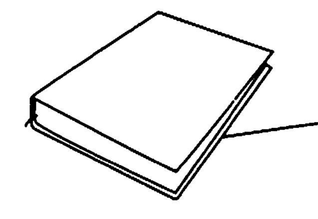
من التلقي إلى البلاغ

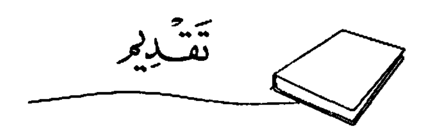
المدارسات القرآنية

٥ - سُورَة قٓ

وهي مكية، وعدد آياتها (٤٥)

وهي تتضمن ثلاثة مجالس





تقديم

أما هذه السورة فهي سورة الآخرة..! بل إنها من أعظم سور اليوم الآخر في القرآن الكريم، الركن الأعظم من أركان الإيمان، بعد ركن الإيمان بالله.

إن سورة « ق » هي فاتحة سور « المفصَّلِ » على القول الراجح [١]، وهي بموضوعها الأخروي الخالص، كأنها تنبئ عن الطبيعة الغالبة على هذا الفصل الأخير من كتاب الله، بما امتاز به من تقرير عقيدة البعث والنشور، وإلقاء النُّذُرِ الشديدة والوعد الوعيد وزلزلة النفس الإنسانية، وإيقاظها بقوة على حقيقة المصير البشري، وفناء الوجود كله، والكشف عن مشاهد جليلة من شؤون الربوبية، وعظمة الله الواحد القهار، وقدرته الخارقة على الخلق، وعلى إعادة الخلق؛ بما يعقد النفس على اليقين القاطع بحقيقة يوم القيامة!

إن سور المفصَّلِ - من سورة « ق » إلى سورة الناس، خاتمة الكتاب - بما لها من خصوصيات تعبيرية، وجمل قصيرة قوية، محملة بذخيرة حية شديدة، هي أشبه ما تكون بشهب ملائكية، أو مُذَنَّباتٍ نارية، تقع من السماء فتقصف ظلمات الشك والريب في النفس الإنسانية، وتدمر حصون الجحود والإلحاد، وتحطم نظريات الكفر بالله واليوم الآخر تحطيمًا!

ولقد كانت سورة « ق » بافتتاحها للمفصل تعبر عن وحدته الموضوعية، وتنبئ

---

(١) اختلف المفسرون في مبتدأ قسم « المفصَّلِ » من القرآن الكريم، بين من يجعله من سورة « ق » ومن يجعله من سورة « الحجرات »، والراجح - إن شاء الله - ما ذكرناه أعلاه؛ لما ورد في ذلك من الآثار؛ ولِمَا لسورة « ق » من خصائص موضوعية وتعبيرية، تنطبق في الغالب الأعم على طبيعة سور المفصل، ذات الوقع الترهيبي، والنذير الأخروي. وهو ما رجحه العلامة ابن كثير رحمه الله، وإن كان مستنده في ذلك إنما هو حديث ضعيف. ونصه: عن أَوْسٍ الثقفي قال: سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَيْفَ يُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ وَحْدَهُ!. رواه أبو داود وابن ماجه. وضعفه الألباني وغيره، كما في ضعيف سنني أبي داود وابن ماجه. وبتطبيق هذه الأعداد على سور القرآن مُرَتَّبَةً تكون سورة « ق » أول المفصل. ن. تفسير سورة « ق » عند ابن كثير.

عن محوره الرئيس، الذي تدور حوله جميع فروعه وقضاياه الجزئية، سواء كانت في العقيدة أو التشريع أو القصص.. فمهما كان من هذا وذاك؛ فسورة « ق » تشير إلى أن طبيعة المفصل أخروية خالصة، وكل ما اندرج في سوره من آيات إنما هو يخدم هذه الحقيقة العظمى: الآخرة! بل لك أن تقول: إن حزب المفصل من القرآن الكريم هو كتاب الآخرة! ولذلك كان السلف - رضوان الله عنهم - يجعلونه - بجميع ما تضمن من أحزاب وأجزاء - حزبًا واحدًا، ويسمونه « حزب المفصل »! كما قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ [1]. وفي الصحيح أن بعض الصحابة كان يسميه: « المحكم »، فَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جَمَعْتُ الْمُحْكَمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْمُحْكَمُ؟، قَالَ: الْمُفَصَّلُ! [2]، وذلك لدورانه في الغالب على محكمات القرآن العقدية، وأركان الإيمان جميعًا [3].

إلا أن اصطلاح « المفصَّل » هو الذي جرى به الاستعمال عند غالب أهل العلم، وأصل ذلك حديث أقسام القرآن، الذي يرويه وَاثِلَةُ بْنُ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث جعل النبي ﷺ سورَ المفصلِ كلَّها قسمًا واحدًا، قال ﷺ: « **أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطُّوَالَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ!** » [4].

ومن هنا جاءت سورة « ق » - باعتبارها فاتحة المفصل كما ذكرنا - تحمل كل خصائصه التعبيرية والموضوعية؛ حيث إن الموضوع الرئيس الذي تدور حوله السورة، إنما هو تقرير عقيدة البعث، وإثبات حقيقة الحشر، وعرض مشهد النشور، والوقوف بين يدي الله يوم القيامة، وما يتعلق بذلك كله من ثواب وعقاب!

إلا أن تقرير ذلك فيها وارد على وجه متفرد في القرآن كله! بما وقع فيها من استعراض مظاهر الرهبة والجلال، من عظمة الله رب العالمين، خلقًا للسماوات والأرض

---

(١) ن. تفسير ابن كثير لأول السورة. (٢) رواه البخاري.

(٣) ربما سمى بعضهم « المفصل » أيضًا باسم: « العربي »، كما يرويه الطبري في مقدمة تفسيره عن خالد الحذَّاء (١/١٠٠). ولم أجد لهذه التسمية وجهًا ولا تفسيرًا يخص المفصَّل بهذا اللفظ، فكل القرآن عربي!

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعبه. وصححه الألباني في صحيح الجامع، بينما حسَّنه في السلسلة الصحيحة. وحسنه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند. كما صحح الشيخ أحمد شاكر أحد سنديه في تفسير الطبري. ن. مقدمة الطبري لتفسيره (١/١٠٠).

وما فيهما من حياة، وإحاطةً بما خلق من ذلك كله، تقديرًا وتدبيرًا ومصيرًا..! وسيطرته الكاملة على كل شيء، ورقابته الصارمة الشديدة على خلقه؛ بما يجعل هذا الإنسان المخاطَب بالتكليف، واقعًا في قبضته ﷻ ، خاضعًا لسلطانه تعالى، محاصرًا من كل جهاته بشمول علمه، ودقة رقابته، خطوةً خطوةً، ولفظةً لفظةً، إلى أن يمثل بين يدي ربه العظيم الذي خلقه فأماته ثم بعثه!

ومن ثم كان وصف الخالقية في ذات الله ﷻ يضرب في هذه السورة ببروق شديدة؛ ليكشف بقوة عن هذه الحقيقة العظمى، الحقيقة التي غفل عنها العالَم: البعث بعد الموت، وخروج الناس مرة أخرى من العدم إلى الوجود؛ حشرًا لهم إلى ساحة الحساب، لتلقي الجزاء خيرًا أو شَرًّا!

إن حديث القرآن عن الآخرة كثير.. ولكل حديث من ذلك جلالُه وجمالُه.. لكنَّ لسورة « ق » من تلك النصوص جميعها خصوصًا! إنها تجعل الإنسان يعيش لحظة البعث بكل كيانه ووجدانه، وترحل بالمتلقي لها في الزمن الآتي؛ حتى تضعه على شفير قبره! فإذا به ينهض مع الناهضين، أشعث أغبر..! يسكنه الذعر ويملؤه الرَّهَب! ويبصر الخليقةَ حواليه وهي تخرج من قبورها هنا وهناك.. ملايين الملايين من الأجداث تلفظ أصحابها! مبعثرة في كل مكان من الأرض، بعضها يلتصق ببعض، وبعضها فوق بعض! يخرجون منها سراعًا، وقد نبتت أجسادهم من تربتها كما ينبت البقل! ثم ينطلقون إلى ربهم عراة كما خلقهم أول مرة!

ويندفع الإنسان في سورة « ق » مع السيل البشري الكبير، يمضي في طريقه إلى الله، معه سائق وشهيد! وليس له من محامٍ أو نصير، سوى الفقر الكامل إلى الله الواحد القهار..!

ويتجلى المِلِكُ العظيم للفصل بين العباد، فيشاهد العبد من جلال الربوبية ما تقشَعرُ له الأبدان! بل ما تصعق له الأنفس ويَنْهَدُّ له الكيان!.. فتتكلم الأعمال والأنفس والشهود والقرناء! ثم يضرب سيف العدل الإلهي ضربتَه القاضية! فَيُلْقَى أهلُ جهنم في سعيرها، ويُسْتَقْبَلُ أهلُ الجنة بالخير والسلام!

إن سورة « ق » طرقٌ شديد على القلب البشري، طرقٌ يوقظه على مشاهد فقره وعجزه، وحاجته الشديدة إلى رحمة ربه! طرق يزلزل أركانه، ويهز كيانه، ليشاهد

قدرة اللّٰه عليه، وإحصاءَه لدقائق قوله وفعله، وتحكمه في موته وحياته، وفي جميع مآله ومصيره!.. إنها سورة تلطم الإنسان لطمات قوية! ليستيقظ من غفوته فيشاهد سرعة فناء هذه الحياة الدنيا! عساه يبادر إلى تلافي أعماله وأقواله، بالإصلاح والتقويم، ويدخل مسرعًا تحت رِبْقِ العبودية للّٰه رب العالمين، مبادرًا بالتوبة النصوح، قبل نداء ﴿ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝﴾.

هذا، وإنَّ حق هذه السورة أن تُدرس كاملة في مجلس واحد؛ لأنها - من أولها إلى آخرها - نبأ واحد، وحقيقة واحدة: الآخرة! ولولا خشية طول المجلس لجعلناها كذلك، وإنما غاية التقسيم تيسير التلقي، وما التوفيق إلا باللّٰه..

فإلى مجالس السورة:

المجلس الأول

في مقام التلقي لحقيقة البعث، وأنها فرع عن صفة الخالقية وأن جحودها إنما هو إنكار لأعظم حقائق الربوبية!

١ - كلمات الابتلاء:

قال الله جلّت حكمته: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾.

٢ - البيان العام:

ق..! قاف..! بهذا الحرف القوي الشديد افتتح الله ﷻ سورة « ق »! وفي ذلك ما فيه من التنبيه القوي على القضية المركزية لهذه السورة: حقيقة البعث بعد الموت، والنشور ليوم الحساب! وقد بينَّا في مناسبة سابقة طبيعة الأحرف الافتتاحية لبعض سور القرآن.. وما تشير إليه - بغموضها المقصود - من عمق غيبي لهذا القرآن.. عمق لا طاقة للعقل البشري على استيعابه، وإنما له وعليه أن يتلقى ما كلف به من ظاهر هذا الخطاب الإلهي العظيم!.. ومن ذا قدير على تلقي كلام الله؟

وعلى قدر ما يحدثه التلفظ بحرف القاف هكذا مفردًا، وما يثيره في النفس من فزع وانتباه عالٍ كبير؛ يستيقظ القلب ويلقي السمع ليشهد ماذا وراء هذا الغموض المخيف؟ وقبل الجواب يردف الخطاب قسمًا إلهيًا عظيمًا بهذا القرآن نفسه، بما له من مجدٍ عالٍ رفيع عند الله ﷻ ! فيقول تعالى: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ ﴾ فتكتسب القاف الافتتاحية - بهذا السياق - معنى القسم أيضًا! [١]، فيثقل وقعها في النفس أكثر وأكثر؛ بما يجعل النفس تترقب خائفةً ماذا وراءها؟ وماذا وراء القسم بهذا القرآن المجيد؟ وماذا يحمل أنباء ونُذُرٍ؟ فيأتي الجواب شديدًا رهيبًا، على ما هُيِّئَتْ له النفس بهذه الافتتاحية القوية: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ ﴾ صحيح أن هذه الآية ليست بجواب، لكنها بما تحمله من دلالة على إنكار الكفار لنذارة الرسول ﷺ دلت على أن المقسم عليه معنى محذوف - لدلالة السياق عليه - هو إثبات ما ينكره هؤلاء الكافرون! تقديره: « إن البعث ليوم الحساب لحق! » أو « إن نذارة محمد ﷺ بهذه الحقيقة الرهيبة لحق! » أو « إن إعادة خلق الخلق بعد اندثار رميمهم في التراب، وبعثهم أحياء من جديد ليوم القيامة، لأمر واقع لا ريب فيه! » [٢] بل لك أن تقول إن المقسم عليه هو كل ما تثبته هذه السورة من حقائق أخروية بإطلاق، من أولها إلى آخرها، مما لخصناه مركزًا في مقدمتها!

ولهذا وذاك وصف الله - جل ثناؤه - هذا القرآن الذي يحمل خبر البعث والنشور بأنه « مجيد »! ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ فالمجد في اللغة: الشرف، والعظمة، والعلو، والسؤدد، والأصل الكريم. قال ابن منظور: (مَجَدَ [الرَّجُلُ] يَمْجُدُ مَجْدًا، فهو مَاجِدٌ. ومَجُدَ - بالضم - مَجَادَةً، فهو مَجِيدٌ. وتَمَجَّدَ. والْمَجْدُ: كَرَمُ فِعَالِهِ. وأَمجَدَهُ ومَجَّدَهُ كلاهما: عَظَّمَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ) [٣]. فالمجيدُ إذن: صيغة مبالغة من اسم الفاعل « مَاجِد »، وهي صيغة دالة على الرسوخ في المجد الأصيل، والمحتد الكريم،

---

(١) مذهب الإمام فخر الدين الرازي في تفسير الأحرف الافتتاحية بالقرآن الكريم، أنها تنبيهات للسامع من جهة، وأنها مُقْسَمٌ بها من الله ﷻ على ما يذكر بعدها في السورة. ن. ذلك مفصلًا عنده في تفسير سورة « ق » بكتابه: « مفاتيح الغيب ».

(٢) ن. مفاتيح الغيب للرازي، وفتح القدير للشوكاني، والتحرير والتنوير لابن عاشور.

(٣) لسان العرب، مادة: « مجد ».

والشرف العريق، والغنى الوافر. ومن ثم كان مَثَلُ الأماجد في الناس كَمَثَلِ معدن الذهب بالنسبة إلى سائر الأحجار!

أما مَجَادَةُ القرآن فهي بمعنى شرف منزلته، وربانية طبيعته، ونَفَاسَةِ معدنه، وعلو أصله، وعظمة شأنه، وهيمنة حقائقه، فهو الذي يعلو ولا يُعْلَى عليه! إنه كلام اللَّه رب العالمين! تكلم به - سبحانه - في الأزل من فوق سبع سماوات! فضمنه حقائق الخلق والتكوين، وخارطة القضاء والقدر، مما كان وما سيكون! وقصة خلق الإنسان من يوم خلقه إلى يوم موته، إلى يوم البعث والنشور! فهذا القرآن الناطق بهذه الحقيقة الكونية الكبرى قرآن مجيد مجيد..! ويكفيه مجدًا أنه كلامُ اللَّهِ المجيدِ ﷻ ! وأي شيء أَرْفَعُ قَدْرًا، وأعزُّ منزلةً من كلامٍ مسطور عند رب العزة في اللوح المحفوظ، هناك فوق السماوات العُلَى؟

ووصف القرآن بالمجد، على هذه صيغة المبالغة القوية: « المجيد » - على ما بينا لها من معنى - سيف مشهور في وجه كل من يريد التشكيك في حقائق القرآن، أو الحطَّ من قَدْرِهِ وقَدْرِ مصدره الإلهي المجيد!

ويقسم الرب المجيد بكتابه المجيد.. يقسم لعباده أجمعين على سبيل النذارة والترهيب، وإقامة الحجة على الكافرين، بما لا يدع مجالًا للشك ولا للتردد؛ على أن البعث بعد الموت، وإعادة الخلق لرميم الأجساد، حقيقة كونية لا ريب فيها! ينطق بها هذا القرآن ويَضْمَنُهَا بمجده وشرفه! ويعرضها واضحةً على أنها إرادة اللَّه الواقعة بقضائِه وقَدَرِهِ، حتمًا لا رجعة فيه! ولكن الكافرين - بما تلبس بهم من هوى شيطاني وكبرياء جاهلي - لا يؤمنون، ولا يصدقون بهذه الحقائق الكونية العظمى! رغم أن كل شيء حولهم من السماوات والأرض وما فيهما؛ ينطق بهذه الحقائق والنُّذُرِ! لقد كانت حجتهم - وما تزال - من التفاهة والسذاجة بمكان! ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾ بمعنى: بَلْ أعماهم عن مشاهدة هذه الحقيقة الصارخة أنهم استهانوا بشخص محمد رسول اللَّه ﷺ، واستبعدوا قدرته على معرفة حقائقَ مثل هذه! بل استبعدوا قصة النبوة وأنكروا حقيقة تلقي الوحي من أصلها! مُتَّهِمين إيَّاه بالجنون، حاشاه ﷺ! والتجديف بكلام يرونه ضربًا من الخرافات والأساطير! فإنما هو رجلٌ منهم، أي بشر مثلهم، وكان يتصورون

أن اللَّه لا يرسل إلى الناس بشرًا مثلهم وإنما يرسل مَلَكًا! كما جاء في سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

وهم بعد هذا كانوا يعرفون محمدًا ﷺ شابًّا يتيمًا يرعى الغنم لقريش على قَرَارِيطَ! فأنَّى له أن يأتي بمثل هذه الأنباء!؟ كيف وهو الرجل الأمي الذي لم يقرأ كتابًا ولا خطَّه بيمينه؟ أما أن يقول: إنه تلقى الوحي من السماء ويكلمه مَلَكٌ عظيم؛ فهو ما لم يصدقوه! رغم ما يعرفونه يقينًا من صدق محمد الأمين!

وإنما هو الكبر الجاهلي، الاستعلائي الطاغوتي، يمنعهم من تصديق محمد رسول اللَّه ﷺ! فقد كان أولئك الكبراء من زعماء قريش وشيوخها، يخشون أن يفقدوا مصالحهم الشخصية، المبنية على استغلال النفوذ الرئاسي لقبائل العرب؛ بما كان لهم من زعامة الدين الوثني وتمجيد أصنام بعينها، والسيطرة على البيت العتيق بمكة! وتوظيفه لهذه الأغراض الخسيسة جميعًا! فأن تنتقل رئاسة العرب منهم إلى رجل فقير منهم، لا مال له ولا ولد؛ فذلك ما لم يطيقوه! بل ذلك ما حاربوه بقوة، وضربوا عليه الحصار، ومارسوا على أصحابه شتى صنوف التعذيب والتنكيل! ولهذا وذاك رفضت قريش عقيدة البعث والنشور من أصلها؛ لقطع الطريق أمام كل دعوة إلى التوحيد ونبذ الأصنام، ومواجهة كل ما من شأنه أن يزلزل عروش سيطرتهم على قبائل العرب وأعرابها!

ولم تزل عروش الطغاة عبر التاريخ إلى عصرنا هذا، تخشى عقيدة البعث والنشور بصورتها القرآنية؛ فينكرونها كليًا أو جزئيًا، أو يوجهونها حسب أهوائهم، ويحرفون حقائقها؛ بما يضمن لهم السيطرة الغاشمة على البلاد والعباد، ويؤمن لهم سلامة مصالحهم الاستكبارية الخبيثة!

ولذلك لما أنذر رسول اللَّه ﷺ أسلافهم بخطر اليوم الآخر، تعجَّبوا منه ومن خبره! وعَجِبُوا من أمره تعجيبًا، على سبيل التهكم والسخرية والتكذيب! وكأنهم يتساءلون تساؤل جحود وإنكار: كيف لرجل أمي مثل هذا، أن يتحدث في أمر

ضاقت عن استيعابه عقولهم: بعث الأجساد بعد الموت! كيف؟ وقد بليت في قبورها عبر آلاف القرون حتى صارت رميمًا! بل صارت عدمًا في عدم! أنَّى لها أن تَحْيَى من جديد؟ هذا شيء عجيب! ذلك قولهم: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ ﴾ والرَّجْعُ: العَوْدُ، أي العود إلى الحياة بعد الموت، ورجوع الأجساد إلى أصل خلقتها من بعد رَمِّهَا وبِلَاهَا.. ذلك ما لم تُطِقْهُ عقولهم الضيقة ولم تشاهدْه أبصارهم المحجوبة؛ فاستبعدوه وأنكروه! ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ ﴾.

ومن ثم جاء جواب رب العزة ﷻ قويًا حاسمًا قاطعًا لكل جدل عقيم! قال سبحانه: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝ ﴾ أي أنه ﷻ قد عَلِمَ بمقتضى ربوبيته - وهو العليم الخبير - ما تنقص الأرضُ منهم، بمعنى ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت، وما يتناثر فيها من لحومهم وعظامهم، وجلودهم وأشعارهم وأحشائهم، وما يتفرق من ذلك بعد طول البِلَى ويندثر في ذرات التراب! فاللَّه ﷻ لا يغيب عنه شيء من ذلك، بل ذلك هو محض قَدَرِهِ وتكوينه، وحلقة من حلقات تدبيره لشؤونه ملكه وملكوته، خلقًا وإماتةً، ثم بعثًا ونشورًا! كل شيء من ذلك عند اللَّه في كتاب حفيظ، أودع اللَّه فيه خريطة الغيب، وتفاصيل القضاء والقدر، قد عَلِمَ كلَّ ذرة أين ضلت وأين تاهت! ولا يضل ربي ولا ينسى! ولا يعجزه شيء في السماوات والأرض، سبحانه! فإنما أمره إذا أراد خلق الإنسان - أي إنسان - أن يقول له: « كن فيكون! ».

وهذه الحقيقة الكونية العظمى أقوى من أن تكذبها العقول، أو تنكرها القلوب.. بل هي الحق الذي تهتز له النفس الإنسانية، وتستجيب له الفطرة السليمة! وما كان تكذيب المكذبين إلا عنادًا ومكابرةً وبغيًا في الأرض بغير الحق! ولذلك قال تعالى بَعْدُ مباشرةً: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ ﴾ والأمرُ الْـمَرِيجُ: الأمر المختلط المضطرب والشيء المتردد المحيِّر، من « الْـمَرْجِ » وهو: التداخل والاختلاط والفساد. بمعنى إنهم في حيرة من أمرهم أيستجيبون لفطرتهم فَيَقْبَلُونَ الحق الذي يعرفونه، أم يستجيبون لأهوائهم فينكرون ويجحدون؟ ولقد غلبت عليهم أهواؤهم وشقوتهم فكفروا وجحدوا.. فلم يزالوا في مَرَجٍ من أمرهم وحيرة قاتلة! إذ لم يقم لهم دليل سليم ولا حجة مقاربة؛ لما هم فيه من العمى والضلال، ولا جرى لهم شيء

من ذلك على استقامة واطراد! بل كل كلامهم المنكر للحق مضطرب متناقض!

إنهم يشعرون بالبؤس في أعماق أنفسهم؛ إذ لا يستطيعون إنكار قدرة اللَّه - وهو الرب الخالق للكون كله - على فعل أي شيء. والمنطق العقلي البسيط يقرر أن البادئ للشيء قادر على إعادة فعله من باب أولى! واللَّه ﷻ يستوي عنده البدء والإعادة، لا يزيده فعل الأمر قدرةً على قدرته، على مقتضى منطق التجريب البشري! كلَّا كلَّا! بل قدرته تعالى كاملةٌ مطلقةٌ قبل فعل الفعل، وقبل إعادته! تمامًا كما كان - سبحانه - خالقًا قبل وجود المخلوق، ومَلِكًا مَالِكًا قبل وجود المملوك، ورحيمًا قبل وجود المرحوم، ورازقًا قبل وجود المرزوق، وهاديًا قبل وجود المهدي... إلخ! كذلك يُعَرِّفُ هذا القرآنُ المجيدُ ربَّ العزة ﷻ .

ومع ذلك كله فقد أرشد اللَّه - جل ثناؤه - الإنسانَ إلى النظر في بديع صنع اللَّه، من خلق السماء والأرض، وما جعل فيهما من آيات وعجائب، وما تزخران به من جمال وجلال؛ بما يبهر القلوب ويبهت العقول، وبما يقطع كل شك في قدرة اللَّه الخارقة، على الخلق وإعادته، وعلى كل شيء مما لا طاقة للعقل البشري حتى على مجرد تصوره وتخيله! ومن ثم فقد رد على الكفار بالبعث بهذا السؤال الإنكاري الشديد، الناعي عليهم جمود فكرهم، وعمى أبصارهم، وبلادة حِسِّهم؛ إذ هم لا يصرون قدرة اللَّه المتجلية للأبصار البصيرة في معارض مُلْكِهِ، ومشاهد خلقه، ودقة صنعه! وهو ما يبتدئ في السورة من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ ﴾.. وهذا تنبيه للعقول كي تنظر إلى خلق السماء وما فيها من نجوم وكواكب.. ولا شك أن علم الفلك المعاصر وما أحرزه من كشوفات في طبقات السماء الدنيا وأفلاكها، يزيد المتدبر انبهارًا بهذا القرآن المجيد من جهة، وما فيه من إشارات دقيقة إلى كثير من الحقائق العلمية المكتشفة أخيرًا، ويفتح الفكر والبصر - من جهة ثانية - على مشاهدة دقة صنع اللَّه وعظمته؛ بما يجعل العقل المتواضع للَّه يسجد لخالقه ويخضع للَّه الواحد القهار! ولا يحيل أبدًا أن يكون الرب العظيم الخالق لهذا العالم السماوي المركب من الأجرام والأفلاك الممتد في المجهول قادرًا على هدمه وإعادة خلقه متى يريد، وذلك هو معنى يوم القيامة ومعنى البعث والنشور..!

والتعبير بفعل « البناء » في خلق السماء دالٌّ على إحكام التركيب لطبقاتها الفضائية، والتوازن الدقيق لأفلاكها، والانتظام البديع لمداراتها ونجومها وكواكبها، وجميع منظوماتها الشمسية ومجرَّاتها؛ بما يجعلها مثل قصر بديع محكم المعمار، مزين بفسيفساء مختلفة الأشكال الهندسية والألوان المشعة، لكنها في مجموعها تشكل نسقًا واحدًا لا اختلال فيه ولا اضطراب! وأما التعبير بالتزيين في هذا السياق فهو أمر مشاهد بالعين المجردة، سواء في الليالي الحالكة ذات النجوم المتشابكة الوميض، أو الليالي المقمرة ذات الحسن المتدفق نحو الأرض، أو في النهار ذي الزرقة الصافية والضياء البهيج، بدءًا من ساعة انفلاق الفجر إلى لحظة شروق الشمس، مرورًا عبر جميع منازل النهار حتى لحظة الأصيل ثم الغروب! وسواء غامت السماء أم صحت؛ وسواء أمطرت أم أمسكت؛ فهي في كل ذلك تفيض بالبهاء والجمال، أحوالًا وألوانًا وأشكالًا!

ويتحدث علماء الفلك اليوم عن ثقوب حدثت في طبقات الجو؛ بسبب التصرفات الطائشة للإنسان، وما تفرزه مصانعه وقنابله من غازات ضارة، أدت إلى خروم وخدوش في الأغلفة الفضائية الحامية للبيئة الأرضية! فأدى ذلك إلى اضطرابات شتى في الحياة الحيوانية والإنسانية في الأرض، وإلى اختلالات شتى في موازين الحرارة وهيجان الأعاصير واضطراب البحار.. إلخ. ورغم أن مدارساتنا هذه لم توضع لهذا الغرض، إلا أننا نقتبس من الشروح العلمية المعاصرة حقائق تعيننا على تدبر كلمات اللَّه، فاقرأ ذلك كله ثم تدبر قوله تعالى ههنا: ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ ﴾ والفروج: الشقوق والثقوب! تدرك أن يد اللَّه ﷻ قد أتقنت كل شيء صنعًا، وأن يد الإنسان كلما تدخلت في شيء من أمره من غير إذنه تعالى إلا أفسدته وخربته؛ بما يعود عليها هي نفسها بالهلاك والدمار! وما الأعاصير الرهيبة، الضاربة لكثير من القارات اليوم، إلا رد فعل غاضب من السماء على تدخل الإنسان في بنائها بالإفساد والتخريب!

ويلفت التنبيه القرآني النظر البشري بعد ذلك إلى جمال خلق اللَّه للأرض وما عليها.. ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ﴾ والـمَـدُّ: البسط والتوسيع والتذليل.. كذلك هي الأرض بالنسبة لكل من يسكنها من إنسان وحيوان. ورغم أن الأرض كروية الشكل - كما أشار إليه القرآن في غير ما آية -

إلا أنها بالنسبة للإنسان ممدودة منبسطة، تمتد سهولها، وجبالها، وأنهارها، وبحارها، كلها بين يديه لينة متذللة! فيزرع سهولها وجبالها ويسخر أنهارها وبحارها فيما ينفعه وينفع عمرانه! وللرواسي - وهي الجبال - وظيفة أخرى هي التثبيت والترسية. فهي أوتاد الأرض التي تحفظ توازنها في نفسها وفي مدارها؛ بما يطمئن الحياة البشرية على الأرض. وتنفتق التربة بالنباتات والأشجار، وتنبت من كل زوج بهيج أي من كل نوع بهي يفيض بهجة وجمالًا، فترى الخضرة تتدفق على درجات مختلفة من البهاء والنور، فإذا أزهرت الأغصان أو أثمرت، كان لجناتها من البهجة والحبور ما يغري أجناس الأطيار وممالك النحل بعمرانها بالتغريد والتفريد! ولا تكاد بهجة الحقول والبساتين مما خلق اللَّه وأحيا تقف عند حد تجليات شتى تجعل المتأمل يغرق في بحار جمالها الخلاب! نباتات وأشجارًا تملأ السهول والوديان والهضاب والجبال؛ معبرة عن أن يد اللَّه ما تزال ترعى كوكب الأرض بالعناية والرعاية والتدبير، عبر كل المنازل والفصول..! عسى أن تستيقظ القلوب على مشاهد أنوار الأسماء الحسنى وآثارها البهية على مرايا الأرض في كل مكان.. فإنما جعل اللَّهُ ذلك كلَّه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝﴾ والتَّبْصِرَةُ: الموعظةُ الْـمُبَصِّرَةُ للقلوب، والدالة لها على آياتِ اللَّه المرسومة على كل شيء. والذِّكْرَى: الموعظةُ الْـمُذَكِّرَةُ للقلوب، أي المفكِّرةُ لها عند الغفلة والنسيان. والمعنى أن ما ورد من آيات كونية في خلق السماء والأرض، تبصير وتذكير للإنسان، وتنبيه قوي له وبيان لتجليات الرحمة الإلهية على العالمين؛ بما يجعله يدرك أن الرب الذي خلق هذا العالم لم يهمله ولم يغب عنه سبحانه.. بل هو إله حي قيوم، يدبر أمر مملكته ويرعى شؤونها.. وعسى ذلك أن يجعله ينيب إلى خالقه ويدخل تحت ربق عبوديته طوعًا كما هو داخل تحته كرهًا! فإنما العبد المنيب: هو المؤمن الرجّاع إلى اللَّه، المسارع إلى طاعته، والتحقق من مقام عبوديته؛ كلما تبصَّر أو تذكَّر.

وبعد استثمار هذه الموعظة العميقة من التنبيه إلى جمال الخلق وبديع الصنع، وذكر ما ينبغي لها من آثار على النفس الإنسانية؛ انتقل الخطاب القرآني إلى عرض مشاهد أخرى من أسرار الحياة والإحياء على وجه الأرض، وما لذلك من ارتباط وثيق بحقيقة البعث والنشور، وأن القدرة المحيية للنبات في دورات متوالية قريبة هي نفسها القدرة المحيية للإنسان بين دورتين: دورة الخلق الأول ثم دورة البعث الآخر.

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝ ﴾.

فمن ألطف الإشارات التي تنبثق عن حركة الأمطار، ومشاهد الرحمة المتنزلة بالغيث، فوق الروابي والمزارع والديار، بما لها من مقدمات الغيوم والرياح، ثم بما يتبعها من صَيِّبٍ نافعٍ، وقَطْرٍ مبارك كريم، متردد بين وَابِلٍ وطَلٍّ، وفي فعل التنزيل المضعَّف هذا ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ إشارة لطيفة إلى حركة الغيث المترسلة، ونزوله فترة بعد فترة حسب الحاجة وأوقات المنفعة؛ بما لا يكون فيه ضرر على الفلاحات والعمران؛ ولذلك وصفه الرحمن بـ « المبارك »، والماءُ المبارك يحيي ولا يقتل، وينفع ولا يضر..!

ثم إن اللَّه - جل ثناؤه - وصف ماء السماء بالبركة هنا أيضًا؛ بسبب ما يكون له من آثار في خروج النبات من تحت الأرض، ونمو الزروع والأشجار، وكل ما يرجو الإنسان حصاده من الخيرات والبركات، من مثل حب الحصيد، وهو القمح وما في معناه من أنواع الزروع والحبوب المدخرة، مما ينبني عليه قوت الإنسان. ثم ما يكون من اخضرار الروابي والبساتين والجنات ذات الخمائل والثمار والأطيار.. ويخص الرحمن أشجار النخيل بالذكر لما لها من جمال أخَّاذ وثمر كريم من جهة، ولما للتمر من قيمة غذائية لا تكاد تضاهى، ثم لأن التمر كان هو فاكهة العرب الأولى وما يزال. والباسقات من النخيل هن الطوال الشاهقات، الضاربات بطولهن في السماء! مترفعات في عزهن بما أخرج اللَّه منهن من طلع نضيد. والطلع هو عراجين النخل بعد بزوغها من أكمامها مباشرة، وقبل انتثار أزرارها، حيث تكون براعيمها الصغيرة آنئذ ما تزال منتظمة بدقة متناهية كانتظام حبات الرمان تحت غشائها، أو كانتظام عيون الشهد المختوم، قبل نزع غلائله الرطبة!

وإنها لمشاهد خارقة الجمال حقًّا! إنك إذ ترى الزروع والثمار، والبساتين الغناء، والنخل الباسقات تلفحك الأشواق التي حلقت بتلك الأغصان عاليًا، وارتفعت بذلك السعف الأخضر الجميل وهو يحتضن أثداء الطلع النضيد، متطلعًا بجوانحه نحو السماء وكأنما هو يعتزم التحليق إلى الأفق الأعلى! وإنك لترى الأشجار فعلًا تتطلع بأغصانها وأكمامها إلى خالقها العظيم!

ثم.. ثم تثقل العراجين بثمارها شيئًا فشيئًا حتى تتدلى نحو الأرض خاشعة!

وكأنما هي أم تحنو على طفلها الرضيع بأثدائها العامرة! وتتدلى التمور والثمار نحو الأرض؛ رزقًا للعباد! تلك هي قصة الماء المبارك، وتلك هي دورة الحياة التي يصرِّفها الرحمن ما بين السماء والأرض؛ فيحيي به الأرض بعد موتها! ﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ ... ﴾ فترقص فرحة الحياة في العمران، ويخضر الأمل في القلوب، من بعد يأس وقنوط!

إن المتفكر ليرى يد الخالق العظيم حاضرة خلف ستار حركة الكون، فهو تعالى يدبر أمر مملكته، ويرعى شؤون خلقه، ويسوق لهم الأرزاق ويفجر من حولهم أنهار الحياة! وأنت تلحظ أن الأفعال كلها في الآيات السابقة مسندة إلى فاعل واحد هو اللَّه رب العالمين، وأن التعبير فيها جميعًا واقع بضمير المتكلم « نَا » الدال على الحضور القوي! (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا... وَأَلْقَيْنَا فِيهَا... وَأَنْبَتْنَا فِيهَا... وَنَزَّلْنَا... فَأَنْبَتْنَا بِهِ... وَأَحْيَيْنَا..) فهذا الفاعل العظيم الحاضر القوي، المستوي على عرشه يدبر أمر مملكته؛ بما يشاهد الإنسان آثاره حواليه قوية متدفقة بالحياة، هو نفسه سبحانه إذ يعرض تلك المشاهد كلها يقول لنا: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ تمامًا كما ينبت الزرعُ ويولد الطَّلْعُ؛ يخرج الإنسان من تحت التراب كالشجرة الخضراء ليوم النشور..!

ومن أعجب الأحاديث الواصفة لحركة البعث والنشور، ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **مَا بَين النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ!** - قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ! قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ! قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ! - **ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ! قَالَ: وَلَيسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ! مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!** »[1]. قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: (وَكَأَنَّ أَبَا هُرَيْرَة لَمْ يَسْمَعْهَا إلا مُجْمَلَةً؛ فَلِهَذَا قَالَ لِمَنْ عَيَّنَهَا لَهُ: « أَبَيْتُ! ») بمعنى: امتنعت عن بيان المعدود، أهو أربعون يومًا، أم أربعون شهرًا، أم أربعون سنة؟ لأنني هكذا سمعته من النبي ﷺ مجملًا من غير تفصيل.

ولا عبرة عندنا بذلك ههنا، وإنما العبرة هي بقوله ﷺ: « **ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ**

---

(١) متفق عليه.

مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ! » وهو المفسِّر بدقة لما نحن فيه من قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ وهو تشبيه من الدقة بمكان! لأن الإنسان يصير بعد الموت إلى ذرة صغيرة، هي البذرة الدقيقة التي سوف يُسْتَنْبَتُ منها مرة أخرى! وهي ذرة كامنة في عَجْبِ الذَّنَبِ كما في الحديث المذكور. وعجب الذنب هو الفقرة السفلية الأخيرة من العمود الفقري البشري، التي هي موضع الذيل من الحيوانات ذوات الذيول! والذرة الكامنة هناك هي من الصغر والدقة بحيث لا تكاد تُرَى بالعين المجردة! ومع ذلك فهي تحتوي على كافة الأسرار الوراثية والتكوينية لكل إنسان في بدنه! تمامًا كانطواء شجرة اللوز أو شجرة الجوز كلها في نواتها الصغيرة! ففي هذه النواة الصغيرة تكمن جميع العناصر التي منها تتكون شجرتها؛ كالجذور، والأغصان، والأوراق، والأزهار، والثمار..! فكذلك ذرة عَجْبِ الذنَب في الإنسان! ولذلك فهي لا تبلى ولا تفنى أبدًا! إنها ذرة غير قابلة للتدمير، ولا للتخريب، ولا للاحتراق، ولا لأي نوع من أنواع الفناء والإفناء!

ويعود الخطاب القرآني إلى أصل السياق، من الحديث عن منكري البعث والنشور، في زمن النبي ﷺ وما بعده إلى يوم القيامة؛ ليذكرهم جميعًا بأيام اللّه وسُنَّتِهِ في الذين خلوا من قبل من الكفرة والمكذبين! فكانت النتيجة أن اللّه أهلكهم وتَبَّرَهُمْ، وقطعَ دابرهم في الدنيا! ثم جعلهم حطبًا للجحيم في الآخرة! ذلك وعيد اللّه ونذيره الذي لا تتخلف سُنَّتُهُ على ما رتبه اللّه في كتابه ومحكم وحيه! قال ﷻ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ فهذه كلمات قلائل اختصرت مصارع قرون عديدة من الأمم والشعوب!

فأما قوم نوح فقد أهلكهم اللّه بالطوفان المشهور. وأما أصحابُ الرَّسِّ فهم: بقيةٌ من ثمود - وقيل: من غيرهم - قَتَلُوا نبيهم وألقوه في بئر لهم، على ما ذهب إليه جمهور المفسرين. والرَّسُّ في العربية: الحفرةُ عمومًا، والبئرُ المبنية بالحجارة. تقولُ: رَسَسْتُ رَسًّا، بمعنى: حفرتُ بئرًا. ورُسَّ الميّتُ: قُبِرَ ودُفِنَ [١]. وقد أهلك اللّه ﷻ

---

(١) ن. الصحاح، ولسان العرب: مادة « رسس ».

أصحابَ الرَّسِّ وتَبَّرَهُمْ تتبيرًا، كما هو مذكور بإجمال في سورة الفرقان [١].

وثمود هم قوم نبي اللَّه صالح عليه السلام الذين عقروا الناقة المعجزة، وكذَّبوا رسولهم وسخروا منه؛ فأهلكهم اللَّه بالرجفة وبالصيحة! وأما عَادٌ فهم قوم نبي اللَّه هود عليه السلام كفروا به؛ فأهلكهم اللَّه بالريح الصَّرْصَرِ ذات الإعصار المدمر! وأما فرعون هنا فهو طاغية مصر المشهور، عدو موسى عليه السلام، وقد أغرقه اللَّه وجنوده في اليم! وأما « إخوان لوط » فهم سكان مدينة سَدُومَ، وهم أصحاب الفاحشة الشاذة! وقد أهلكهم اللَّه بالخسف، والقذف بحجارة مدمرة، أرسلتها عليهم الملائكة من السماء!

وأما أصحاب الأيكة – بمعنى أصحاب الشجرة – فهم قوم نبي اللَّه شعيب عليه السلام، كانوا بِمَدْيَنَ، وكانت قريتهم محاطة بالأيك، أي الأشجار والبساتين، فسُمُّوا بذلك. ثم كفروا نِعَمَ اللَّه عليهم، وكذَّبوا نبيَّهم، فأهلكهم اللَّه بعذابِ يومِ الظُّلَّةِ! والظُّلَّةُ: غمامة سوداء التهبت عليهم بإعصار فيه نار فأحرقتهم أجمعين! وقد جمع اللَّه عليهم من العذاب – بسبب تماديهم في الطغيان وتحدِّيهم لرب العالمين – الرجفةَ، والصيحةَ، ونارَ الظلة؛ فأهلكهم بذلك جميعًا! [٢].

وأما قومُ تُبَّعٍ فهم أصحابُ تُبَّعٍ ملك اليمن، واسمه: تُبَّانُ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبَ الْحِمْيَرِيُّ مَلِكُ اليَمَنِ. وتُبَّعٌ لَقَبٌ لسلسلةٍ من ملوك اليمن، وهم التَّبابِعَةُ. وهم من نسل سَبَأٍ جَدِّ القبائل اليمنية. عاش تُبَّانُ أَسْعَدُ قبلَ الإسلام، وقد كان على دين إبراهيم حنيفًا، بينما كان قومه على عبادة الأوثان، وقد ثبت في حقه حديثٌ صحيح، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: « لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ! » [٣].

ولم يزل تُبَّعٌ هذا يدعو قومَه إلى الإسلام؛ حتى أسلم من أسلم منهم وكفر من كفر، لكنه لما مات ارتدوا جميعًا على أدبارهم إلا قليلًا منهم، فكفروا بأنعم اللَّه مما أفاء عليهم من الجنات والبساتين والثمار، وعادوا إلى عبادة الأوثان من جديد؛

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨، ٣٩].

(٢) ن. تفسير ابن كثير: الآية (٩٤) من سورة هود.

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة (٥/٥٤٨)، وقصة تُبَّعٍ هذا مفصلة في كتب السِّيَرِ، مثل سيرة ابن هشام (١/١٩ – ٢٦)، وسيرة ابن كثير (١/١٨ – ٢١).

فأرسل الله عليهم هلاكًا شاملًا، بما دمر عليهم من سد مأرب! [١].

فكل هذه الأمم والشعوب اشتركت في جريمة الجحود والتكذيب؛ فاشتركت بسبب ذلك في نتيجتها! وهي التعرض لنقمة الله وعذابه من الهلاك والتدمير! وإن اختلفت الصور والتجليات! لكن السُّنة واحدة! وهي قوله تعالى ههنا: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ ﴾ أي وقع وَعِيدُ الله ونذيره الذي حَقَّ على هؤلاء وأولئك جميعًا ووجب عليهم؛ فوقع بهم العذاب على وفق ما أنذرهم الله وأوعدهم؛ لما وقعوا في السبب المحذور!

وبعد عرض هذا الوعيد الشديد، بما ذكر - مجملًا - من مصارع القوم، تنبيهًا على سنة الانتقام الإلهي من كل جبار عنيد، سواء كان من الملوك، أو المدائن، أو الأمم والشعوب؛ رجع الخطاب - في ختام هذه الفقرة - إلى محاجة الكفرة، من منكري البعث والنشور، منبهًا بقوة من خلال سؤال إنكاري إلى قدرة الله على الخلق الأول، وكيف أن الكفر يلبس على أهله فلا يبصرون إمكانية الخلق الجديد، والتكوين الثاني؛ بالقياس على الخلق الأول! وهو بسيط جارٍ على أوضح الأقيسة وأظهرها، ألَا وهو قياس الأَوْلَى! لكن هوى الجحود والإنكار يعمي البصائر عن مشاهدة الحق! وتقع القلوب في لبسٍ وحيرةٍ واختلاطٍ واضطرابٍ في تصورها واستدلاله وكذلك هي نظريات الكفر والإلحاد عبر التاريخ! قال ﷻ: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ﴾ فوجود هذا العالم المخلوق على سعته وشساعته، وعمق امتداده؛ بما لا طاقة لخيال الإنسان على حصره؛ كله دال على أن الذي لم يَعْيَ ولم يعجز عن

---

(١) ذكر ابن كثير رحمه الله - بعد بحث مستفيضٍ في الروايات التاريخية - أن تُبَّعًا هذا قد أسلم على دين موسى، وذلك قبل بعثة المسيح عليه السلام وأنه حج البيت الحرام، وكَسَا الكعبة. ولا خلاف، فدين موسى هو دين إبراهيم، قبل انحراف بني إسرائيل عنه. فلما عاد تُبَّعٌ إلى اليمن أسلم قومُه على يديه، بعد تردد شديد ونكوص. لكنه لما مات عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وعبادة الأصنام والنار! فأرسل الله عليهم سَيْلَ العَرِمِ - وهو سَدُّ مَأْرِبَ - وشرد الذين بقوا أحياء منهم، هائمين على وجوههم في الصحاري والقفار! كما هو مذكور في قصة سبأ! ن. تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦]. والعَرِمُ: جمع عَرِمَةٍ، وهي السُّدَّةُ المبنية لحصر الماء. فلما حطمها الله تدفق عليهم ماء السد العظيم فأهلكهم وشردهم!

خلق هذا العجب العجاب من الكائنات، وهذا الكم الهائل من المخلوقات، بشتى أنواعها وأحجامها ودقائقها؛ هو على خلقها مرة أخرى - بعد إفنائها - أقدر وأحرى! ففيم الإنكار للبعث بعد الموت إذن؟ إن الكفر منطقٌ متهافتٌ متناقض حقًّا! ولذلك قال سبحانه: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ واللبس: الحجب والتعمية؛ بسبب ما يقع في القلب من الشك والحيرة والاضطراب. وأي لبس أعظم من عدم إبصار هذه الحقيقة الصارخة، التي تنطق بها المخلوقات بشتى أنواعها؟ وكيف يعمى أحد عن هذا المنطق القرآني الواضح العميق؟ قال تعالى في سورة الروم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

ألَا وإنه لا يبصر طرفًا من الخلق الأول، ثم يشك في قدرة الله على الخلق الثاني إلا أعمى حقًّا! ذلك، وإنما هُدَى الله هو الهدى! ثبتنا الله وإياكم على نوره وصراطه المستقيم، وزادنا من فضله هدًى على هدًى، وجعلنا من الشاكرين!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات التالية:

الرسالة الأولى: في أن الحقائق المكنونة في القرآن المجيد، صادرة عن غيب مجيد، ببيان مجيد! ومن ثم فإنه من المهم جدًّا أن لا يغفل المؤمن - وهو يتلو كتاب الله أو يتدارسه - عن أنه كلام متنزلٌ من عالم المجد الأعلى، هناك في اللوح المحفوظ! وأنَّ به أسرارَ ذلك العالم مما بث الله فيه من حقائق ومقادير أزلية، ترسم طريق السالكين إلى الله في الأرض! وأنه ما ورد عبدٌ ربيعَ نورِه المجيد، إلا كان من الواصلين الماجدين في الدنيا والآخرة!

الرسالة الثانية: في أن نبأ البعث بعد الموت وخبر النشور والجزاء، هو أعظم خبر في القرآن المجيد! وبذلك جاء النذير..! وعلى هذا مدار الوعد والوعيد في كتاب الله. كما أن كل قضايا القرآن العقدية، وكذا قضاياه التشريعية، سواء في العبادات أو المعاملات، كلها منوطة بالمصير الأخروي ومنضبطة إليه. ومن ثم وجب على المؤمن أن يجعله نصب عينيه في كل عمله. كما أن على الداعية أن يجعله مرجع خطابه، وحادي دعوته، سواء عند التعريف بالله وبحقوقه، أو عند الدعوة إلى التزام شرع الله فيما شرع من حقوق عباده.

الرسالة الثالثة: في أن من أهم المسالك المعرفة بالله راجعة إلى فتح نظر الروح؛ لمشاهدة علمه المحيط، وقدرته العظيمة، ومشاهدة هيمنتهما على كل شيء، ومعرفة جميع ما علَّمَنا ﷻ من صفاته، وأسمائه الحسنى.. وأنه ما من ذرة من ذرات الخلق البشري والكوني، إلا وهي محصاة بالكتاب الإمام، الضابط لكل شيء في السماوات والأرض، مما كان وما سيكون إلى يوم القيامة! وأنه لا يقوم إيمان امرئ حتى يؤمن بذلك؛ لأنما هو راجع إلى الإيمان بالقَدَرِ، وهو ركن من أركان الإيمان، وأصل من أصوله الكبرى. وقد أوصى الصحابيُّ الجليلُ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ ﷺ ابنه بكلمات من حديث رسول الله ﷺ قال: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ! قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ!..** » يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي!** » [(١)].

ذلك قَبَسٌ من نور قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝ ﴾ وإنه لباب من أبواب العلم بالله عظيم!

الرسالة الرابعة: في أن الكفر ظلامٌ أعمى!.. ذلك أن التكذيب بنبأ القرآن المجيد، والتشكيك في قدرة الله ﷻ على الخلق والإحياء، والبعث والنشور، هو أكبر الضلال! فالكفر مهما بلغ من علم الكونيات والطبيعيات، فإنه لا يتعرض لتفسير حقائقهما المصيرية - بما يناقض حقائق القرآن - إلا ويصاب بالاضطراب والاختلال، ويدخل في متاهات الخَرْصِ، ومَرْجِ التأويل والتحليل! ولن تزال نظريات الكفر والإلحاد - باختلاف مذاهبها واتجاهاتها - في أمر مَرِيجٍ؛ إلى أن تتحطم تحت أهوال القيامة!

الرسالة الخامسة: في أن النظر إلى خلق السماوات والأرض بعين الإيمان، يصقل مرآة القلب والعقل؛ فتستقيم معطيات البحث العلمي المادي المعاصر، وتجد راحتها في النسق الإيماني المنتظم على موازين القرآن. وإن المؤمن ليرى آنئذ بهذا المنظار

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير، والطيالسي في مسنده. ومعناه مروي عن ابن عباس أيضًا. وصححه الألباني في تحقيق سنني الترمذي وأبي داود، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع الصغير.

القرآني النافذ، ثم بما عنده من معطيات علمية - ولو كانت قليلة - حقائقَ الكون منتظمةً في صف الصلاة، راكعة للّه وساجدة! بما يشوقه إلى الإنابة إلى ربه، ويغمره بالحنين إلى عبادته.. وإنه بذلك أيضًا ليرى من عجاب الخلق ما لا يراه المتخصص العليم، المتضلع بكثير من المعادلات الدقيقة والمفاهيم الغامضة! وماذا أعجب من أن يسمع المؤمنُ البسيطُ هديلَ الحمام؛ فيقرؤه تسبيحًا وتوحيدًا؟ ولا يَرَى أو لا يُخْبَرُ عن شيء من عجائب المخلوقات، مما كَبُر أو صغُر؛ إلا شاهد موقعه من مسجد الكون الكبير!.. لكن الكفر مهما تحقق به من الكشوفات والمعطيات نظرٌ أعمى!

الرسالة السادسة: في أن الحركة الجارية في الكون هي من أهم ما ينبغي للمؤمن رصده والتفكر فيه؛ لأن الحركة ظاهرة الدلالة على القوة الْمُحَرِّكَةِ! فمشاهدة حركة الرياح، وحركة المطر، وحركة الفَلَكِ، وحركة الزمان، وحركة الشروق والغروب، وحركة الإنبات اللطيفة، وحركة النمو الخفية، سواء في الإنسان أو الحيوان أو النبات.. إلخ؛ كل ذلك يكشف - لمن تفكر فيه - عن حضور التدبير الإلهي لشؤون الخلق، وأن اللّه - جل ثناؤه - لا يُهمل من مخلوقاته شيئًا على الإطلاق!.. وفي ذلك من الأنس باللّه، والشعور بمعيته تعالى؛ ما يملأ القلبَ إيمانًا، وطمأنينةً، وسكينةً، وفرحًا عظيمًا باللّه!

الرسالة السابعة: في أن دورة النبات وتقلبها بين فصولها الأربعة، وحركة المطر، والنظر في جميع مراحل الخلق والتكوين للزروع والأشجار، وما تمرُّ به من أحوال التخلق والنمو، إلى أن تزهر وتثمر، ثم تُحصد أو تُجنى، ثم تُزرع من جديد.. وكذا مشهد الأشجار؛ إذ تنفض أوراقَها الميتة، ثم تتبرعم بأغصانها وُرَيْقَاتٌ جديدة، وتتفتح بها أزهارٌ جديدة.. إلخ؛ كل ذلك مهم جدًّا في معرفة حقيقة الإنسان، ومشاهدة تطورات مسيرته الوجودية، منذ اللحظات الأولى لخلقه، من ضعفه إلى أَشُدِّهِ، إلى نكوصه نحو ضعفه مرة أخرى، وذبوله تمامًا كما تذبل الشجرة! إلى لحظة موته، ثم بعثه من جديد..! فسبحان اللّه، واللّه أكبر!

الرسالة الثامنة: في أن التكذيب بحقائق الإيمان جريمةٌ تستحق عقاب اللّه ﷻ ! وأن سنة اللّه الجارية في الاجتماع البشري، أنه ما من أمة تواطأت على الكفر، والتنكر لحقوق اللّه؛ إلا أذاقها اللّه نكدًا وشقاءً، هنا في الدنيا قبل الآخرة! ولعذاب الآخرة أشد! عافانا اللّه وإياكم من عذابه وسوء عقابه!

ولا يغرنك ما عليه كثيرٌ من دول الكفر من رفاهية دنيوية، ورخاء مادي! فإنما هو بريقٌ خادع! ولمعان كاذب! ولو عشت معيشتهم لوجدت أنها هي الشقاء بعينه! إنهم عبيدٌ لشهواتهم، يكرعون في بحرها الآسن، يشربون ويشربون ثم لا يرتوون!.. ثم ينتحرون! وما ظنك بقوم تمردوا على اللَّه خالقهم؟

٤ - مسلك التخلق:

الْخُلُقُ المطلوب بهذا المسلك هو التحقق باكتساب بصيرة الإيمان! البصيرة المتحلية برهافة الحس، وأذواق الروح، والنظر القلبي النافذ، المشاهِد لتجليات شؤون الربوبية، في خَلْقِ العالم وتدبيره، والمشاهِد لتجليات الأسماء الحسنى، فيما نراه يوميًّا من حركة الفَلَكِ المحيط بنا، ودورات الفصول والأمطار!

ويكون التحقق بهذه البصيرة خُلُقًا ثابتًا بإذن اللَّه؛ بتدريب القلب على عمل لطيف، هو سر من أسرار الإيمان! وذلك بأن يداوم المؤمن على تأمل مناظر الخلق، بعين التائب إلى اللَّه المنيب إليه، ويشحن نظرَه إليها بعواطف الشوق إلى الخالق العظيم! فإنه عندئذ تتحول تلك المَشَاهِدُ في قلبه إلى ما يشبه الدعاء؛ فتتجلى عليه في لحظة الصفاء والإخلاص أسرارُها الربانية؛ وتبدي له من جمال الأسماء الحسنى وجلالها، ما يرقيه إلى مقام اليقين، إن شاء اللَّه! فلا يرى بعد ذلك شيئًا إلا بنور اللَّه!.. كذلك تُكتسب بصيرةُ الروح، وكذلك تُصقل عيون الإيمان! فالنظر المنيب هو كشاف الحقائق، وصَيْقَلُ البصائر، وذكرى القلوب! ولك أن تتدبر من جديد ما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾.

فاللَّهم ارزقنا صفاء البصيرة، ونقاء السريرة، وطهارة القلب! واجعلنا من عبادك المنيبين إليك!

* * *

المجلس الثاني

في مقام التلقي لحقيقةِ الإنسان العَبْدِيَّةِ،
ورحلته الموثَّقة من الدنيا إلى الآخرة،
وبيان خصامه بين يدي الله تعالى يوم القيامة
وما يترتب عن ذلك كله من جزاء..!



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللهُ جلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

كان المقطع الأول من السورة في عرض قضية البعث والنشور؛ فجاء هذا المقطع الذي هو وسط السورة وصلبها؛ ليعرض قضية الإنسان ومصيره عند ذلك البعث، وخلال ذلك النشور! فتكشف الآيات عن أهم حقيقة من حقائق خلق هذا الإنسان، وهي أنه مهما تمرد واستعلى، إنما هو مجرد عبد! عبد مربوط إلى عقاله، مقيد من

عنقه، لا يستطيع الفكاك من وثاقه، ولا الإِبَاقَ من سيده أبدًا! فهو في قبضة ربه الذي خلقه، مقهور بقدرته، مُحَاطٌ بعلمه، مراقَبٌ بملائكته، محكوم بقضائه وقدره! فذلك قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

تلك هي العَبْدِيَّةُ التي خُلِقَ عليها الإنسان، وغفل عنها كثيرٌ من الناس، فلم يدخل تحت رِبْقِ العبودية منهم إلا قليلًا! إن الإنسان يستطيع أن يتمرد على عبوديته - ولكل تمرد حساب! - لكنه لا يستطيع أبدًا أن يتمرد على عبديته؛ لأن العبدية ببساطة هي قضاؤه وقَدَرُهُ الذي خُلِقَ به! فإنما هو عبدٌ ضعيف، يصبح رهينَ عمله، ويبيت أسير أجله! فإذا نفخ فيه الشيطان أوهمه أنه عملاقٌ جبار؛ فيطغى في الأرض..! فإذا سقط حتف أنفه تبين له أنما ذلك كان مجرد أوهام! فهذا أشد خطاب وجهه الرحمن - في هذا السياق - إلى منكري البعث والنشور، من الكفرة الفجرة.

ويتكلم الرب الجليل بنفسه عن حقيقة خلق الإنسان، مسندًا أفعال الربوبية وصفاتها العظمى إلى ذاته: الخلق، والعلم، والقدرة. ويجعل الإنسان واقعًا تحت سلطانها، عبدًا مقهورًا لا يستطيع الفكاك! يتكلم الرب العظيم بنفسه، فيقشعر جلد المؤمن لكلامه! ويبهت قلب الكافر لخطابه! يتكلم الرب العظيم فيحسم قضية خلق الإنسان، وأنه هو ﷻ قد خلقه، وهو الحاكم على كل حياته ومصيره! ويتوارد إسناد الأفعال - في الخلق والتقدير والعلم والتدبير - إلى الضمير المتكلم الحاضر « نا »، الدال على الذات الإلهية؛ لقطع كل وساوس الشك والريب في النفوس الضعيفة المريضة، ولإخناس الشيطان المتمرد في قلوب النفوس الجاحدة العنيدة؛ ولذلك ابتدأ هذا الخطاب القوي الرهيب بلام التوكيد، وحرف التحقيق « قد »؛ لنقض أمر الكفار الْـمَرِيجِ! فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ... ﴿١٦﴾ ﴾.. هو اللّه الخالق ﷻ يتكلم! فمن ذا قدير على رد كلامه؟ ومن يستطيع إنشاء قصة خلق الإنسان من غير حقائق القرآن المجيد؟ إذن يتهافت أمره المريج كما تهافت صاحب نظرية التطور القِرْدية، وأصحاب ضلالات صدفة الطبيعة!

والخالق العظيم حاضرٌ هنا بقوة، يعبر عن علمه المحيط بكلِّ خوالج هذا الإنسان

النفسية، وبما تماوج في أعماقه من وساوس وهواجس! أليس هو ربه الذي خلقه؟ فكيف يغيب عنه شيء من ذلك؟ كلَّا! كلَّا! بل هو تعالى أقرب إلى عبده من حبل وريده! والوريد هو: شريان القلب النابض بالدم في عنق الإنسان! وكفى بذلك دلالة على إحكام القبضة على هذا المخلوق الضعيف! فمصير حياته كلِّها بيد الرحمن. وقد جعل سبحانه - بمقتضى حكمته التدبيرية وإرادته التكوينية - على الإنسان مَلَكَيْنِ موكلين بتوثيق كل أقواله وأفعاله، وإحصاء جميع تصرفاته في الخير والشر! فكلٌّ منهما يتلقى عن الإنسان كل شيء حتى اللفظة العابرة اللاغية! وما التوثيق الملائكي إلا ليكون الكتاب شاهدًا على ابن آدم يوم القيامة. أما الرب العظيم فهو أعلم بالسر وأخفى.

والتعبير بفعل « التَّلَقِّي » ووصفُ المَلَكين به بصيغة اسم الفاعل: « الْـمُتَلَقِّيَانِ »، دال على شدة الرصد، وقوة التمكن من مهمتهما؛ لأن تلقِّي الشيء لا يكون إلا باستجماع الطاقة كلها والانتباه الشديد. ومفعول التلقي هنا محذوف لدلالة السياق عليه، وهو أقوال الإنسان وأعماله. كما أن التعبير بصفة « قعيد » فيه دلالة على دوام القعود والملابسة. وأصل « قعيد » هو بمعنى « قَاعِد »، كعليم وقدير، على وزن « فعيل » مبالغة من « فاعل ». وقيل: بل هو بمعنى « مُقَاعِد »، كما قيل للمُجَالِسِ: جليس. وكلا المعنيين دال على الملازمة الثابتة والمصاحبة الدائمة! وقد روى الإمام الطبري عن غير واحد من السلف منهم مجاهد، وقتادة، والحسن، أن ملَك اليمين يكتب الحسنات، بينما ملَك الشمال يكتب السيئات! [1] فما يلفظ الإنسان من قولٍ، وما ينطق بكلمة من خير أو شر؛ إلا ويلتقطها المَلَكُ فيسجلها في صحيفته، إما له وإما عليه! وعبَّر في الآية بلفظ « القول » دون ذكر « الفعل »؛ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لأن الكاتب الذي لا يشذ عن توثيقه لفظ واحد يخرج من فم ابن آدم؛ هو أقدر على توثيق تصرفات الأفعال والأعمال!

وقد وصف اللّٰه المَلَكَ الكاتبَ - سواء الذي عن اليمين أو الذي عن الشمال - بأنه ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ أي أنه شديد الرقابة على الإنسان المكلف به، دائم الترصد لكل أقواله وأفعاله. ثم هو ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي: أنه مُعَدٌّ لتلك المهمة، مُفَرَّغٌ لها تمامًا،

---

(١) ن. تفسير الطبري للآية.

حاضر عند صاحبه لا يفارقه! قوي على وظيفته، سريع التنفيذ لعمله.

ثم يبين الرحمن ﷻ غاية هذه الرقابة الشديدة ومآل هذا التوثيق الرهيب؛ بذكر الأجل المحتوم الذي تنتهي إليه حياة الإنسان، عند فناء عمره المحدود على وجه هذه الأرض، ثم دخوله في مراحل أخرى من عالم الموت! قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ إنها السكرة التي لا بد لكل إنسان أن يذوقها، وهي الغمرة التي لا بد لكل ابن آدم أن يغرق فيها، لحظات قد تطول وقد تقصر، تقبض الملائكة خلالها روحَه، فتنطلق بها إلى مستودعها من عالم البرزخ الأخروي، ثم يُوَارَى جثمانُه الميت تحت التراب.. وتنتهي قصة الحياة الدنيا - بخيرها وشرها - إلى الأبد!

الموت!.. ذلك هو الحق الذي لا يستطيع بشر أن يجحده، ولا أن يدفعه! ولا أن يحيد عنه أو يتجنب الوقوع فيه! الموت هو الحقيقة اليقينية الكبرى، التي تفرض نفسها كَرْهًا على البشرية جميعها، بشتى مِلَلِهَا ونِحَلِهَا!.. إنها القَدَرُ الذي لا يُدفع بطبٍّ أو حَذَر!

وتبقى البشرية في عالم الموت - بعد هلاك جميع الخلق - ما شاء اللّه لها أن تبقى.. حتى إذا أَذِنَ الرب العظيم بيوم البعث؛ نفخ المَلَكُ في الصور - وهو بوق على هيئة القَرْنِ - فتتدفق الأرواح من برزخها نحو مقابرها، فتسكن أجسادها، بعد أن يكون الرحمن قد أنبتها من الأرض مرة أخرى! وما هي إلا لحظة أقل من لمحة البصر، حتى تكون الخلائق حية صاحية، تسمع وترى! وتنطلق الجموع مندفعة - بقلوب وجلة - نحو ساحة الحشر العظيم! ثم يدخل الإنسان بذلك في مرحلة من أشد مراحل اليوم الآخر! قال ﷻ : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ والتعبير بصيغة الماضي في فعل « نُفِخَ » هو للدلالة على قطعية التحقق، وعلى اقتراب الموعد؛ بما يكاد يجعله في حكم الماضي! حتى إذا وقع أدرك الناس أنه يومُ تحققِ الوعيد الذي كانوا يوعدون، وأنه تصديق خبر النذير الذي ورد على ألسنة الرسل والأنبياء!.. ثم تنطلق كلُّ نفسٍ إلى خالقها معها مَلَكَانِ: مَلَكٌ يسوقها إلى ساحة الحشر، ومَلَكٌ آخرُ يشهد بما كان من عملها عند الرحمن!

ثم قال تعالى يخاطب الإنسان الكافر: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ بمعنى لقد كنتَ أيها الإنسان الجاحد محجوبًا بكفرك

عن معرفة حقيقة هذا اليوم! فها أنت ذا اليومَ تحياه بنفسك، وتعيش تفاصيله بذاتك، لحظة بلحظة!

وتخصيص الخطاب في هذه الآية بأنه مُوَجَّهٌ لنموذج الإنسان الكافر - كما قاله غير واحد من المفسرين - هو أوفق للسياق المؤسس للسورة، واستمرار في الرد على الكفرة المنكرين للبعث، الذين: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ ﴾.. فإلى هذا الصنف البشري توجه الخطاب بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝ ﴾ والآية دالة على أن الإنسان بمجرد ما تأخذه سكرة الموت يكون قد غاب وعيه عن الدنيا، وفتح ناظريه على الآخرة! ورأى الحق كما هو! فلا يبقى كافر عندئذ إلا آمن، ولكن بعد فوات الأوان! فقد تقرر في أصول الدين أنه لا يُقْبَلُ إيمان بعد انكشاف الحجاب.. وذلك معنى الابتلاء!

ويجوز أن يكون الخطاب هنا موجهًا إلى جنس الإنسان بإطلاق - كما رجحه الطبري وابن كثير - فتكون الغفلة المذكورة هنا ليست بمعنى غفلة الكفر والجحود، بل هي بمعنى حجب حقائق الغيب عن الإنسان، مما يصدق على المؤمن والكافر على السواء. فغاية علم المؤمن بحقائق الآخرة أنه مُصَدِّقٌ بها، عامل على ميزانها. وهو لا يعرف من أهوالها، ولا من نعيمها وعذابها، إلا ما وقع في قلبه من تصورات لأخبار الرسل والأنبياء! لكن صورة الحقيقة كما هي محجوبة عنه - لحكمة الابتلاء - بِحُجُبِ الحياة الدنيا! ذلك هو الغطاء الذي يغطي بصر الإنسان كل إنسان؛ فيحجبه عن مشاهدة عالم الغيب، ويبقى حبيس عالم الشهادة إلى أن يموت؛ فينكشف الغطاء بدخوله أَوَّلَ مراحل الغيب، ويعاين الحقائق الإيمانية كما هي؛ لأن الحياة الآخرة بالنسبة إلى الحياة الدنيا كاليقظة بعد النوم الثقيل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝ ﴾ من الحِدَّةِ: وهي هنا قوة الإبصار ودقته، ورؤية حقائق الآخرة، وطبيعة الوجود البشري على ما هي عليه.

ذلك أنه إذا مات ابن آدم ذاق معنى الموت حقًّا! وانتقل المؤمن من علم اليقين إلى عين اليقين! وشهد حياة البرزخ حقًّا، ولحظة النفخ في الصور، وانطلاقة السير الرهيب إلى المحشر المهيب..! ثم عاين ما بعد ذلك من حقائق ومشاهد، إلى أن تستقر كل

نفس فيما قضى الرحمن لها به من الجنة أو النار والعياذ باللَّه!

ثم قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهي آية تختصر - في كلمات - كل تفاصيل الحساب والميزان والفصل بين العباد! والقرين: هو الرفيق المصاحب بإطلاق. والمقصود به هنا: المَلَكُ الذي يشهد بما ثبت لديه من عمل الإنسان. وهذه الآية وما بعدها ترجح مذهب القائلين بأن المخاطَب الموصوف من قَبْلُ بالغفلة عن الآخرة، إنما هو الإنسان الكافر فعلًا [1].

وقوله: ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: هذا كلُّ ما عندي من ديوان عمل هذا الإنسان، مما وثَّقه المَلَكَانِ في حياته. ها هو ذا لديَّ مُعَدٌّ محفوظ حاضر، ومُهَيَّأٌ بإحصاءٍ دقيقٍ، بلا زيادة ولا نقصان!

حتى إذا أدى المَلَكُ الشَّاهِدُ شهادتَه، وتَلَا ما في صحيفته؛ حكم الرحمن بين العباد.. فقال ﷻ: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ والخطابُ بالتثنية في « أَلْقِيَا » هو لِلْمَلَكَيْنِ: السائق والشهيد، أو الكاتبين؛ إذ يأمرهما رب العزة بإلقاء الكافر في الجحيم؛ بما استحق من العذاب؛ بسبب ضلوعه في الإجرام بكل أصنافه! فأنت ترى إدانة القرآن له، كيف تتابعت فيها صيغ المبالغة، وأوصاف الشر المكين! فهو « كَفَّارٌ » راسخ في كفره، « عنيدٌ » متعنت في جداله، وهو « منَّاعٌ للخير » بما يمنع من وصول الصدقات إلى أهلها، وبما يمنع من أعمال الخير جملة. وهو « مُعْتَدٍ » ظالم للمؤمنين المستضعفين، وهو « مُرِيبٌ! » شَاكٌّ مُشَكِّكٌ، ينشر الشك في كل ما حوله، داعية إلى الزيغ والضلال. وكل من رآه يرتاب في أمره؛ بسبب ما يعيشه من حياة الشك والريب في دينه ومعتقده!.. إنها جرائم بعضها فوق بعض!

وهذه العبارات كلها، بدءًا من صيغة المبالغة « كَفَّارٌ »، مع ما لحقها من صفات الشر، كل ذلك دالٌّ على أن المقصود هنا هم رؤوس الكفر، وقيادات الضلال! فهذا النموذج الشيطاني الخبيث ليس مجرد كافر شهواني تابع، بل هو كافر راسخ في كفره، مجاهر به ومعتز! يجادل عنه وينافح ويقاتل! تمامًا كما ترى صناديد الملاحدة

---

(١) وهو المعنى الذي اعتمده سيد قطب ﷺ في ظلاله. كما انتصر له العلامة الطاهر ابن عاشور بقوة! ن. تفسيره للآية.

اليوم يُنَظِّرُونَ للكفر والزندقة، ويدعون إليهما بقوة وجلد، وبعناد شديد..! ولذلك فهو برؤيته الإلحادية يقف في طريق الخير - إن كان صاحبَ سلطان أو ذا قوة حزبية - ويمنع دعوة الخير! ويعتدي على رجالها، وينشر الأراجيف حولها ويبث التشكيكات في نوايا أصحابها! ثم يرفع راية الوثنية المادية، سواء تجلت في عبادة حجر، أو عبادة رمز بشري، أو صنم فكري!

ولا يزال صناع الضلال يبدلون أسماء أصنامهم كلما بهت مصطلح منها، أو مات بريقه الإيديولوجي والسياسي! ومصانع الأسماء الوثنية لا تمل من التصنيع والتصدير. ومهما تغيرت الألفاظ فالصنم واحد! إنه الشهوة والثروة، والسيطرة على المال والاقتصاد!

كل ذلك وما في معناه قد سجّله الملَكَانِ في صحيفة هذا الكَفَّارِ العنيد؛ فاستحق ذلك الْحُكْمَ الإلهي العادل، المناسب لجبروته وطغيانه: ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ويصف القرآن مشهدًا من مشاهد المخاصمة بين يدي الرحمن يوم القيامة.. إنها خصومة بين الكَفَّار العنيد وقرينه الشيطاني، كل منهما يلقي اللائمة على الآخر؛ وكأن هذا الكَفَّار يحاول اتقاء العذاب؛ بإلصاق الجريمة بشيطانه الذي تسبب له فيها، وزينها له بوسواسه! لكنها خصومة يائسة فاشلة، يقطعها الجبار بقوة معلنًا سبحانه أن قضاءه نافذٌ لا يرده شيء! فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقول القرين الشيطاني هنا: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾، هو رد على احتجاج سابق من الكافر، لكنه غير مذكور، وهو مفهوم من سياق هذا الرد، وقد ورد التصريح بنحوه في قوله تعالى من سورة الفرقان: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٩] وفصل جواب الشيطان في قوله تعالى من سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

تلك خصومة الكافر مع الشيطان.. خصومة يائسة قاتلة! يتبرؤ فيها القرين من الإنسان تبرؤًا! ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ هكذا يقول اللعين: « ما أنا الذي جعله يتكبر في الأرض ويطغى!.. ما أنا الذي أرغمه على الكفر بالله رب العالمين!.. بل هو الذي اختار الضلال بهواه، وأوغل في ظلماته بعيدًا بعيدًا! ».. صحيح أن الشيطان يوسوس للنفس ويزين لها شهواتها، لكنه لا يُكره أحدًا على الكفر والفسوق والعصيان.. ولكنها النفس المتمردة على خالقها تستحلي وسوسة إبليس وفتواه، وتستجيب بهواها لنداء النار! ولذلك حق عليها العذاب، ووقع عليه عقاب الله بعدله الحكيم! ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾. هكذا يحسم الرحمن الخصومة اليائسة: لا حق لكم - معشر الجن والإنس - في التخاصم عندي اليوم وتبادل التهم، بما كنتم فيه تشتركون من الكفر والطغيان؛ لا حق لكم في ذلك إطلاقًا، وقد سبق العلم لديكم بما قدمت لكم من النذارة بهذا اليوم، والوعيد بعذابه الشديد.. وقد تتابعت الرسالات من الله تترى مخبرة بخبر هذا المصير.. كما تتابع بعث الرسل والأنبياء عبر تاريخ البشرية الطويل، يبلغون للناس كل الناس خبر هذا الدين، وحق الله رب العباد على العباد أجمعين! فلا مبدل اليوم لقضاء الله، ولا راد لحكمه إذا حكم بين العباد. وحكمه لا يكون - على كل حال - إلا على تمام عدل الله المطلق! وما كان الله ليعذب أحدًا بجرم أحد! بل لا تحاسب كل نفس إلا بما كسبت! فلا عبد يصيبه اليوم ظلمٌ، ولو قدر قِطْمِيرٍ! ونفي الظلم عن الله - جل ثناؤه - ههنا بصيغة المبالغة « ظَلَّام » دالٌّ على شدة النفي لأقل الظلم! فهذا الرب الجليل ملكٌ عظيم لا يظلم عبيده أبدًا!

هذا يوم الحق، هذا يوم الفصل، هذا يوم الجزاء الأكبر..! وإنه لموقف رهيب رهيب؛ إذ يلقي الخطاب القرآني بصورة مخيفة في النفس، يصور في بضع كلمات أفواج الملقى بهم في جهنم؛ بما تُوهِمُ كثرته بأنها قد غصت بأهلها، وأنه لم يعد في دركاتها مكان لعدو آخر من أعداء الله! ذلك ما لا تنطق به العبارة، ولكنها تلقي صورتَه في النفس من خلال جواب جهنم عن سؤال الرب الجليل - وهو أعلم بحالها - إذ قال: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.. وما هو بسؤال للاستعلام - والله ﷻ هو العليم الخبير - ولكنه سؤال للتخويف والترهيب

بحقيقة جهنم، وبيان امتداد شعابها الملتهبة، وعمق دركاتها المظلمة، واستيعابها لجميع الكفرة والعصاة من البشرية جميعًا! فقولها: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾؟ هو قول دال على شعور الجحيم بالحاجة إلى حطب جديد، حطب ليست طبيعته إلا من هذه اللحوم البشرية الكَفَّارة العنيدة! وهو دال على غضبها وهيجانها وتغيظها المخيف! وإن ألسنتها لتمتد من جوفها فتتخطف أهلها تخطفًا فإذا بهم في سواء الجحيم! نسأل اللَّه السلامة والعافية! وفي بيانٍ نبويٍّ لهذه الآية يصف رسولُ اللَّه ﷺ هيجانَ جهنم، في حديث عجيب يرويه أنس بن مالك ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟! حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ؛ فَيَنْزَوِيَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ! وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ! وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ!** »[1].

وعلى منهج القرآن دائمًا، بعد كل ترهيب؛ يَهُبُّ عبير الأمان على الأنفس المؤمنة، التالية الذاكرة، وقد ارتجفت قلوبها، واختنقت حناجرها، وبلغ بها الفزع ما بلغ؛ فيتنزل رَوْحُ السلام والتطمين على عباد اللَّه الصالحين.. كلمات تملأ القلب أنسًا باللَّه، وتغمره رجاءً في رحمة اللَّه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾. والإزلافُ: التقريب. والمعنى: أن الرحمن - جل ثناؤه - يجعل المؤمنين المتقين يوم الحشر في مكان قريب من الجنة، بحيث يرونها إكرامًا لهم وتطمينًا. حتى إذا أَذِنَ لهم في دخولها وجدوها بمكان غير بعيد، وساروا إليها سيرًا غير بعيد. والسير إلى الجنة في ذاته لذة ونعمة! والطريق إليها - ولو طال - يكون غير بعيد؛ لما يغمره من السرور والأشواق! فَلَكَ أن تحمل القرب هنا على كل المعاني الحسية والمعنوية! فكل ذلك داخل في هذه الآية الجميلة الكريمة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾!

ويبين تعالى خصال المتقين، التي بها نالوا هذا الكرم العظيم من الرحمن، فكان أول ذلك أن هذا الوعد الموعود هو ما أعدَّه الرحمن - جل ثناؤه - لكل عبد « أواب حفيظ »! والأَوَّابُ: الكثير الأَوْبِ، وهو سرعة الرجوع إلى اللَّه عند كل خلل،

(١) متفق عليه.

والمبادرة إلى التوبة عند كل زلل. والأَوَّابُ أيضًا هو: العبد الكثير الشوق إلى الرحمن؛ بحيث تطول عليه الأوقات الفاصلة بين فرائض الصلوات، فلا يصبر حتى يملأها بنوافل العبادة؛ ولذلك سميت صلاة الضحى بصلاة الأَوَّابين! (١) وأما الحفيظ فهو: المحافظ على عهد الله، الصائن لحقوقه تعالى، الذي عاش حياته وهو يشعر بأمانة الدين، فهو لها راعٍ على كل حال. فإن زل أو غفل تدارك ما ضاع منه بسد الخلات والثغرات، وتجديد التوبة إلى الله.

وإنما يكون ذلك لِما وقع في قلب العبد المتقي من خشية الرحمن بالغيب، وهي خصلة أخرى من خصال التقوى، تنضاف إلى هذا المقام العظيم. والخشية: خوف من عظيم، باعثها هنا معرفة الله بما له من صفات الجلال والجمال! كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي العلماء به سبحانه، العارفون بمقامه؛ ولذلك تعلقت الخشية هنا في سورة « ق » باسمه تعالى: الرحمن! وهو من أدل الأسماء وأجمعها على التعريف بالله رب العالمين. فخشية الرحمن إذن لا تكون إلا عن معرفة بالله وعلم به تعالى. وأما كونها واقعة بالغيب، فمعناه أنها خشية إيمان وإخلاص واقعين بالحياة الدنيا، أي قبل انكشاف الْحُجُبِ في الآخرة. فالحياة الدنيا كلها حُجُبٌ ابتلائية في طريق الإيمان، لا تنكشف حقائقها إلا بموت الإنسان، أو عند ظهور العلامات الكبرى لقيام الساعة. ومن ثم فإن خشية الرحمن بالغيب راجعة إلى عمران القلب بالإيمان إلى درجة اليقين! حتى يصير العبد يحيا مع ربه أبدًا، في خلواته وجلواته! حتى إنه ربما ذكر مولاه في خلوته ففاضت عيناه! كما في الحديث: « **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ!** » (٢). فذلك عبدٌ

---

(١) عن زيد بن أرقم ﷺ أن النبي ﷺ قال: « صَلَاةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ » يعني من الضحى. رواه مسلم. يقال: رَمِضَ الفَصِيلُ - وهو ولد الناقة الصغير - إذا اشتد حر الرمل من تحت خُفَّيْهِ؛ بسبب سطوع الشمس. وإنما يكون ذلك بعد تمكن الشمس من وسط الضحى وآخرها. وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: (أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِصَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَبِالْوِتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَبِصَلَاةِ الضُّحَى؛ فَإِنَّهَا صَلَاةُ الأَوَّابِينَ!) رواه أحمد، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه.

(٢) تمام الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ! وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ =

عرف اللَّه فأحبه، وسكنه خوفٌ ألا يفوز برضاه! تلك هي الخشية بالغيب، وهي تاج الإيمان وقمة جماله وجلاله!

هذا هو مقام العبد المتقي، الأواب، الحفيظ، الذي خشي الرحمن بالغيب، ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾. و « إنابة القلب » هي الخصلة الخاتمة لهذا النموذج الإيماني الكريم، وقد ورد التعبير بها ههنا بأسلوب جليل، فيه دلالة عميقة على كمال الخضوع وتمام الاستسلام لرب العالمين، والسير الذلول إلى اللَّه.. تمامًا كسير السماء والأرض إلى رب العزة لما نادهما ﷻ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. ومن ثم فهو يصور هنا مجيء العبد إلى ربه يومَ القيامة مستجيبًا مطيعًا، يجيء بقلب تملؤه الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، والخشية والمحبة؛ بما عرف من مقام ربه العظيم! وذلك كله هو الإنابة.. حيث يجيء المؤمن التقي « منيبًا »! أي راجعًا إلى سيده بهذا القلب الثابت على طاعة مولاه، المستمر على ذلك حتى ساعة ملقاه!

ويُخْتَمُ المقطع كله بإعلان خبر الفوز بجائزة الرحمن.. إنها لهؤلاء المتقين، الأوَّابين، الْـحَفَظَةِ لعهد اللَّه، الذين يخشون الرحمن بالغيب، ويثبتون على ذلك حتى يلقوا ربهم بقلوب منيبة! أولئك هم الفائزون، الذي أزلفت لهم الجنة غير بعيد.. يقال لهم الآن: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.. فهو دخول كريم مكرَّم، إنه ترحيب من الرحمن وأمان منه عظيم. فدخول الجنة بسلام هو دخول إليها من غير سابقة عذاب، وهو أيضًا دخولٌ مُعَطَّرٌ بسلام ملائكة الرحمن.. كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]. وقال هنا في « ق »: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾، والتعبير بإضافة « يوم » إلى « الخلود »، بهذه الصيغة المصدرية الجامعة، فيه دلالة على الثبات والاستمرار، وعلى الاستقرار السرمدي في نعيم الجنة المقيم، الذي لا يُخشى له زوال ولا انقطاع، وليس يهدده نَفَادٌ ولا موت أو فناء. فالجنة بما فيها ومن فيها وجود أبدي خالد، وذلك هو النعيم الحق، والسعادة الكاملة المطلقة؛ ولذلك كان التعبير ههنا باسم الإشارة « ذلك » دالًّا على معنى الشرف والرفعة والفوز العظيم!

= بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ! » متفق عليه.

وقطعًا لكل وسواس أو هاجس، قد يلقي في النفس احتمال نفاد النعيم؛ عزز الرحمن خبر خلود الجنة بقوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝ ﴾.. هكذا أهل الجنة - جعلني الله وإياكم من أهلها - ينالون كل ما يشتهون، من غير قيد ولا شرط! فيكفي أن تشتهي الشيء حتى يكون بين يديك في أقل من طرفة عين! حاضرًا جاهزًا كما اشتهيت وأعلى! وإن الخيال ليعجز عن متابعة ألوان النعيم المكنون في الجنة! وإن الأنفاس لتتقطع دون الإحاطة ولا بنعمة واحدة من نعمها الغامرة الوفيرة!

ثم يبهر الرحمن - جل ثناؤه - القلوبَ، لما يختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾..! وهل بقي بعد هذا كله من مزيد؟ عجبًا! وأنّى للمؤمن أن يستنفد هذا النعيم الأبدي، الذي لا يحصيه عَدٌّ ولا يحصره خيال؟ إن نعيم الجنة لا ينفد ولا يفنى، نعم، ولكن مع ذلك هناك مزيد..! إنه النظر إلى وجه الله العظيم! وفيه من اللذة الغامرة والاستمداد العظيم لجمال النور، ما تضيق عن وصفه العبارات! فَعَنْ صُهَيْبٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** ﷻ! » ثُمَّ تَلَا [النبيُّ ﷺ] هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] [(١)]، وهو أيضًا تفسير عبارة « مَزِيد » في سورة « ق » ههنا، على ما ذهب إليه المفسرون [(٢)].

إن كلمات القرآن في وصف الجنة وخيراتها، وبيان كراماتها الخالدة، لتختزل من جمال النعيم ما لا طاقة للعقل البشري على استيعابه هنا في هذه الحياة الدنيا! وما أصدق عبارة النبي ﷺ فيما يرويه عن رب العزة، قال: « **قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ!** » [(٣)]، فاللَّهم ربنا إنا نسألك برحمتك الواسعة، أن تجعلنا من عبادك الصالحين، وأن تدخلنا الجنة بغير حساب، ولا سابقة عذاب! آمين!

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ن. تفسير الطبري وابن كثير للآية.

(٣) متفق عليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن الشعور برقابة الرحمن، والإحساس القلبي الدائم بوجود الملَكَيْنِ الكَاتِبَيْنِ، عن اليمين وعن الشمال قعيد؛ من أهم حقائق الإيمان، ومن أجلِّ ثمراته. ورغم أن ذلك داخلٌ في ركن الإيمان بالملائكة على الإطلاق؛ إلا أن الإنسان في غمرة الحياة اليومية ينسى وجود الملَكَيْنِ الكَاتِبَيْنِ خاصة، ويفقد الشعور بملازمتهما إياه على كل حال! ولو تذكر ذلك حق التذكر، واستحضر هذه الحقيقة كأنما يراها، وعاش مستأنسًا بهما ليله ونهاره؛ لما جرؤ على الوقوع في الزّلات، واكتساب السيئات! ولَصَفَتْ خواطره كلها للّه، بسبب ما يجد في قلبه من توجيه إلى الخير.

الرسالة الثانية: في أن الكلمة في الإسلام مسؤولة! وأن القول - أي قول - يلقيه القائل، مُلْتَقَطٌ من فمه، مسجَّل في صحيفته، إما له وإما عليه! وهذا من أعظم حقائق الإيمان وأرهبها! ولو أن المؤمن اعتصم بهذه الحقيقة في حياته؛ حفظًا للسانه من الزلات، فلا ينطق إلا بالخير، ولا يتكلم إلا بالحق؛ لتحقق - إن شاء اللّه - بمقام الصديقين. وقد عُلم أن النبي ﷺ حذر أصحابه في غير ما وصية من حصائد اللسان! ففي حديث معاذ بن جبل ﷺ: (قُلْتُ: يَا رسولَ اللّه! وإنَّا لَمُؤَاخذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: « **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟** »)[١].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَرْفَعُهُ اللّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ! وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ!** »[٢]، وعَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ: « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللّهِ** ﷻ،

---

(١) جزء حديث رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي، والطبراني. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه بطرقه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، وفي السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيحي الترمذي وابن ماجه. كما صححه بطرقه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٢) متفق عليه.

مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ؛ يَكْتُبُ اللَّهُ ﷻ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ﷻ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ؛ يَكْتُبُ اللَّهُ ﷻ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! »[1] (فَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ:كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ!).

الرسالة الثالثة: في أن مجاهدة وسواس النفس من أعظم الجهاد! وأن بقاء خواطر الشيطان حبيسة الوساوس الباطنية معناه أن الشيطان مهزومٌ مدحور، وأن المؤمن المتعرض لذلك منصور بالله؛ ولذلك وصف النبي ﷺ حاله تلك بأنها « **محض الإيمان!** » وفي رواية أخرى قال: « **ذاك صريح الإيمان!** » فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ؛ قَالَ: « **تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ!** »[2]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ؟ قَالَ: « **وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟** » قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: « **ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ!** »[3]، ومن ثم أشار النبي ﷺ - في حديث آخر - إلى أن ذلك دال على هزيمة الشيطان، واندحار كيده، وانخناسه في ظلمات الوسوسة! فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ؛ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!.. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ!** »[4].

وفي هذا فائدة تربوية جليلة مفادها: أن المتعرض للوسواس القهري في عقيدته أو عبادته، يُشفى منه - بإذن الله - بمجرد ما يرسخ في ذهنه أن ذلك الوسواس وضع طبيعي، بل مكسب إيجابي صحي، محسوب له لا عليه! ومن ثم تسري

---

(١) رواه مالك في الموطأ، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وابن حبان، والبيهقي في الكبرى وفي الشعب، والطبراني في الكبير، وقال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح ». كما صححه الألباني في الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وفي تحقيق السنن. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٢ ، ٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي في الكبرى. وصححه الألباني في تحقيق سنن أبي داود، وفي ظلال الجنة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

الطمأنينة في النفس، وينتصر في القلب السلام والأمان! فيخنس الوسواس بصفة نهائية بإذن اللَّه.

الرسالة الرابعة: في أن الشعور الدائم بوجود القرين الشيطاني، الملابس للإنسان على كل حال، هو من أهم دواعي الحذر من الوقوع في الخطايا والزلات، وهو من أكبر العوامل المساعدة على مواجهة الشر، وطرد خواطر السوء من النفس، والتصدي لإملاءاتها الخبيثة. كما أنه يساعد على معاكسة شهوات النفس، الراغبة في الاستجابة لما زينه لها القرين من الغواية والحرام. وهذا من أهم الثمرات الإيمانية لحقائق العقيدة الإسلامية، التي جعلت قضية الشيطان وقَبِيلِهِ من شياطين الجن، من أهم قضايا الإيمان؛ ولذلك فإن القرآن الكريم لم يفتأ يكشف عن طبيعة الشيطان، ويصف خطواته وحركته، ويفضح كيده للإنسان في غير ما موطن من آياته وسوره؛ حتى يكون المؤمن على بال من هذا العدو اللعين! أعاذنا اللَّه وإياكم منه!

والقرين من أخطر أنواع الوجود الشيطاني، بسبب ملابسته الدائمة للإنسان. ومن ثم كان الإيمان بهذه الحقيقة بصيرةً عظمى للمؤمن السائر إلى ربه. ومن هنا فقد بين النبي ﷺ لزوم القرين الشيطاني لكل بني آدم؛ وذلك حتى يكون المؤمن على وعي شعوري دائم بهذه الحقيقة الابتلائية الكبيرة؛ فيتجرد لها تجردًا؛ عساه يكون من الغالبين بإذن اللَّه، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ!** » قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ؛ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ!** »[1].

الرسالة الخامسة: في أن حقيقة الآخرة بما فيها من حساب ومصير، من أعظم الحقائق الإيمانية والوجودية! لكنها حقيقة محجوبة عن الأعين، وإنما تُتلقى من الوحي! ولا ينكشف منها شيء إلا بالدخول في أول غمرات الموت! فهنالك ينكشف الغطاء الدنيوي الحاجب للغيب الأخروي، ويبصر الإنسان عيانًا طبيعة المصير الذي ينتظره، ولكن بعد فوات الأوان؛ إذ لا قبول لإيمان بعد انكشاف الحُجُبِ! وإنما يُسمَّى الإيمان « إيمانًا » إذا تعلق بتصديق حقيقة غائبة، أو أمر مستقبل! ومن ثم فإن معرفة أخبار

---

(١) رواه مسلم.

الآخرة - بكل تفاصيلها - من أهم ما يجب على المؤمن التزود منه؛ لتقوية إيمانه، وحمل النفس على مشاق الطريق، سيرًا إلى الله بالرَّغَبِ والرَّهَبِ.

٤ - مسلك التخلق:

أما مسلك التخلق ههنا فهو دائر حول التحقق بطريق النجاة، والثبات على منهاجها، وعدم الحيد عنه حتى لقاء الله.

وهو مسلك راجع إلى مجاهدة النفس على منازل إيمانية خمسة، مجموعة في قوله تعالى، مما تدارسناه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ﴾. وقد تم تفصيلها في البيان العام بما يكفي إن شاء الله. **لكننا نبين هنا معالم المسلك العملي للتحقق بصفاتها وخصالها:**

أما المنزل الأول: فهو يتأسس على التحقق بالتقوى. ومسلكه العملي هو الاستحضار الدائم لعظمة الله، والتذكر اليومي لحقيقة الموت، ومآلات الآخرة. ولقد بينا أن على المؤمن أن يداوم على تغذية القلب بعلم الآخرة، وأن يحرص على طلب حقائقها الإيمانية بالتفصيل، مما ثبت خبره بالكتاب والسنة الصحيحة؛ ولذلك ما فتئ النبي ﷺ يُذَكِّرُ أصحابه باليوم الآخر، ويصور لهم قرب الساعة بما يجعلهم يفزعون إلى الله، ويجأرون إليه طلبًا للأمان! فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْـخُدْرِيِّ ﷺ - وغيره - أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟** »، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُمْ: « **قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا!** » وفي رواية ابن عباس ﷺ: « **وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ!** »[(١)]، وقد جعل الرحمن مقام التقوى المطلوب للنجاة والفوز ههنا، مبنيًّا على التخلق بأربع صفات، تتم بها للمؤمن خمسة منازل، وإنما هي بعضها من بعض، وبعضها مبني على بعض، وبيان ذلك هو كما يلي:

---

(١) هذا حديث صحيح يكاد يكون متواترًا، فقد أخرجه أحمد، والترمذي، وابن حبان، والحاكم عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه أحمد والحاكم عن ابن عباس، وأخرجه أيضًا أحمد والطبراني عن زيد بن أرقم، كما أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة، وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله، وأخرجه الضياء عن أنس. ثم صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، وفي تحقيق سنن الترمذي. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

المنزل الثاني: يتأسس على التخلق بوصف الأَوْبِ الدائم إلى اللّه. وقد تبين أن معنى « الأَوَّاب »، هو العبد المتحقق بعمران القلب بمعرفة اللّه. فمن عرف اللّه حقًّا اشتاق إليه، ومن اشتاق إلى مولاه كان أوَّابًا! كثير الرجوع إلى سيده، كثير الطَّرْق لبابه بنوافل الخيرات والصلوات. ولعل من داوم على صلاة الضحى ذاق هذا المعنى الكريم.

وأما الثالث: فهو منزل الحفظ. و « الحفيظ » وصف يتحقق لصاحبه كلما تذكر عهد اللّه، وعلم أنه ميثاقٌ غليظ! وأن نقضه من المهلكات! فعمل على ذلك حياتَه كلها.

وأما الرابع: فهو الخشية. و « خشية الرحمن بالغيب » تحصل لصاحبها بمداومة الذكر، ومدارسة القرآن؛ طلبًا لمعرفة مقام الرب العظيم، والعلم به ﷻ ! ثم بصحبة أهل الخشية من الربانيين، ومشاهدة أحوالهم.

وأما الخامس: فهو الإنابة. وتحصل « إنابة القلب » للعبد بحصر التوجه إلى قِبْلَةٍ واحدة لا غير، والتعلق بمقصود واحد لا غير، فلا يلتفت القلب إلى شيء سوى اللّه. ثم يجاهد العبد نفسه ليشغلها باللّه، وباللّه فقط، وليجعل همه - كل همه - هو اللّه والدار الآخرة! وعلى قدر نجاح المؤمن في هذا يكون تدرجه بمسلك الإنابة.

تلك مدارج خمسة من تحقق بمنازلها رجا - إن شاء اللّه - أن يكون من الناجين الفائزين بجنات النعيم، المكرمين بما فيها من مزيد.

فاللّهم إنا نسألك الثبات على الهدى، حتى نلقاك راضين مرضيين، لا مبدلين ولا مغيرين! ونسألك ربنا أن تدخلنا في رحمتك برحمتك، وأن لا تحرمنا النظرَ إلى وجهك الكريم، آمين.

* * *

المجلس الثالث

في مقام التلقي لمنهج التعامل الدعوي
مع جحود الكفار



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللّٰهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۝ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝ ﴾.

٢ - البيان العام:

يركز هذا المقطع الأخير من السورة، على الخلاصات المنهجية، التي ترسم طريقة التعامل الدعوي مع هؤلاء الكفرة الفجرة، الذين جحدوا حقائق الإيمان، وأنكروا البعث والنشور، وانتصبوا لحرب عقيدة الإسلام. وتُعَلِّمُ المؤمنَ الداعيةَ ما ينبغي أن يتسلح به من الثقة بالله، وترشده إلى زاد الذِّكْرِ والتسبيح والصلاة، والاعتصام بالله وبكتابه المبين؛ كلما تعرض لسخرية الساخرين، ومقولات الملحدين المستهزئين!

ومن ثم يحذر اللّٰه ﷿ الكفرة المخاطبين بهذا القرآن إلى يوم القيامة، ويلقي إليهم نذارة التذكير بأيام اللّٰه، وبسنته في الذين خلوا من قبلهم من الكفار، فيقول ﷻ :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ ﴾. وهذا خطاب عجيب مزدوج القصد، فيه من النذارة والتحذير للكفار، بقدر ما فيه من التسلية للرسول ﷺ، ولكل داعية إلى الخير من أمته بعده، والتثبيت على عقيدة الثقة العالية بالله. وقد صُدِّرَ التعبيرُ بعبارة « كم » الخبرية الدالة على التكثير؛ تنبيهًا من الجبار ﷻ لطغاة قريش - زمنَ النبوة - ولكل الأمم الطاغية بعدها إلى قيام الساعة؛ إلى كثرة القرون الهالكة في الأزمنة السابقة لهم؛ بسبب تعرضها لنقمة الله وغضبه الشديد، والعياذ بالله! ومعنى القُرُونِ جمعُ قَرْنٍ، وهو: الجيل الواحد من الناس، أو الأُمَّةُ الواحدة من البشر. وبهذا المعنى يَرِدُ لفظُ « القَرْنِ » في القرآن مطلقًا، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦] [(١)]، وأما دلالته على المائة عام فإنما هو اصطلاح حادث.

فالقرون البائدة ممن أهلك الله ﷻ كعاد وثمود وأضرابهما، كانت أممًا قوية جبارة، ذات طغيان وبطش شديد؛ بما أمدها الله به من قوة جبارة في أبدانها، ووفرة في الخيرات والنعم من الأموال والأنعام والحرث! ومكن الله لها من شدة البطش والجبروت والثراء ما لم يمكِّن لقريش وأضرابها، وأوتي رجالها من أسباب القوة ما جعلهم يُنَقِّبُونَ في البلاد تنقيبًا! والتنقيب من النَّقْبِ وهو: الثقب في الجبل ونحوه، كما يدل على معنى الحفر والبحث. والمقصود أنهم ضربوا في الأرض ورحلوا إلى كل مكان؛ بحثًا على الثروة وطمعًا في الحصول على ما يكون به الخلود في الأرض، وخرطوا لذلك الطرق والنقوب وهي: المسالك الجبلية الوعرة، والبيوت المنحوتة فيها، كما قال تعالى عن ثمود: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

فكل هذه التحصينات والتنقيبات إنما هي محاولات بشرية مغرورة؛ رغبةً في الإفلات من النوائب والزلازل والكوارث والأعاصير التي تواتر في الناس أنها أهلكت

(١) وعليه يحمل أيضًا لفظ « القرن » في قول النبي ﷺ: « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ! » متفق عليه.

هذه الأمة أو تلك، وأبادت هذا القرن أو ذاك! وينسى الطغاة الجهلة أنما هي نقمة اللَّه الواحد القهار، وأنه ﷻ لا يستعصي عليه حصن ولا نقب! فالأرض كلها قبضته والسماوات مطويات بيمينه؛ ولذلك عبر عن فعلهم الفاشل اليائس بقوله تعالى: ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾؟ والمحيص: المفرُّ والْمَلْجَأ والْمَهْرَبُ، من حَاصَ يَحِيصُ: إذا حَادَ وانحرف عن الشيء حَذَرًا منه وخوفًا. ولقد حاولت البشرية بشتى أجناسها وحضاراتها، منذ أقدم العصور وما تزال، تبحث عن محيص من الموت، ومهرب من الفناء؛ لكن المفاجأة البئيسة أنها بقدر ما كانت تسرع خطاها في طريق الفرار؛ كانت تسيخ بها أقدامها في جرف الهلاك، حتى تلقى فيه حتفها!.. ولذلك صِيغَ التعبيرُ هنا عن قصد الفرار بأسلوب الاستفهام المفيد للنفي: ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾؟ للدلالة على الفشل والخسران، واليأس من الوصول إلى المراد! فلا نجاة من قَدَرِ اللَّه إذا وقع، ولا فرار من عذابه إذا أخذ قومًا بذنوبهم! ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾! والذِّكْرَى هي بمعنى الْعِبْرَة والموعظة. وإنَّ تدبر تاريخ الشعوب البائدة، ومصارع الأمم الجائرة، ومهالك الطغاة في كل زمان ومكان، وفيما تجري به أحداث الزمان الآن؛ لهو ذكرى لمن كان له قلب حي سليم! ولمن تلقَّى آيات هذه الحقائق وأخبارها بإنصات حديد وانتباه شديد. فإلقاء السمع كناية عن الإنصات الشامل الكامل، والتلقي الوجداني العالي للحقيقة؛ ولذلك قال بعدُ: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، أي شاهد القلب، حاضر العقل، يقظ الشعور، غير شارد ولا غائب في متاهات البلادة والغفلة الثقيلة!

ويستمر الرحمن ﷻ في تسلية رسوله ﷺ وكل داعية سار على نهجه، فيشير تعالى إلى أنه قادرٌ على جميع خلقه، غالبٌ على أمره، لا يعجزه شيء، ولا يتعبه خلق ولا تدبير، وأنه كلما أراد أخذ قوم بطغيانهم إلا وأخذهم أخذ عزيز مقتدر! وأنه متى أراد إفناء هذه الحياة الدنيا وحشر الناس ليوم الحساب إلا وكان ذلك في أقل من لمح البصر! إنه اللَّه رب العالمين، الخالق لكل شيء، القيوم على كل شيء، وهو على كل شيء قدير. كل ذلك يشير إليه ههنا قوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾! فالذي خلق هذا العالم الكوني الرهيب، بجميع تجلياته المادية، وأعماقه الغيبية، بما هو عليه من تقدير موزون،

ونظام محكم بديع، من أطباق السماوات إلى عجائب الأرض، خلق كل ذلك في ستة أيام، وما مسَّه من لغوب، أي ما أصابه تعب ولا عياء، سبحانه، سبحانه! ذلك الرب العظيم هو الذي يكلم البشرية الآن بهذا القرآن، وينذرها بحقيقة البعث والنشور، وحشر العباد ليوم الحساب!

والخالق للشيء قادر على إعادته، بَلْهَ إفناءَه وإبادتَه! وهذا شبيه بما ورد في قوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فالسياق كله إذن سياق تسلية وتأنيس، وتثبيت للرسول ﷺ وأتباعه على عقيدة الثقة العالية بالله؛ ثم تلقينه منهاج التعامل مع دجل الملاحدة، وأراجيف الكفرة الفجرة، وطريقة مواجهة الحصار الإعلامي الباغي، والحرب النفسية والكلامية، التي تبوء بوزرها دوائر الشيطان المظلمة، والتي تروم إرباك مسيرة الدعوة إلى الله، ومحاولة إطفاء نورها بكل الوسائل! فيلتفت الخطاب القرآني برفقٍ وحنوٍّ إلى رسول الله ﷺ، ويخاطبه بكلماتٍ منهاجية عميقة المغزى، مُكْتَنِزَةٍ بالحكمة، يخاطبه مُصَبِّرًا ومُعَلِّمًا: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥ ﴾. وبذلك كان ختام السورة.

وهو ختام يربط نهاية السورة بأولها ويذكر بقضيتها الكبرى، قضية البعث التي جحدها الجاحدون، والتي كانت أول ما أثير عند مفتتح السورة: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾. كذلك كانت مقدمة السورة وفاتحتها، ثم جاء وسط السورة وعرضها؛ لتفصيل البيان لقدرة الله على البعث، وعرض مشاهد لمراحله وصوره ومآلاته، ثم انتهت السورة إلى هذه المعالم المنهجية التي تبين للمؤمن كيفية التعامل مع مقولات الكافرين المذكورة ابتداءً، فقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ۝٣٩ ﴾.. إلى آخر السورة.

وإنه لختام مُكْتَنِزٌ عظيم! جمع فيه الرحمن - جل ثناؤه - للمؤمن الداعية زادًا تربويًّا ومسلكًا منهاجيًّا، كاملَ الخطوات واضح الغايات، لا يضل الآخذ به في دعوته، ولا ينهار ولا ينهزم أبدًا!

فأول زاد الطريق معرفةٌ بالله ﷻ ، والاطمئنان إلى قدرته وعظمة سلطانه. وثاني زاد صبرٌ جميلٌ على أراجيف الدجاجلة والمجرمين، مما يبثونه حول الدعوة ورجالها، ومما يحاولون به تشويه عقيدة الإسلام أو تمييع حقائقها! وإنهم ليقولون ويقولون! ولقولهم اليوم أثر خطير؛ لِما لوسائل الإعلام الحديثة من قوة سحرية على قلبْ الحقائق، وتدمير حصون القلوب والعقول! فالصبر على ذلك كله والثبات في نفس الوقت على أداء الرسالة كفيل بنصرة الحق بإذن الله! ولا ينبغي لمؤمن أن تثبطه مقولات المبطلين، وتُرَّهات الدجاجلة والشياطين! فإنما هم يقولون ما يقولون؛ كي تتوقف أنت عن نشر دعوة الخير؛ ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ﴿٣٩﴾ ﴾! وامض في طريقك ثابتًا، لا تلتفت إليهم أبدًا، واشتغل بدعوة القرآن! فإنك مستند إلى رب عظيم وملك كريم! وتزود للمعركة ولطول الطريق من التسبيح بحمد الرب العظيم! ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾!

وجمهور المفسرين على أن المراد بالتسبيح هنا: الصلاة. وتسمى الصلاة تسبيحًا لاشتمالها على حقيقة التسبيح لفظًا ومعنًى. فالركوع والسجود وسائر أفعال الصلاة، مدارها على تحقيق معنى الخضوع والخشوع، والتذلل بين يدي الله رب العالمين؛ تنزيهًا له تعالى وتقديسًا وحمدًا. وذلك معنى التسبيح بحمد الله. وملابسة التسبيح للحمد ههنا - كما هو في كثير من الآيات والأذكار النبوية - دالٌّ على أن المطلوب هو الجمع بين حقيقة التنزيه لله تسبيحًا، وبين عبارات الشكر والثناء عليه تعالى حمدًا. يجمع المؤمن ذلك كله على مستوى العبارات والمعاني والشعور؛ لأن التسبيح والحمد معنيان متكاملان، كلاهما يؤول إلى تمجيد الله رب العالمين، والدخول تحت طاعته وسلطانه. فنحن نسبحه تعالى وننزهه؛ بما هو أهله من الثناء والحمد.

والتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل وإدبار السجود، شامل لكل الصلوات الخمس، وما يلحقها من نوافل وتهجد. مع إشارة تمييز لصلاتي الصبح

والعصر؛ لِمَا لهما من خصوص مذكور في السنة [١]. وقوله: ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝ ﴾ محتمل لنوافل الصلوات التي تكون بُعَيْدَ الفرائض المكتوبات، ومحتمل للتسبيحات والأذكار المسنونات، التي تكون بُعَيْدَ الصلوات. ويجوز أن يكون كل ذلك مُرَادًا مقصودًا. وقد قُرِئَتْ عبارةُ: (إِدْبَارَ) بكسر الهمزة على المصدر، من أَدْبَرَ يُدْبِرُ إذا ولَّى وانتهى. كما قُرِئَتْ: (أَدْبَارَ) بفتحها على معنى الظرف، وهو جمع دُبُرٍ بمعنى عَقِبَ وخَلْفَ. ومآل القراءتين واحد لا يختلف؛ لأنَّ كُلًّا منهما مفيدٌ لما بعد الشيء.

ومن لطائف الإشارات ههنا ربط حركة السير التعبدي إلى اللَّه - تسبيحًا وذكرًا وصلاةً - بحركة الفَلك الدائر السائر إلى اللَّه، ومراعاة مواقيت مخصوصة من منازل الليل والنهار - قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن الليل.. - مواقيت ذات أسرار، هي عبارة عن محطات خاصة؛ لتجديد زاد التلقي عن اللَّه، والاستمداد الروحي من بركات التأييد والتسديد. فترى المؤمن يحيا مع اللَّه على كل حال، يشعر بحركة الزمن الراحل شعورًا عميقًا، ويرى من خلاله ساعة البعث قادمة قريبة! ولذلك قال بعدُ مباشرة: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝ ﴾! وهذه خطوة منهاجية أخرى من خطوات السير إلى اللَّه، وزاد جديد في طريق مواجهة أباطيل الكفار وتشكيكاتهم.. التحقق الإيماني بقيام الساعة وحقيقة البعث، تحققًا يجعل الإيمان بذلك على مقام اليقين الراسخ المكين! ولذلك عبر عنه ههنا بفعل الأمر بالاستماع لنداء الحشر، والأمر بالإنصات لنفخة البعث، والترقب لحدث القيامة الرهيب؛ وذلك للدلالة على حتمية الوقوع وعلى أنه أمرٌ قريبٌ وشيك الوقوع! ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ ﴾! والمنادي هو الملَك النافخ في الصور، وسينطلق نداؤه بقوة من مكانٍ قريب حول الأرض؛ حتى ليجدن كل إنسان كأنما هذا النفخ الرهيب واقع عند شحمة أذنه! فيصعق لنفخة الصعقة، وينهض لنفخة البعث! ولا يفصل ما بين النفخة والاستجابة -

---

(١) من ذلك ما في الصحيحين عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ، قال: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: « أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ. فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا - يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ ؟ فَافْعَلُوا! » ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ: « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ») متفق عليه.

في كلتا الحالين - ولا مقدار لمحة من بصر! إنه حدثٌ آتٍ قريبًا قريبًا، وإن الأذن المؤمنة لتتوقع سماع النفخة في أي لحظة! وإن النفس - وهي تعيش في غمرات هذه المشاعر الإيمانية الحية - لتضطرب أنفاسُها خوفًا من هول ذلك اليوم! ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾! ولكنها تَسْكُنُ بعدُ وتلين مطمئنة إلى ذكر الله. وتمتلئ مواجيدها بزاد الثقة العالية بالله. وتلتفت إلى مشاهدة عصابات الكفر كيف يكون حالها مع ذلك اليوم الحق، ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ... ﴿٤٢﴾ ﴾ الحق الذي كانوا ينكرونه ويجحدونه، ها هو ذا الآن ينطلق في أرجاء الكون، صرخةً قويةً مدويةً في كل مكان! صرخةً تصخ الآذان، وتقرع القلوب والأعصاب، فلا يبقى مخلوق إلا واهتز لها اهتزازًا! إنها صيحة الحق ونفخة البعث، وَعْدُ الله العظيم! فلا ترى بشرًا إلا وهو ينهض من ترابه، ويخرج من قبره، فيسير سعيًا إلى ميعاد ربه! ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾!

ويُعَزِّزُ هذا المشهد الرهيب ببيانٍ من الرحمن، أنما هو وحده الفاعل في كل ذلك، إحياءً وإماتةً وحشرًا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾، هكذا بهذا التعبير المؤكد الثابت الراسخ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ... ﴾.. وتلك صفات من أهم صفات الربوبية، أنكرها الجاحدون فكفروا كفرًا شنيعًا، وبذلك استحقوا نقمة الله وعذابه الشديد! فالله ﷻ هو الخالق لكل شيء، المحيي لما خلق، وهو المميت لمن يريد، الوارث لكل شيء، وهو المعيد لما أفنى، الباعث لكل نفس، سبحانه كل شيء منه يبدأ، وكل شيء إليه يعود، يحيي ويميت وإليه المصير. فلا شيء إلا وهو يصير إلى ربه، ويؤوب إلى ميعاده المحتوم، وإنه لا حول لمخلوق ولا قوة له إلا بالله. كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

ويستمر الوصف للحظة البعث، وانطلاق الحشر، ههنا في سورة « ق »؛ في لقطة حية تزيد المؤمن ثقة بربه، وتزوده مددًا إيمانيًا لمواجهة أعدائه، فيقول ﷻ ، تتمةً لوصف يوم الحق: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾، وإنها لتشقق عنهم كما تشقق عن النبات، وعن رؤوس الفسائل الصغيرة، وقرئت « تَشَّقَّقُ » بتضعيف الشين وبتخفيفها، والمقصود واحد. وفيها إيحاء لطيف بمشهد حركة الإنبات المتكررة على الأرض، كما بُيِّنَتْ في أول السورة، تربو الأرض أولًا

وتهتز، ثم تشقق فتخرج الشجيرات فسائل طرية ندية، فلا تزال تنمو حتى تصير أشجارًا! كذلك تخرج أجساد بني آدم من قبورها وأجداثها. وقد سبق حديث النبي ﷺ: « **ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ!** » (١) حتى إذا تم خلقها واستوى، أُمِرَ المَلَكُ بالنفخ في الصور، فتتدفق الأرواح من عالم البرزخ، كل روح يتنـزل على جسده لا يخطئه ولا يضل عنه أبدًا! وما هي إلا لمحة خاطفة؛ حتى تكون الحياة قد انتفضت في أجساد البشرية جميعًا! فيخرج الناس من ترابهم إلى ربهم سِرَاعًا، يساقون إلى ساحة الحشر، وهم ينقلون الأقدام الحافية على الأرض مسرعين! وإنه لبعث يسير، وإنه لحشر يسير، يسيرٌ أمره وتكوينه على الخالق العظيم، الذي يقول للشيء: كن فيكون! هذا الأمر الذي ينكره الكفرة، ويحيله الجهلة بالله.. إنه أهون على الرحمن وأيسر، وكيف لا؟ وهو الذي خلق السماوات والأرض من قبل ولم يَعْيَ بخلقهن، ولا بخلق من فيهن! خلق كل ذلك جميعًا ولم يكن شيئًا مذكورًا. فسبحانه وتعالى عما يصفون ويتوهمون!

ويختم الرحمن - جلت عظمته - السورة بهذه الآية المنهاجية الجامعة: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾. وهذه تسلية كريمة لرسول الله ﷺ وتوجيه منهاجي له ﷺ ولكل داعية إلى الخير بعده؛ إذ يخاطبه الرحمن - جل ثناؤه - بهذا الإعلام الكريم: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾! وإن من قوة هذا القرآن أن الرب الجليل سبحانه، متكلم به مع رسوله ﷺ، ومع الناس أجمعين، يتكلم بضمير المتكلم الحاضر الدال على العظمة، هكذا: (نحن). وتصغي - وأنت تتلو القرآن - إلى الله يخاطبك! فما أجله من مقام وما أعظمه من خطاب! هو الرحمن ﷻ يُعْلِمُ عبده الداعي إليه بأنه أعلم بمقالات الكفار، وأعلم بترَّهاتهم ومكائدهم! وكفى بهذه الحقيقة دلالة على أن كل مساعيهم الشريرة ستؤول إلى الخسران المبين، وإلى الفشل الذريع، وأن كل مقولاتهم وأراجيفهم ستتحطم أمام سيل الحق الهادر! فالله ﷻ هو الذي يقود معركة الحق من فوق عرشه! وكفى بذلك طمأنينة وسكينة للقلب المؤمن، وكفى به دلالة على معرفة نتيجة المعركة الفاصلة، وكفى به زادًا إيمانيًا عظيمًا، يغذي القلب بوارد الثقة بالله!

---

(١) جزء حديث متفق عليه. وقد سبق إيراده بتمامه في المجلس الأول.

ومن ثم يبين الرحمن سبحانه لرسوله ﷺ حقيقة هذه الرسالة الإلهية، وطبيعة هذه الدعوة الربانية، وطبيعة وظيفته إزاءها، وشكل مسؤوليته تجاهها، وأنما هو عبدٌ مبلِّغٌ عن اللَّه، يقيم حجة القرآن على الخلق، ويبين لهم حقائق الإيمان، وما عليهم من حقوق الخالق العظيم، ببلاغ قرآني مبين، لا إكراه فيه، ولا إعنات، ولا تجبر: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ ... ۝٤٥ ﴾! كما قال سبحانه في سورة الغاشية: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

فدعوة الإسلام ليست دعوة إكراه، يتولاها طاغية جبار، فيقهر بها الناس قهرًا، كما هو شأن كثير من الفلسفات والإيديولوجيات المظلمة، التي حكمت في العصر الحديث كثيرًا من الشعوب المستضعفة بالحديد والنار! وسلطت على كل من خالفها زبانية التعذيب والتقتيل والتشريد! إن الإسلام دين رحمة، ودين قوة في نفس الوقت، يعرض عقيدته على الخلق بالحجة والبرهان. يخبر الناس بحقيقة الحياة الدنيا وطبيعة الوجود البشري فيها، ويعرف الخلق بخالقه، وبما له تعالى عليهم من حقوق الألوهية، ثم يَكِلُهُمْ إلى عقولهم واختياراتهم، فمن اختار الشكر فقد سَلِمَ وأسلم، ومن اختار الكفر فقد تمرد على اللَّه؛ ولذلك خلق اللَّه الجنة والنار. فما الرسول إذن إلا نذيرٌ مُذَكِّرٌ، يُذَكِّرُ البشرية بهذا القرآن: ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥ ﴾. ذلك أن كلمات القرآن إنما تقع موقع الإيمان من القلوب المشفقة من اليوم الآخر، ومن الفِطَرِ السليمة التي تصغي إلى وعيد اللَّه ونذيره؛ فتدرك أنه الحق، ولا تعميها الأهواء والشهوات عن الاستجابة للَّه ولرسوله. بل تدخل في أمان الإيمان طائعة راضية، وتعيش في سلام دائم مع اللَّه.

تلك هي طبيعة هذا الإسلام، وتلك هي دعوة هذا القرآن. فإنما هي كلمة الهدى يلقيها الداعي المبلغ في الناس، فمن آمن فقد أسلم لربه، ومن كفر فإنما على الرسول البلاغ، وحساب الآخرة غير بعيد. وإنما الهدى من اللَّه وما ربك بظلام للعبيد.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في ست رسالات، تعرض أهم الخطوات المنهاجية، التي على المؤمن الداعية أن يتحلى بها عند القيام بدعوته في الناس؛ إذ بالتخلق بها والثبات عليها يكون الوصول إلى الهدف. وهي:

الرسالة الأولى: في أن الذكرى والتذكر والاعتبار، إنما يحصل لأصحاب القلوب الحية، والفِطَرِ السليمة، أو لمن استمع لخطاب القرآن بكليته الوجدانية والعقلية، حتى ولو كان قلبه مريضًا؛ ذلك أن القرآن كفيلٌ بعلاج أسقام القلوب. فلا يمل الداعي من إلقاء كلماته على الناس أبدًا. فمن قُدِّرَ له أن يهتدي فستنبعث فطرته - بإذن اللّه - حيةً معافاةً في يوم ما، وسيستجيب لنداء اللّه إن شاء اللّه. ومن ثم وجب الانتباه إلى أهمية مخاطبة الفطرة الكامنة في الإنسان؛ بما يصلحها ويخرجها من تشوهاتها. وليس كالقرآن أنفع لذلك وأصلح. إنه الكتاب الأوحد الذي يطرق القلوب بكلماته، ويرش لطائف الفطرة النائمة، أو العليلة، بماء الحياة حتى تستيقظ! إنه لا حد لطاقة القرآن العظيم! ولا شيء سواه أبلغ في بث الذكرى في القلوب.

الرسالة الثانية: في أن الواجب على المؤمن أن يقرأ للناس أحداث التاريخ، ويعرضها لهم من خلال منظار القرآن، وأن يفسر كل حركاته الاجتماعية والكونية بمنطق القرآن الرباني؛ ذلك أن الوصول إلى التحقق بمقام قراءة كتاب الحياة، من خلال نظارات القرآن، هدفٌ تربوي عظيم؛ لأن معنى ذلك أن العبد قد صار أعرفَ باللّه، وترقَّى في مراتب العلم به تعالى درجات! فصار لا يفسر شيئًا في الوجود البشري والكوني إلا مربوطًا بمشيئة اللّه! وتلك غاية دعوية إصلاحية أصيلة، وعقيدة يجب أن تصبح ثقافة سلوكية في المجتمع الإسلامي عامة. وهو مسلك مهم جدًّا، من مسالك تحقيق مناطات القرآن الكريم في الأمة، وتيسير الدخول تحت شريعته من جديد، إن شاء اللّه.

الرسالة الثالثة: في أن الصبر في أمور الدين والدعوة، إنما يتم لصاحبه إذا كان قائمًا على التزود من بركات الصلاة، فرائضها ونوافلها، والاستمداد الدائم لواردات الغيب، من مَعِينِ الإيمان باللّه واليوم الآخر.

فأما الصلاة فقد عُلِمَ مدى قوتها الروحية - إذا أُدِّيَتْ على وجهها - في إعداد « عبد اللّه » بحق! وتزويده بما لا قِبَلَ له به من قوة اليقين! وإن ذلك لهو أُسُّ الصبر على ضروب المحن والفتن؛ ولذلك قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال هنا في سورة « ق »: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ

ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾. وقد بينا أن المقصود بالتسبيح هو الصلاة. فثبت أن تحقيق أفعال الصلاة، خاصة من ذلك خشوعها، وخضوعها، ومناجاتها، وتسبيحاتها؛ هو أعظم وارد رباني لاستمداد الصبر الجميل على كل حال.

وأما الإيمان بالله واليوم الآخر، فهو المصدر العَقَدِيّ الأول للصبر، والمطلوب هو استحضار حقائق هذه العقيدة في النفس على كل حال، ومشاهدة أنوار الأسماء الحسنى منعكسة على كل شيء، ومعرفة آثار الربوبية على كل حركة في الكون، وكذا ترقب ساعة الآخرة في كل لحظة! فهذه الحقائق ليست تصورات تُعتقد فحسب، ولا مجرد معان تُصَدَّقُ، ويُقِرُّ بها القلب واللسان وينتهي الأمر، كلَّا كلَّا! بل هي ههنا مجاهدة نفسية ومكابدة؛ لأن تزكية النفس حتى يكون إيمانها بالله واليوم الآخر على مقام المشاهدة والترقب؛ إنما هو مقام الإحسان، الذي معناه: « **أن تعبد الله كأنك تراه!** »[1]، وهو المقام نفسه المشار إليه - بالنسبة للشعور الأخروي - في حديث النبي ﷺ: « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟** » فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُمْ « **قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا!** »[2].

هذه الحقائق هي موارد الصبر الدعوي حسب سياق الآيات في سورة « ق ». ولا شك أن موارده في كتاب الله كثيرة؛ منها الاعتبار بحياة الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وبمجاهَدات الصديقين والشهداء. قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الرسالة الرابعة: في أن المؤمن الداعية رجلٌ أخروي، ينظر إلى الحياة الدنيا بعين الآخرة، وإنما هو يعرض للناس مشروعه على أنه دعوة إلى الحياة الآخرة. ولقد كان أول خطبة النبي ﷺ في الناس لما (صَعِدَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: « **يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ!** » لِبُطُونِ قُرَيْشٍ؛ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا؛ لِيَنْظُرَ مَا هُوَ؟، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ**

---

(١) متفق عليه.

(٢) حديث صحيح، سبق تخريجه مفصلًا بالمجلس السابق.

أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ؛ أَكُنتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ » قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا! قَالَ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ! ») [(١)].

فعلى هذا الأساس العقدي العظيم، وجب أن يبني الداعية خطابه، وأن يسوق أدلته وشواهده. وإن ذلك لهو منهاج دعوة الرسل جميعًا كما هي مفصلة في القرآن، وأساس خطاب الرحمن للبشرية في كل زمان. إنه الاستعداد لليوم الآخر؛ بالعمل على تصريف جميع شؤون الحياة الإنسانية عليه، الفردية والاجتماعية سواء.

الرسالة الخامسة: في كون حقيقة الدعوة الإسلامية إنما هي تمكين خطاب القرآن من الوصول إلى القلوب، وطرق أبوابها بآياته وكلماته: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝ ﴾. ذلك أنه قد تقرر في كتاب اللّٰه وسنة رسول اللّٰه ﷺ، أن القرآن هو المادة الرئيسة لدعوة الإسلام، وأن من أهم مظاهر العمل الدعوي، والتجديد الديني، بعث التداول الاجتماعي للقرآن الكريم، على جميع المستويات التربوية، والتعليمية، والتشريعية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية... إلخ، إن معنى دعوة الإسلام هو إيصال كلمات اللّٰه إلى كل مكان! وطرق جميع الأبواب بها على منهج القرآن، طرقًا لا يمل ولا يكل؛ حتى تُحقق الأمةُ هجرتَها من جديد، وتشرق شمس القرآن على العمران!

الرسالة السادسة: في أن الرفق، والشفقة، والتمتع بأخلاق السلوك الاجتماعي، وأدب الحوار، كل ذلك هو أساس نجاح الداعية إلى الخير. وأن الصبر على الأذى النفسي والمادي لهو من أرفع مراتب الأخلاق! ولا يكون الإنسان رفيقًا شفوقًا إلا إذا كان صابرًا.

ومن ثم فلا بد للداعية من مخاطبة مدعويه برفقٍ، وأن يقول لهم قولًا لينًا، يعتمد أساليب التقريب والتحبيب، دون التضجير والتنفير. وهذا لا يتنافى مع خطاب النذارة باليوم الآخر. بل هما يجتمعان ويلتقيان في حقيقة واحدة، بحيث يحدِّث الداعية الناس بحقائق الآخرة، من خلال مشاعر الإشفاق والمحبة، والحرص على نجاتهم! ولنا في رسول اللّٰه ﷺ أسوة حسنة، فقد حدَّث قومَه – عليه الصلاة والسلام – حديثَ

---

(١) متفق عليه.

أبوّة وأخوّة، وحنو بالغ، وعطف شديد. وأمثلة ذلك في السُّنة النبوية كثير.. ولك أن تتأمل هذا الحديث الشفيق الرفيق، الأَسِيفَ اللطيف، من قوله ﷺ: « **إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ؛ جَعَلَ الْـجَنَادِبُ والْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا! فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا! فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ! هَلُمَّ عَنِ النَّارِ! وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي! فَتَغْلِبُونِي، تَقَحَّمُونَ فِيهَا!** »[1].

ذلك هو مَثَلُ الرفق الدعوي والإشفاق النبوي، الذي مارسه محمد بن عبد اللَّه ﷺ في دعوته. ولا شك أن مخالفة هذا المنطق القرآني الكريم - خاصة في دعوة تجديد الدين بين المسلمين - لا يقود إلا إلى فساد مبين! ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللَّه.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلق هنا دائرة حول كيفية التحقق بشخصية دعوية قرآنية ربانية، تتخلق بأخلاق القرآن، وتسلك في دعوتها إلى اللَّه عبر مدارج الصبر الدعوي، وعبر مسلك الصلاة، على مدار الليل والنهار، وتعيش عمرها ودعوتها بأحوال الآخرة، رافعةً في الناس راية القرآن، تلقيًا وبلاغًا. فتثبت على ذلك حتى تلقى اللَّه. تلك هي الصورة النموذجية للداعية الرباني، التي مثَّلها رسولُ اللَّه ﷺ على مقام النبوة والرسالة، ومثَّلها الصحابة الكرام - رضوان اللَّه عليهم - تأسيًا بدعوته ﷺ، على مقامات الصديقية، والشهادة على الناس.

وتلك هي غايتنا في هذا الدرس القرآني العظيم. وإنما لها مسلكٌ عملي واحد رئيس، ألا وهو الدخول في مدرسة القرآن! وإخضاع النفس لمقارضها التربوية، تهذيبًا وتشذيبًا، وتَلَقِّي لَبِنَاتِ التزكية لعمران الروح من كلمات اللَّه، على ما بيناه في مدخل الكتاب وخلال مجالسه. ذلك مسلك رسول اللَّه ﷺ، الذي كان خُلقه القرآن، وهو الطابع العام المميز لجيل القرآن الأول، جيل الصحابة الكرام، رضي اللَّه عنهم أجمعين.

فاللَّهم إني عَبْدُكَ! وابنُ عبدِك وابنُ أمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمُك،

---

(١) متفق عليه. وهو حديث مركب من روايتين في الصحيحين، إحداهما لأبي هريرة عن النبي ﷺ، والأخرى لجابر بن عبد اللَّه عنه ﷺ.

عَدْلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نَفْسَك، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ بِه في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ رَبِيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همِّي!

* * *

خَاتِمَة

إن ما اشتملت عليه سورة « ق » من حقائق الإيمان الكبرى، وأصوله العظمى، جعلها من أهم السور تعبيرًا عن رسالة القرآن على الإجمال؛ ولذلك فقد ابْتُدِئَتْ بِقَسَمِ الرب ﷻ بالقرآن، ثم اخْتُتِمَتْ بالتذكير بالقرآن، منهاجَ دعوةٍ ومنهاجَ دين! وكأنَ في ذلك إشارة إلى أن مضمونها هو مدار كل قضايا القرآن ورسالته!

وإن اشتمالها على قضايا توحيد الرب ﷻ في خالقيته، وفي جميع أسمائه وصفاته، وإسناد جميع مظاهر الوجود لإبداعه وصنعه، ودقة تقديره، وحكمة تدبيره، ودورانها على عقيدة البعث والنشور، والحشر والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، والترهيب من ذلك كله والترغيب بخطاب إلهي مباشر قوي مبين؛ ليجعل سورة « ق » هي سورة البيان الإسلامي العام، الذي تجب تلاوته على جموع المسلمين في كل المناسبات؛ تذكيرًا بحقيقة هذا الدين، وبطبيعته الأخروية!

ولذلك فقد كان رسول اللَّه ﷺ يقرؤها على الناس في المجامع الكبار، كأيام الْجُمَعِ والأعياد، كما هو ثابت في السنة، فعَنْ أُمِّ هِشَامٍ بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ رضي الله عنها قَالَتْ: (لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحِدًا، سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ، وَمَا أَخَذْتُ ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ ﴾ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، إِذَا خَطَبَ النَّاسَ!)[1]، وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِـ ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ ﴾، وَ ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١][2].

وفي ذلك دلالة على أن البيان الإسلامي الذي وجب على الداعية إذاعته في الناس، إنما هو - كما ذكرنا - بيان أخروي، ونذارة قرآنية؛ لأن ذلك هو أساس كل مشروع إسلامي، وأصل كل تجديد ديني. ولا نجاح لدعوة لم تؤسِّس هذه العقيدةَ

(١ ، ٢) رواه مسلم.

العظيمة في النفوس، ولم تضع لبناتها الأولى على أصل متين، ولم تغرس جذورها في عمق التربة النفسية والاجتماعية للأمة! ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللّٰه.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

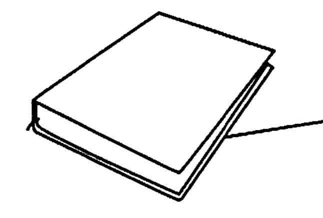
من التلقي إلى البلاغ

المدارسات القرآنية

٦ - سورة الذاريات

وهي مكية، وعدد آياتها (٦٠)

وهي تتضمن ثلاثة مجالس





أما سورة الذاريات فهي سورة اليقين.. اليقين في إقامة البرهان، واليقين في عرض حقائق الإيمان، وخاصة الأصول الكبرى، وخاصة من تلك الأصول: الإيمان باللَّه واليوم الآخر. إنها ترفع المؤمن إلى مقام اليقين منذ الْـمَدْرَجِ الأول، وتصرع الكافر بقوة اليقين منذ الجولة الأولى!

إن الخطاب في هذه السورة يتركز حول حقيقة البعث والجزاء، وحتمية وقوع يوم الدين. تمامًا كما هو في سورة « ق » وغيرها من السور. لكن سورة الذاريات تتميز عن غيرها؛ بتدفق آياتها على قلب المؤمن من على شرفات اليقين الأعلى! كما تتميز بعرض حقائقها اليقينية، عرضًا يتوجه من رب العزة - بكاف الخطاب - إلى الكفار مباشرة، أهل الْـخَرْصِ والتشكيك، فيلقي عليهم حقائق الإيمان براهين ذات صفعاتٍ، وحججًا ذات لطماتٍ، تقع على وجه الكفر فتبغته بَغْتًا، وتَبْهَتُهُ بَهْتًا!

ومن ثم كان لهذه السورة الرهيبة طبيعةٌ خاصة، ومذاق متميز؛ يجعلها تستقل بشخصيتها، مبنًى ومعنًى، وإشارةً وعبارةً، وحجةً وبرهانًا؛ ويجعلها جوهرة كريمة، لها موقعها الهام، الذي لا يعمره سواها في عقد القرآن المجيد.

إن حقائق الإيمان هنا في « الذاريات » تتجلى سيوفًا وصوارم من ألماس اليقين، يقين يجعلك تتلقى حقيقة اليوم الآخر، وتبصر واقعته، كما أنك الآن تسمع، وكما أنك الآن تنطق! يقين يتسلط على متارس الشك، والْخَرْصِ، والظن المريض، في قلوب الكفرة الفجرة، فيقصمها قصمًا، ويمزقها إربًا إربًا! بل إنها عاصفة من غضبة الحق، تهب على رمال الشك الزاحفة على النفوس الخبيثة، فَتَذْرُوهَا ذَرْوًا؛ حتى لا تبقي منها ذرة واحدة، تصلح حجة لكافر على كفره!

وتتميز سورة الذاريات بكلماتها القوية، ووقعها الشديد، سواء في طريقة البرهنة والحجاج، أو في سبك الأسلوب والتعبير. إنها تعمل على إثبات أركان الإيمان الكبرى جميعها في النفس، بكلمات مختصرة. وتسوق بهذا الأسلوب العجيب

المعجز، حقائقَ الإيمان باللَّه، واليوم الآخر، والإيمان بالرسل، وبالرسالة والكتاب، وبالملائكة، ثم القدَر. كل ذلك تعالجه السورة وتؤسسه في النفس، على مقام اليقين الراسخ المكين!

ولكنها تتفرد في ذلك كله وتتميز، بأسلوبها في الدعوة إلى الإيمان بيوم الدين خاصة؛ إذ تنتصب عباراتها كلماتٍ وجملًا، هي من القوة بحيث تحطم تخرصات القلب، الحاجبة لبصيرته، الطامسة لفطرته، فتجعله يبصر حقائق الآخرة بيقين الشهود! وكأن في تسميتها باسم « الذاريات » - وهي الرياح - إشارةً إلى أنها سورةٌ ذات اختصاص بِذَرْوِ غبار الباطل، ونسف ركامه نسفًا، وإجلاء آثاره عن البصائر، كلما حجبها ضبابُه عن الإبصار، أو أدخلها في ظلمات الحيرة والضلال!

إن سورة الذاريات هي سورة الوعد الصادق، والخبر الواقع، والحق المبين اليقين؛ ولذلك ترادفت فيها التعابير القوية المتينة، والكلمات الشديدة المكينة، والجمل الاسمية القصيرة، والتوكيدات المتعددة المتتابعة، والفواصل الكثيرة، آيات محكمات مبينة، منزلة من الرحمن، قواطعَ لكل ريب، ومخارسَ لكل جدل! كما تعدد فيها القَسَمُ من رب العزة ﷻ - أوَّلَ السورة ووسطَها - القَسَمُ بعظائم خلقه، ومظاهر قدرته، على وقوع اليوم الآخر وحتميته. قسَمٌ يبني في النفس المؤمنة حصون السكينة ومعراج اليقين، ويحطم في النفس الخبيثة تخرصات الشك، وإلقاءات الشياطين.

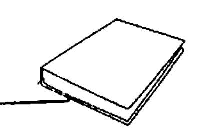
وعلى هذا السياق، ومن أجل هذا الهدف، عَرَضَتْ السورة لآيات اللَّه في الآفاق، ولآياته في الأرض، وفي الأنفس، ثم لسننه الجارية في التاريخ البشري والرسالي، إلى أن تدرجت خواتيمُها نحو باب النجاة، فرارًا إلى اللَّه، ودخولًا تحت أمان عبادته، على مقام اليقين. ثم وقفت على ما بدأت به، من تجديد التهديد والوعيد للخَرَّاصِينَ الظالمين، أعداء اليقين، وجاحدي الحق المبين. ثم بقيت كلماتها أصداء قوية في أُذن الزمان إلى يوم الدين!

تلك خلاصة مركزة عن طبيعة سورة الذاريات، وبيانٌ لمحورها الأساس.

فلنشرع الآن بحول اللَّه في مدارستها، وتَلَقِّي كلماتها على التفصيل، واللَّه المستعان.

المجلس الأول

في مقام التلقي لبرهان اليقين
ومعرفة مآل الخرّاصين ومدارج المتقين



١ - كلمات الابتلاء:

قال اللّه جلّت حِكْمَتُهُ: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۝١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝٢٣ ﴾.

٢ - البيان العام:

يكاد يجمع المفسرون إلا قليلًا، على أن المقصود بهذه العبارات المقسم بها هنا في مفتتح السورة، أمورٌ أربعة، هي من عظيم مخلوقات اللّه، ومظاهرُ من تجليات قدرته ﷻ. فالذاريات هي الرياح، سميت بذلك لما تقوم به من الذَّرْوِ، وهو حركة العصف، والإثارة، والتحريك القوي للأشياء؛ كَذَرْوِ الغيوم في الفضاء، وتهييج الأمواج في البحار، وإثارة الغبار والرمال في الأرض، وشتى ضروب الهشيم والغثاء [1].

---

(١) نقول: ذَرَا الفلاحُ القمحَ وذَرَّاهُ أيضًا، يَذْرُوهُ ويَذْرِيهِ ويُذَرِّيهِ: إذا جعل يرفع ركامَه في البيدر بالمذراة، ثم يرمي به في الهواء بين يديه؛ لتصفيته من التبن والقذى. ن. مادة « ذرا » و « ذرو » في لسان العرب وغيره.

وأما « الحاملات وِقْرًا » فهي السُّحب المحملة بالأمطار، والْوِقْرُ كالْحِمْلِ، وَزْنًا ومعنًى، جمعه أَوْقَار، وهي: الأحمال والأثقال [(١)]. وأما « الجَارِيَات يُسْرًا » فهي السفن تجري على البحر بيسر وسهولة، ويلحق بها الناقلات الجارية في البر، والطائرات الضاربات في أعالي الفضاء، فكل ذلك مشمول بوصف « الجاريات ». وأما « الْمُقَسِّمَات أَمْرًا » فهي الملائكة الموكلة بتقسيم الأرزاق والمقادير، على ما قدَّر اللَّه في الأزل وقضى.

هذا هو المشهور عن الصحابة ﷺ في تفسير هذه العبارات الأربع، وقد رُوي ذلك عن علي ﷺ بأسانيد كثيرة، كما عند الطبري [(٢)]. ورواه البخاري عنه مختصرًا معلقًا [(٣)]. كما رُوي نحوُه عن ابن عباس وعمر، وبعض التابعين كمجاهد. وقيل: إنما المقصود بهذه الكلمات كلها شيء واحد، هو الرياح، ذُكرت باختلاف صفاتها، وتعدد وظائفها. فهي تهيج فتذرو الأشياء حينًا، وتحمل أوقار الغيوم حينًا، ثم تجري يُسْرًا حينًا آخر، وتقسم مقاييس الأمطار على الأقاليم على ما قدَّر اللَّه، أحيانًا أخرى [(٤)]. لكن المعنى الأول أرجح؛ لأنه أثبت من جهة، ولأن تعديد البرهان وتنويعه أنسب هنا؛ لإثبات المقسم عليه، من أمر الوعد الحق، والبعث والنشور.

تلك معاني العبارات، فلنشرع الآن - بحول اللَّه - في تدبر الكلمات:

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ ﴾!.. إن هذه الآيات المركَّزة القصيرة، لهي أشبه بطلقات نارية متتابعة شديدة، تخرق صدر الشيطان، المحيط بقلب الكافر الجاحد، يملؤه بالتمرد والعصيان، ويلقي فيه وساوس الشك والتردد والبهتان! وإنها لأشبه أيضًا بصفعات قوية أليمة، تضرب وجه الإنسان الغافل الثقيل، الذي لم يزل يغط في خريف غفلته، وقدمه توشك أن تزلَّ به من على شفا خطر عظيم!

---

(١) قال صاحب الصحاح: (الوَقْرُ بالفتح: الثِّقْلُ في الأذن. والوِقْرُ بالكسر: الحِمْلُ. يقال: جاء يحمل وِقْرَهُ. وقد أَوْقَرَ بغيره. وأكثرُ ما يستعمل الوِقْرُ في حِمْلِ البغلِ والحمارِ، والوَسْقُ في حِمْلِ البعيرِ. وهذه امرأةٌ مُوقَرَةٌ، إذا حملت حَمْلًا ثقيلًا. وأَوْقَرَتِ النخلةُ، أي كثُر حملها)، مادة: « وقر ».

(٢) ن. تفسيره للآيات.

(٣) ن. كتاب التفسير من صحيحه.

(٤) ن. تفسير الآيات في مفاتيح الغيب للرازي.

وإن التالي للآيات بقلبٍ حيٍّ يقظ، يتلقَّاها قَسَمًا عظيمًا من الرحمن، بل أَقْسَامًا عظيمةً متتاليةً؛ ليكاد يشعر برياح الحق تعصف به عصفًا، بل تكاد تذرو ذرات جسمه في الفضاء ذَرْوًا! وإن الفزع ليهز دقات قلبه هَزًّا! وإن لمشهد الرياح العاصفة وهي تَذْرُو الأشياء ما بين الأرض والسماء، ومشهد الغيوم الزاحفة المحملة بأثقال الأمطار، ومشهد السفن السائرة - ونحوها من الناقلات - تمخر عباب البحار، ومشهد الملائكة وهي منهمكة في نشاطها اليومي في السماء، تقسم الأرزاق بين العباد، وتوزع مكاييل الأمطار على الأقطار، وفق ما استنسخته من مكتوب اللوح المحفوظ؛ فتسوق الرياح على تلك المقاييس وبتلك الموازين، ثم يكون ما قدَّر اللَّه للناس في الأرض، من ثمار وطعام وأرزاق، ثم تجري حركة التجارة بين الشعوب والبلدان، عبر الناقلات الجاريات في البحر، وفي البر، وعبر الطائرات العملاقة الضاربة في أعالي الفضاء، محملة بأطنان الأثقال، فهذه وتلك جميعًا مشمولة بعبارة ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾، كلها تجري يسرًا بالأرزاق؛ لتوصلها إلى مَحَالِّهَا المقدَّرة لها تقديرًا، في علم اللَّه الأزلي!

إن الصورة رغم أنها مكونة من أربعة عناصر مختلفة، إلا أنها تتركب في مشهد كلي واحد، مشهد منسجم ينبض بالحركة والقوة والحياة، ويوحي بأن اللَّه ﷻ قد أحاط بهذا الكون، عِلْمًا وقُدْرَةً ورعايةً وتدبيرًا. وأن حوادث هذه الأرض وما يجري فيها، إنما هي نتيجة وانعكاس لما يُقَسَّمُ في السماء ويجري فيها! وبذلك استحق هذا المشهد الكلي العظيم، بعناصره الأربعة وقواه المختلفة أن يكون مُقْسَمًا به من لدن الرحمن على مقصود السورة وهدفها الأساس، أَلَا وهو التحقق الواقع لا محالةَ ليوم الدين.

ذلك أن المتحكم في الأرض بهذه الحركات القوية الجبارة، الجارية بين السماء والأرض تقديرًا وتدبيرًا؛ هو متحكم في مآل ذلك كله، إفناءً وتدميرًا، ثم بعثًا ونشورًا! ولذلك كان جواب القَسَمِ: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾! فذلك الوعد الموعود، الذي جاءت الرسل بخبره من عند اللَّه، وذلك الدِّينُ المنتظَرُ يَوْمُهُ وساعتُه - والدِّينُ هنا: هو بمعنى الجزاء وتعاطي الحساب - كل ذلك وَعْدٌ صادق، وأمرٌ واقعٌ لا محالة. صادق كصدق الرياح إذا هبت من حولكم، والسحب إذا أمطرتكم بوابل المياه، وكصدق الأرزاق إذا وصلت إلى أفواهكم، عبر آلاف

الأميال التي تقطعها السفن والناقلات البرية والجوية، مُصَدِّقَةً بذلك قضاءَ اللَّه وقدرَه، ولمقاييس الملائكة المقسمة للأرزاق على ما قدَّر اللَّهُ وقضَى.

ومن ذا قدير على حبس الريح العاصف إذا ثار؟ أو التحكم في غضب الإعصار؟ أو منع الغيم الثقيل عن الإمطار؟ أو منع وصول مقادير الأرزاق؟ إذن؛ فليمنع وقوع القيامة إذا قامت! أو ليدفع عن نفسه الموت إذا استطاع! كلَّا كلَّا! ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ ﴾!

وتنهال صفعة أخرى على وجه الإنسان، الإنسان الجاحد المعاند، يتصدرها قَسَمٌ جديد من الرحمن بأمر عظيم، يتبعه جواب منه تعالى، يتوجه مباشرة بكاف الخطاب، إلى الكفرة الفجرة، تحطيمًا لما يلفقونه من تصورات كاذبة، ونظريات جاهلة، مادتها ونسيجها الدجل والبهتان، فيقول ﷻ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ ﴾! فهذا القسم الجديد من الرحمن، يعرض جانبًا عظيمًا من بديع صنع اللَّه ذي الجلال، إنها السماء ذات الْـحُبُكِ؛ أي ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء، على قول ابن عباس وجمهور التابعين [1]، من الْـحَبْكِ وهو: الإحسان، والإحكام، والإتقان في صناعة أنسجة الثوب وغيره. والْـحُبُكُ مفرده حَبِيكَةٌ، وهي: نقوش الريح على الرمل، وما تتركه على كثبانها من خطوط طبيعية والتواءات جميلة. وكذلك الماء الكثير الساكن، إذا مرت به الريح تجعله حَبَائِكَ وحُبُكًا، أي أنها ترسم على سطحه تمَوُّجات صغيرة ذات أشكال بديعة، تُسَمَّى حُبُكَ الماءِ، وحبائك الشَّعر: تدرُّجه إذا مُشط [2].

فمن هنا وُصِفَتِ السماءُ بأنها ذات الْـحبُكِ؛ وذلك بما جعل اللَّه فيها من أفلاك ومجرَّات، وكواكب عظيمة، ونجوم سيارات، وبما جعل في ذلك كله من توازن خارق، يحير العقول ويسلب الألباب! ثم بما لها من تجليات الجمال والجلال تختلف على مدار الفصول، وعلى اختلاف الليل والنهار. فلكل لحظة في السماء تجلٍّ من الحسن، ينسيك بهاؤه بهاءَ التجلي الذي كان قبله! هذا على قدر ما تدركه العين الناظرة، وأما من طالع مقولات علم الفلك الحديث، وأخبار ما تلتقطه المراصد

---

(١) ن. تفسير الآية عند الطبري وابن كثير.

(٢) ن. مادة: « حبك »، في الصحاح، واللسان، والقاموس المحيط.

الفلكية الكبرى من الحقائق العلمية الكونية، فإنه يزداد انبهارًا بهذه الْحُبُكِ العجيبة! ذلك أن تصور الإنسان لا يبقى حبيس ما تلتقطه العين المجردة، بل يمضي به خياله في تتبع مواقع النجوم الضاربة في عمق السماء، بعيدًا بآلاف السنوات الضوئية! ويتصور المدارات البعيدة، ويتتبع بذهنه حركة النجوم والمذنبات السيارة التي لا يكون موعد مرورها قرب مجرة الأرض، إلا بعد سبعين سنة وأكثر، تمر خاطفة، ثم تمضي بعد ذلك في فلكها الكبير، ضاربة في تيه الكون المجهول! نجوم وكواكب ومذنبات تعد بملايين الملايين، كلها تجري في أفلاكها بمدارات متداخلة شتى! ومع ذلك لا تصطدم ذرة منها بذرة! وتبقى حُبُكُ السماء إعجازًا أبديًّا للبشرية - مهما تطورت معارفها - وتحديًا يخاطبها بعظمة الخالق الكبير المتعال!

تلك ومضة من مضمون القَسَم بالسماء ذات الْحُبُكِ، وأما جوابه فهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ ﴾! والقول المختلف هو الكلام المتناقض المتضارب المضطرب، الذي لا يستقيم على ميزان سليم، ولا استدلال مطرد. كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] بمعنى لوجدوا فيه تناقضًا كثيرًا واختلاطًا واضطرابًا.

ومن بديع التقابل في هذه الآيات - من الذاريات - أنه تعالى أقسم بجمال السماء، وحسن انتظامها، وتوازن نجومها، ودقة ترتيبها، وحبك أفلاكها ومواقعها، أقسم بذلك على اضطراب مقولات الكفار، وتناقض نظرياتهم، وفساد أحكامهم! وإذا حكم الخبير في جمال الصنع والإبداع على فساد شيء واختلاطه فهو حجة دامغة! فكيف إذا أقسم بحسن صنعه وبديع حَبْكِهِ؟ نعم ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ ﴾! أي إنكم لفي قول متناقض مضطرب، لا يستقيم. وإنما ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ ﴾، بمعنى: يضل عن حقيقته وينخدع به، من سبق الضلال إلى قلبه؛ بما سكنه من الهوى، فأعمى الله بصيرته! تقول: « أُفِكَ الرَّجُلُ يُؤْفَكُ »، إذا راج عليه الإِفْكُ وانخدع به. والإِفْكُ: هو الكذب الغليظ، والافتراء العظيم، والبهتان المبين. فإذا صار معتقدًا لصحته الموهومة فهو مَأْفُوكٌ. وهو بذلك يُضَلَّلُ عن حقائق الإيمان، وعن حقيقة الحشر والمعاد، فتحطمه الشكوك والظنون؛ بما سكن قلبَه ابتداءً من هوى وضلال! (١)

---

(١) جاء في كتاب « المحيط في اللغة » للصاحب بن عباد: (الإِفْكُ: الكَذِبُ، أَفِكَ يَأْفَكُ أَفْكًا، ومنه قولُه ﷻ: =

فكان خلاصة هذه الآية أنه: يُؤْفَكُ بالباطل عن الحق، مَنْ أُفِكَ قبل ذلك بهواه وشهواته. ويؤخذ منها - بمفهوم المخالفة - أن المؤمنين يبصرون الحقَّ حَقًّا ويُرْزَقُونَ اتباعَه، ويبصرون الباطلَ باطلًا ويُرْزَقُونَ اجتنابه؛ بما جعل اللّٰه في قلوبهم من الهدى واليقين.

ومن ثم توجه الخطاب إلى الخرَّاصِينَ الكذَّابين، أهل الشك والريب، الذين ينشرون نظريات الْـخَرْصِ في الدين بغير الحق، وهو القولُ الجِزَافُ الكاذب، والتخمين الواهم [١]، ويبثون مقولاته في كل مكان، يحاصرون بِتَخَرُّصَاتِهِمُ الشيطانية دعوةَ الإسلام هنا وهناك، فأنزل اللّٰه عليهم لعنته الشديدة، والعياذ باللّٰه! قال ﷻ : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ﴾! وعبارة الدعاء بالقتل في هذا السياق لعنة! أنزلها اللّٰه ﷻ على الخراصين ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ ﴾، والغمرة في الأصل: بِرْكَةُ الماء الكثير، تمتلئ حتى تغطي مقرها، فتغمر من دخلها وتغرقه، وتُستعمل مجازًا للدلالة على الشدة، والزحمة، والسكرة؛ لأن السكران غارق في سكره. يقال: (رَجُلٌ مُغْتَمِرٌ: سَكْرَانُ (...) كأَنَّه اغْتَمَرَه السُّكْرُ، أَي غَطَّى عَلَى عَقْلِه وسَتَرَه!) [٢].

فمعنى ﴿ هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ أي غارقون في سكرة من الضلال، تغمر عقولهم،

= ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾. والأَفَائِكُ: جَمْعُ الأَفِيكَةِ للكَذِب. ورَمَاه اللّٰهُ بالأَفِيكَة: أي بالداهِيَةِ المُعْضِلَةِ. وأَفَكْتُ فلانًا عن هذا الأَمْرِ: أي صَرَفْتَه عنه بالكَذِبِ والباطِلِ). مادة: « أفك ». وفي لسان العرب: (الإِفْكُ: الكذبُ، والأَفِيكةُ كالإِفْكِ. أَفَكَ يَأْفِك، وأَفِكَ، إِفْكًا، وأُفُوكًا، وأَفْكًا، وأَفَكًا. (...) والأَفَّاكُ: الذي يَأْفِكُ الناس، أَي يصدهم عن الحق بباطله. (...) وأُفِكَ الرجلُ عن الخير: قُلِبَ عنه وصُرِفَ)، مادة: « أفك ».

(١) أصل الخَرْصِ في العربية: تقدير ما يُوزَنُ ويُكَالُ من الأشياء تقديرَ جزاف، أي بغير كيل ولا وزن، بل بالظن والتخمين وحَزْرِ العين. ومنه خَرْصُ التمر على رؤوس النخل. ومن ثم قيل للكذاب خَرَّاصٌ ومُتَخَرِّصٌ؛ لأنه لا وزن لكلامه ولا حقيقة. جاء في اللسان: (خَرَصَ يَخْرُصُ بالضم خَرْصًا، وتَخَرَّصَ، أي: كَذَب. ورجلٌ خَرَّاصٌ: كذَّابٌ. وفي التنزيل: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ قال الزجاج: الكذَّابون. وتَخَرَّصَ فلانٌ على الباطلِ واخْتَرَصَهُ؛ أَي: افْتَعَلَهُ. قال: ويجوز أَن يكون الخَرَّاصُونَ: الذين إنما يَظُنُّون الشيءَ، ولا يَحُقُّونَهُ، فيعملون بما لا يعلمون! وقال الفراء: معناه لُعِنَ الكذَّابون، الذين قالوا: « محمد شاعر، وأَشباه ذلك ». خَرَصُوا بما لا عِلْم لهم به. وأَصل الخَرْصِ: التَّظَنِّي فيما لا تَسْتَيْقِنُه، ومنه خَرْصُ النخلِ والكَرْمِ: إذا حَزَرْتَ التمر؛ لأَن الحَزْرَ إنما هو تقديرٌ بِظَنٍّ، لا إحاطة. (...) ثم قيل للكَذِبِ: خَرْصٌ؛ لما يدخله من الظُّنون الكاذبة)، مادة: « خرص ».

(٢) تاج العروس، مادة: « غمر ». مثله في اللسان والقاموس.

وتحجب قلوبهم عن إبصار الحق، فهم مخمورون بشهواتهم، متمسكون بشبهاتهم، ساهون، لاهون، غافلون! تائهون في ظلمات الكفر والإلحاد، لا يرون لشمس الحق ولا بصيص نور! مَرَدُوا على الكفر والزندقة والجحود؛ ولذلك فهم يَتَخَرَّصُونَ الباطلَ على الدين، وعلى سيد المرسلين ﷺ؛ فيتهمونه بشتى الصفات والنعوت التي نزَّهه اللَّه عنها، من مثل قولهم: شاعر، وساحر، وكاهن، وكاذب، ومجنون... إلى غير ذلك من ضروب الخرص الظالم المبير؛ ولذلك فهم يسألون من حين لآخر على سبيل السخرية والاستهزاء والتهكم: ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾؟ أي: متى سيقع هذا اليوم الذي تتوعدنا به؟ فعبارة « أيَّانَ » سؤال عن الزمان بمعنى متى؟ وإنما قصدهم بذلك إنكار حقيقته وجحود وقوعه! والهزء بشخص رسول اللَّه ﷺ، والسخرية منه، بأبي وأمي هو عليه الصلاة والسلام! وسبحان اللَّه! إن أتباعهم في عصرنا هذا لا يزالون يحطون من قَدْرِ رسول اللَّه ﷺ، وقَدْرِ الدعاة إلى اللَّه، ويسخرون منهم بنفس الطريقة ونفس الأسلوب الخبيث!

ويجيب الحق ﷻ بالحق، عن موعد ذلك اليوم، فيقول: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾! بمعنى يوم هم على النار يُعَذَّبُونَ، ويُصْهَرُونَ كما يُصْهَرُ المعدن في التصنيع والتجريب؛ ذلك أن أصل استعمال لفظ « الفتنة » في العربية، هو بمعنى صَهْرِ المعدن بالنار وتذويبه؛ قصد اختباره والتحقق من جودته ورداءته. فاستعمل بعد ذلك مجازًا في كل تعذيب، وفي كل ضروب الابتلاء الشديد للإنسان. وعلى هذا تعددت استعمالاته في القرآن. فقد نقل ابن منظور عن الأَزهري قولَه: (جِمَاعُ معنى الفِتْنَةِ: الابتلاءُ، والامْتِحانُ، والاختبار. وأَصْلُهَا مأخوذٌ من قولك: فتَنْتُ الفِضَّةَ والذَّهَبَ، إذا أذبتهما بالنار؛ لتميز الرديءَ من الجيِّدِ) [١].

فقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾! جواب على غير المتوقع؛ لأنه أجابهم بوعيد ما هم له في الأصل منكرون، وبما كانوا به يستهزئون! وهو أسلوب قرآني بليغ في إبطال أوهام الكفار وضلالاتهم. فكأنه قال: إذا كنتم تنكرون حقيقة يوم الدين وعذاب الجحيم، إنكارَ غوايةٍ وجحود؛ فإن الحجة الوحيدة الكفيلة بإقناعكم؛ إنما هي دخولكم الفعلي للنار، واصطلاؤكم بلهيبها وسعيرها، وتقلبكم بين

---

(١) لسان العرب مادة: (فتن).

مواقدها ودركاتها؛ ولذلك قال بَعْدُ مباشرةً: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾! أي ذوقوا عذابكم الذي كنتم تجحدونه وتنكرونه على رسولنا، وتَتَحَدَّوْنَهُ أن يعجل لكم به؛ إمعانًا منكم في التكذيب والكفران. ها أنتم الآن فيه تُصْهَرُونَ، وتُفتنون كما يُفتَن المعدنُ في النار، فذوقوا..! والتعبير بالذوق أشد دلالة على الشعور بالألم والعذاب - والعياذ بالله - وهو أبلغ في الوعيد والتهديد؛ لما في الأمر به من السخرية والتنكيل والتبكيت. وهو أنسب في الرد على سخريتهم بحقائق الدين وبشخص رسول الله ﷺ. وقد أضاف لهم هنا عبارةَ الفتنة وألصقها بهم؛ إمعانًا في بيان أنهم من صُلاَتِهَا يقينًا، ومن أهلها تحقيقًا، وأنهم مُوَاقِعُوهَا لا محالة.

ويجوز أن يكون معنى ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾: ذوقوا جزاءَ فِتْنَتِكُمْ التي فتنتم بها المؤمنين المستضعفين في الدنيا؛ إذ عذبتموهم وشردتموهم، وفتنتموهم في دينهم فُتُونًا! كما قال تعالى في سورة البروج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠]. كذلك فسرها العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله، وهو معنى حسنٌ وجيه [1].

وفي الجهة المقابلة، يصف الرحمن الطائفةَ المؤمنة التي اتَّقت ربها بالغيب، وعملت بمقتضى تقواها، وتدرجت عبر مدارج الإيمان حتى تحققت بمنزلة الإحسان. فلم يضرهم كيد الكائدين ولا إِفْكُ الخرَّاصِينَ، بل ثبتوا على عبادة الله وذكره تعالى، توحيدًا وتفريدًا على كال حال، حتى بلغوا مقامهم العالي في الجنات بفضل الله. ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ ﴾. ذلك جزاؤهم: جنات وعيون، هكذا بصيغة الجمع في « الجنات » و « العيون »، بما لذلك من إيحاء جميل كريم، دال على الحياة المتدفقة خضرةً وأنهارًا، ونعيمًا لا ينفد أبدًا؛ ولذلك قال: ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾، أي متسلمين ما وهبهم ربهم من الخيرات والبركات وأصناف النعيم، متقلبين في أحوال اللذة والغبطة والسعادة والسرور. إنها جنات وعيون تفزع إليها النفس الآن، هاربة من فتنة النار وجحيمها!

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

وأما مسلكهم الذي به وصلوا فهو طريق المجاهَدات! ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾، أي أنهم قبل يوم القيامة، وقبل استحقاقهم النعيم؛ كانوا في هذه الدنيا عاملين على منزلة الإحسان. والإحسانُ كما هو مشهور من قول النبي ﷺ: « **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ!** »[1]، وهو عبادة اللَّه ﷻ على ما وقع في قلب العبد، من العلم به تعالى، والمعرفة بجلاله وجماله؛ حتى يكون على ما وصف الرحمن - في موطن آخر - من: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

نعم، ذلك وازع الإحسان في قلوب المتقين الواصلين، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ بسبب ما عرفوا من مقام الرب العظيم وقَدْرِه الكبير، وبما وهبهم اللَّه من حبه، والتعلق بأنوار أسمائه وصفاته. فهيجتهم الأشواق، وأرَّقتهم المحبة، وطرد النومَ عن عيونهم وقلوبهم حادي الخوف والرجاء، فأسهروا ليلهم في طاعة اللَّه، باكين، خاشعين، متبتلين، وأهرقوا مهجهم بين يدي مولاهم، متفانين في أداء حقوق العباد، بعد أداء حق رب العباد. فهذا بيان إحسانهم: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾. والهجوع: نوم الليل خاصة[2]. وقد روى الإمام الطبري بسنده عن الحسن البصري - رحمهما اللَّه - كلمات في تفسير هذه الآية، قال: (كَابَدُوا قيامَ الليل، لا ينامون من الليل إلا أقله! ثم مَدُّوا في الصلاة ونَشِطُوا، حتى كان الاستغفار بِسَحَرٍ!)[3]، وروَى أيضًا عن التابعي الكبير الأحنف بن قيس[4] - رحمه اللَّه

---

(١) متفق عليه من رواية أبي هريرة ﷺ.

(٢) ن. مادة: « هجع » في المحيط في اللغة لابن عباد، والقاموس المحيط للفيروز آبادي.

(٣) روى الطبري كلمات الحسن البصري متفرقة، حسب الشواهد عند تفسير هذه الآيات، بينما ساقها ابن كثير هكذا مجتمعة.

(٤) الأحنف بن قيس تابعي جليل، كاد أن يكون صحابيًا! اشتهر بالحلم والحزم والجهاد والورع. جاء في التهذيب: (الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي السعدي، أبو بحر البصري. واسمه الضحاك، وقيل: صخر، والأحنف لقب. أدرك النبي ﷺ ولم يسلم، ويُروى بسند لين أن النبي ﷺ دعا له. روَى عن عمر، وعلي، وعثمان، وسعد، وابن مسعود، وأبي ذر، وغيرهم. وعنه الحسن البصري، وأبو العلاء ابن الشخير، وطلق بن حبيب، وغيرهم، قال الحسن: ما رأيت شريف قوم أفضل من الأحنف. ومناقبه كثيرة، وحلمه يضرب به المثل! وذكره محمد بن سعد في الطبقة الأولى من أهل البصرة، قال: وكان ثقة مأمونًا، قليل الحديث. وذكر الحاكم أنه الذي افتتح مَرْوَ الروذ. وقال مصعب بن الزبير يوم موته: ذهب اليوم الحزم والرأي. قيل: مات سنة (٦٧ هـ)، وقيل: سنة (٧٢هـ). =

ورضي عنه - أنه كان يقرؤها فيقول متحسِّرًا: (لستُ من أهل هذه الآية!) [(١)] كذلك كان الصحابة والتابعون - رضوان اللّه عنهم - يجتهدون ويجتهدون، فإذا نظروا إلى معارج الآيات ومنازلها؛ لم يروا أنفسهم أنهم صنعوا شيئًا! وهم الرُّكَّعُ السُّجَّدُ كما وصفهم القرآن، الخُشَّعُ الخُضَّعُ، لكنهم مع ذلك لَوَّامُونَ لأنفسهم، مستصغرون لها، بكَّاؤون أوَّاهُونَ! قد كَوَى الخوفُ جُنُوبَهُمْ فهجروا المضاجع فُزَّعًا، وانتصبوا بين يدي ربهم، يجأرون إليه بطلب الجوار وألطاف الأمان! كما قال في السجدة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. ذلك سرُّ قلة نومهم، وما كان لمن سكنه الخوف أن يجد للنوم سبيلًا، إلا قليلًا! قال ﷺ: « **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ! أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ! أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْـجَنَّةُ!** » [(٢)].

وما أَجَلَّ سبحات الاستغفار بالأسحار؛ حيث يسكن الليلُ ويهجع كل شيء، فلا يبقى إلا اللّه الواحد القهار..! تلك نزهة الروح في خلوات الوصال، وتمتعها العميق بمناجاة الرحمن. والاستغفارُ بالسَّحَرِ قد يراد به معناه الظاهر، من ترديد عبارات الاستغفار، وطلب المغفرة من اللّه، والترنُّم بأدعية التوبة إليه تعالى، وقد يراد به صلاةُ التهجد في ثلث الليل الآخر، الموافق لوقت السحر؛ وكأن في ذلك تنبيهًا على أهمية الاستغفار في السجود والركوع عند الأسحار، كما تواترت به الآيات والأخبار.

ومن أجلِّ الأحاديث الصحيحة في ذلك قولُ النبي ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة ﷺ قال: قَالَ ﷺ: « **يَنْزِلُ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ!** » [(٣)]، والمقصود بالدعاء والاستغفار إنما هو أثناء صلاة الليل

=[قال ابن حجر]: وقيل: إن اسمه الحارث، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال أحمد في الزهد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، ثنا عبد الملك بن معن عن خير بن حبيب أن الأحنف بَلَغَهُ رَجُلَانِ دعاءَ النبي ﷺ [يعني له] فسجد). تهذيب التهذيب (١/١٦٧).

(١) أورده الطبري عند تفسيره للآية.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي. كما صححه الألباني في تحقيق سننه، وفي صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة.

(٣) متفق عليه.

وخلالها، كما بينه حديثُ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ! وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ! وَذَلِكَ أَفْضَلُ** » (١)، وفي رواية أخرى لمسلم: « **فَإِنَّ قِرَاءَةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَحْضُورَةٌ** »، وكلاهما بمعنى واحد.

كذلك حالهم مع اللَّه، وأما حالهم مع خلق اللَّه فهو مراعاة أهل الحقوق، والتصرف فيما رزقهم اللَّه من أموال، على قاعدة أن: « المال مال اللَّه، والبشر مستخلفون فيه »، فيؤدون للَّه حقه، كلما جاءهم ساعيه، من سائلٍ أو محرومٍ، قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾. وحق اللَّه متبوع في كتاب اللَّه بحق عباده؛ لأن ذلك من حقه. تمامًا كما ارتبط إقامُ الصلاة بإيتاء الزكاة في الإسلام. ولا يصح دين عبد ولا يستقيم حتى يعبد اللَّه بجوارحه وماله، ويرعى حقوق اللَّه وحقوق عباده.

والسائل هنا هو: الفقير الناطق بحاجته، المعبر عن فقره بالمسألة والتكفف. وأما المحروم فهو: الفقير المتعفف، الذي لا يسأل الناس إلحافًا، رغم حاجته وفقره؛ فلا يُعطَى الصدقة؛ لظن الناس أنه غير محتاج؛ بما أخفى من حاله. على ما قال اللَّه ﷻ في سورة البقرة: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: « **لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ!** » (٢).

وحقيقة المحروم أنه: من سأل الناس فمنعوه وحَرَمُوهُ! لكن ذلك غير مقصود هنا. وإنما سُمِّيَ محرومًا باعتبار مآلِ حالِه؛ إذ يُتَصَدَّقُ على غيره ممن ظهرت حاجته بنطقه وسؤاله، لكنه هو يُغْفَلُ عنه وَيُنْسَى؛ بسبب خفاء حاله وصمته! فَيُحْرَمَ ما كان يمكن أن يُعْطَى. ويجوز أن يشمل وصف « المحروم » أيضًا، كُلَّ من فقدَ مالَه بسبب جائحة، أو مصيبة أتت على كل ماله؛ حتى صار إلى الفقر؛ فكان بذلك محرومًا.

فأصحاب مقام الإحسان يعطون السائل، ويتحسَّسون هم بأنفسهم من أهل

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه البخاري.

الحرمان، ويبحثون عن الصابرين على ما ابتلاهم اللّه به من الفقر، فيطرقون عليهم الأبواب في خفية عن الناس، ويؤدون لهم حق اللّه الذي جعل لهم، يواسونهم بالمال والاحتضان والعطف والسلام.

وقد قَصَرَ بعضُ المفسرين معنى « حق » في هذه الآية، على الزكاة المفروضة فقط، وبعضهم صرفه إلى صدقة التطوع فقط. والحقيقة أنه شامل لهما معًا. فالمحسنون في أموالهم يجعلون على أنفسهم حَقًّا للسائل والمحروم؛ تقربًا إلى اللّه ﷻ. فيدخل فيه حق الزكاة الذي فرضه اللّه، ويدخل فيه ما يرتبونه على أنفسهم من صدقات التطوع الثابتة على الدوام، بِقَدْرٍ معلوم، يجعلونه حقًّا على أنفسهم للفقراء والمساكين، فيلتزمون به التزامهم بالنذور. وذلك نحو ما يجعله المؤمن لأقاربه الفقراء من راتب ثابت، يخرجه من ماله حتى ولو لم يتحقق فيه نصاب زكاة، سواء كان صاحب فلاحة، أو ماشية، أو تجارة، أو صناعة، أو مهنة، أو غير هذا وذاك من أسباب الرزق وموارد المال، فإنه يجعل للسائل والمحروم حَقًّا مما سوى الزكاة وإن قَلَّ. وهذا هو الذي فسرته سورة المعارج بقول اللّه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

ولأهل الإحسان في عبادتهم وأموالهم معراجٌ آخرُ لطيف، يسلكون به خفيةً إلى اللّه - جل ثناؤه - ألا وهو معراج التفكر، وهو مسلك يوصلهم إلى أعلى درجات اليقين، كالإحسان في العبادات المحضة تمامًا. واليقين هو غاية العبادة بشتى أصنافها وهو منتهاها، وهو محور السورة على ما فصلنا قَبْلُ، ولذلك لم تزل الآيات تهدم طرق الشك والخرص، وتبني طريق اليقين، فكان التفكر في ملكوت اللّه العلوي والسفلي، هو تتمة العروج إلى مقام اليقين. قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝٢٣ ﴾ وهذا خطاب مزدوج القصد بشكل عجيب، متداخل المعاني بلا اختلال، على وِزَانِ بلاغة التعبير المعجز في القرآن المجيد؛ إذ بقدر ما فيه من بيانٍ لمقام اليقين، ولمسلك الموقنين، فإن فيه تعريضًا واضحًا بالغافلين المعرضين، وإنكارًا شديدًا لِمَا هم عليه من الغفلة والعمى!

فأما الموقنون فهم يبصرون آيات اللّه مسطورة في كتاب الأرض الكبير، يقرؤون

أحرفها وكلماتها، في طبيعتها، وحركتها، وتنوع تضاريسها، وأحوال فصولها، وثرواتها وخيراتها وبركاتها، مما بثَّه اللَّه فيها. ويتفكرون في عجائبها وأسرارها، وفيما يحيط بها من موازين، سواء في فلكها، أو حركتها، أو جاذبيتها، أو موقعها من الشمس ومن القمر، مما قدر اللَّه لها من موقع دقيق، ومسافات محددة، وحركة ثابتة، لو زادت عليه أو نقصت لاستحالت الحياة على وجهها! وغير ذلك مما ليس هذا محل تفصيله. وإنما نكتفي بإشارات مما يُنقل عن علماء الأرض. ولأصحاب الاختصاص ممن وهبهم اللَّه بصيرة الإيمان، أن يقرؤوا في كتاب الأرض من آيات اليقين ما لا يقرؤه غيرهم.

ولكن التفكر في معارض الأرض البارزة، مما هو متاح للعين المجردة، كافٍ في تمكين صاحبه من قراءة آيات اللَّه فيها، وتلقي مدد اليقين بإذن اللَّه. وبذلك المنهج قرأها الصحابة والتابعون، ومَنْ بَعْدَهُمْ من الموقنين قرونًا قبل ظهور علوم العصر الحديث. فالْمَشَاهِدُ الطبيعية الظاهرة البسيطة - وما هي ببسيطة - فيها من الآيات، ما لو ظل الإنسان عمرَه كلَّه وهو يتدبره، لَمَا أتى على نهايته وختامه! وقد كان بعض الصالحين ينظر إلى دالية العنب، فيعجب من عودها القاسي الخشن، كيف تتخلق منه عناقيد رطبة، طرية، ندية، شفافة اللب، يسيل ماؤها لأدنى خدش، كلما عكست شعاع الشمس صارت مثل دُرَرِ البلُّور الصافي! حتى إنك لتحصي حبات بذورها من خارجها واحدة واحدة!

وإن المؤمن ليبصر في عنقود العنب - وغيره من الثمرات - تجليات شتى لأسماء اللَّه الحسنى، الخالق، البارئ، المصور، البديع، الرزاق، الكريم، الرحيم، اللطيف، الجميل.. إلخ. وإنه إذ يتفكر في قضية الرزق؛ يذكر قطرة الماء كيف قَدِمَتْ من أعالي البحار بعيدًا، وكيف امتطت حصان الريح الراكض في السماء، سُحُبًا مثقلة بالبركات، حتى إذا توسطت بلادَها المبعوثة إليها قصدًا، هطلت بما أذن اللَّه لها فيه من مكاييل ومقاييس، لا تزيد ولا تنقص ولو قطرة! فإذا الأرض تهتز من تحتها وتربو، فتنبت من كل زوج بهيج! وإذا بالأرزاق تساق بمقاديرها إلى أهلها لطفًا من اللَّه القوي العزيز! على ما جاء في قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩] وإن مسالك الأرزاق لأوسع

وأكثر من أن تحصى، تمامًا كنعم اللَّه التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

تلك نظرة خاطفة إلى كلمة واحدة، بل إلى حرف واحد من آيات الأرض. تكشف لنا جانبًا من عظمة هذا المسلك الرباني التفكري، الذي سلكه المتقون المحسنون، فكانوا به موقنين، على ما قرره الحق سبحانه: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾.

وبعد التفكر في كتاب الأرض الكبير، ينبه الرحمن عباده إلى كتاب آخر من كتب التفكر، أعجب وأغرب، ألا وهو كتاب النفس الإنسانية. قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، وماذا أغرب وأعجب من النفس الإنسانية؟ وماذا أعمق وأغور من أدغالها ومكانزها؟ النفس بما لها من جذور ضاربة في أعماق الروح، وبما تتضمنه من تجليات مادية عبر هذا الجسم البشري العجيب، الذي تعبت علوم الطب والتشريح والحياة في استكشاف حقائقه الجسمانية والروحية، واستغرقت في سبيل ذلك الجهود والبحوث والطاقات، فلم تزد نتائجها على أن وقفت على شاطئ بحره الزاخر، تغرف حفنات من ماء موجه العظيم، وهي تنظر من بعيد إلى أعالي بحاره، عاجزة عن الخوض البعيد والغوص العميق.

وإن ما كشفه العلم الحديث - رغم ضآلته بالنسبة لحقيقة الجسم الإنساني - لهو من أبهر المعطيات التي تبين عظمة الخالق الكبير المتعال، وترسم للمتفكر المؤمن طرائقَ فسيحة للسلوك إلى مقام اليقين. وإن نظرة واحدة في بعض كشوفات البحث العلمي المتعلقة بالخلية، وأسرارها الوراثية، أو أسرار النشاط العصبي، أو عجائب النمو البيولوجي، والتجدد الحيوي، أو جهاز المناعة الذاتي ونظامه العجيب؛ ليتيح لقلب المؤمن أن يترقى في مدارج العلم باللَّه إلى أعلى الدرجات بإذن اللَّه.

ومع ذلك يكفي أيضًا أن يعتمد المتفكر في النفس، على معارض الجسم البشري المنصوبة لكل الناس، بلا بحث ولا تشريح؛ ليصل إلى اكتشاف منابع اليقين في عالم الروح؛ لأن اللَّه تعالى خاطب بهذا القرآن جميع الناس بكل مستوياتهم، وكلٌّ منهم يجد فيه يقينه على قدر علمه وصفاء قلبه. وهذا من أعظم أسرار الإعجاز في هذا الكتاب.

إن مظاهر التنفس، والهضم، والمرض والشفاء، والجوع والشبع، والخوف والأمن، والنوم واليقظة، ومظاهر الإحساس والذوق، ومراتب هذا وذاك، مما لا يخفى على

عامة الناس، وغير ذلك مما يعتري هذا الجسم البشري من أحوال نفسية ومادية، وما بين هذه وتلك من تداخل وتخالل؛ لكافٍ للوصول بالمتفكر البسيط إلى معرفة اللَّه، والتحصن بمسالح اليقين. وذلك هو ما اختصره اللَّه ﷻ في قوله تعالى حكاية عن نبي التفكر إبراهيم ﵇: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

إن كل نظر سليم في النفس يقود حتمًا إلى حقيقة اليقين؛ ولذلك أنكر الخالق ﷻ بشدة على الذين لا يبصرون هذا المسلك الواضح المبين، المتاح لكل نفس في نفسها، وإنما على كل امرئ أن ينظر في نفسه بنفسه، ما بين ليله ونهاره وتقلب أحواله. فإن ذلك هو كتاب النفس الكبير. ومن لم يفعل فما أبلد حسه، وما أطمس بصيرته! ولذلك كان هذا السؤال الإنكاري العنيف في قول الرب العظيم: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝ ﴾ وإنما هذا في الحقيقة بيان منه تعالى لما عليه الكفرة الخراصون من العمى والضلال.

ثم عرض الرحمن كتابًا ثالثًا من كتب اليقين، وهو كتاب السماء، وما يتضمنه من مقادير الأرزاق والأقدار، قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ ﴾. وقد سبقت الإشارة إلى السماء بما فيها من حُبُكٍ وجمال، لكن الجديد هنا هو التنبيه إلى كتاب القدر المكنون في السماء، القَدَر بما خُطَّ فيه من مقادير الأرزاق، والخير والشر على الإطلاق، وخاصة من ذلك ما جاء به الوعد والوعيد في الكتاب والسنة، من عقيدة البعث والنشور، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

وهذا كتاب لا يحسن قراءَته - حقَّ قراءته - إلا من عَمر اللَّه قلبَه بالإيمان ابتداءً، وحينئذ لا يرى شيئًا مما يطعمه، أو يلبسه، أو يقتنيه؛ إلا قسمةً أزليةً من اللَّه، وقدَرًا مكتوبًا عنده تعالى في السماء باللوح المحفوظ. كما أن الخير والشر جميعًا مما نزل، ومما هو نازل، ومما لم ينزل بعد، كله قضاء محتوم محسوم، رُسِمَتْ تفاصيلُه في السماء، في غيب اللَّه الذي لا يعلمه إلا هو، وإنما تَستنسخ الملائكةُ منه ما أُذِنَ لها فيه، لتتنزل به على مواقعه في الأرض، فتجري الحوادث على وفق ما أراد اللَّه، لا يتخلف منها شيء زمانًا ولا مكانًا، ولا قيد أنملة. وكذلك شأن الوعد الأكبر يكون، فقيام الساعة

بما اكتنفه من وعد ووعيد، له أجله المعلوم عند الله، لن يتخلف عنه طرفة عين.

ولذلك عقَّب على هذا التنبيه بقسمٍ عظيم، إنه قسم الرب ﷻ بذاته العظيمة العلية على أن وعد الله حقٌّ. قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾. وإن هذه الآية الجليلة لتنضاف إلى سابقاتها لتخدم هدف السورة من ترسيخ الإيمان بيوم القيامة على مقام اليقين. نعم هكذا، ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ﴿٢٣﴾ ﴾، يقسم الرحمن ﷻ بذاته العلية، بما هو الرب الخالق للسماء والأرض، على ما قرأنا في كتابيهما من آيات اليقين، يقسم شاهدًا سبحانه على أن وعده حق، حق واقع لا محالة، مثلما أننا ننطق الآن ونتكلم، ونعبر عن حاجاتنا بألسنتنا.

وتشبيه يقينية الوقوع بما يمارسه الإنسان في حياته اليومية من النطق، فيه دلالة على قرب هذه الحقيقة من الإنسان، وأن ما كُتب منها في غيب السماء هو كالذي قد وقع في الأرض وتحقق، لا فرق. وفيه دلالة أيضًا على ملابسة هذه الحقيقة للإنسان، ملابسة تامة، وأن قَدَرَهُ من الوعد الحق معلقٌ على رأسه، لازم له كما هو ينطق ويتكلم. والنطق من أكبر ظواهر النشاط الإنساني ارتباطًا بكيانه ووجدانه. فكذلك وَعْدُ الله بالبعث والنشور، حق يسكن فطرة الإنسان، وقَدَرٌ معلق على رأسه، يتبعه أنى سار، حتى ينزل إبانه، فيجد نفسَه حيث وضعه عَمَلُهُ.

فاللَّهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن قوى الطبيعة بشتى أنواعها، من سُحُبٍ، وأمطار، ورياح، وأعاصير، وزلازل وبراكين، كلها مرتبطة بقوى الروح. وهذه حقيقة إيمانية لا يبصرها أصحاب المنطق المادي الصرف، لانحباس أعينهم تحت غطاء الكفر والإلحاد. والمؤمن يرى بنور الله، فيجد أن حركة الكون كلها مدبرة بتقدير عليم حكيم، فلا يرى غيمة واحدة إلا وأيقن أن وراءها ملَكٌ كريمٌ يزجرها بإذن الله، ولا قطرات غيث إلا ويعلم أنها تنزلت بمكاييل ميكائيل ﵇، ولا يرى رياحًا إلا ويبصر أن لها سائقًا من الملأ الأعلى، ولا يصله رزق إلا ويؤمن أنه نصيبٌ قُسِمَ له عند المقسِّمات أمرًا، على ما قدَّر

اللَّه وقضى.. وهكذا، فالكون لا يسير بذاته، ولكنه مسيَّر من لدن خالقه العظيم، في كل ظواهره وبواطنه. وواجب على المؤمن أن يفتح بصيرته؛ ليرى حركة التدبير الإلهي والمشيئة الربانية في كل شيء، وآنئذ يستفيد من ثمرات الإيمان بالوجه الأكمل، وينتفع بالتواصل الدائم مع عالم الغيب، ويستأنس به في سيره إلى ربه، ويذوق حقًّا معنى اليقين.

الرسالة الثانية: في أن من أهم التنبيهات القرآنية في مجال التفكر مشاهدة الحركة في الكون، الحركة بشتى درجاتها وأنواعها، وأنت ترى كيف أقسم الرحمن ﷻ في مطلع هذه السورة، بأربع قوى ذات حركة عظيمة في نشاطها، وهي: الرياح، والغيوم الممطرة، والناقلات السيارة بتسخير اللَّه، والملائكة النشيطة في وظائفها الكبرى. فالحركة من أهم الظواهر الكونية الدالة على التدبير والتسخير والتسيير. وكلها راجعة إلى معاني أسماء اللَّه الحسنى، وذلك من أعظم أبواب التعريف باللَّه ﷻ ، وتحقيق توحيده.

الرسالة الثالثة: في أن اليقين هو الدين، وأنه لا قيمة لإيمان تخترمه الشكوك والظنون. خاصة فيما يتعلق بأصول الإيمان الكبرى، التي هي: الإيمان باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَرِ خيره وشره. وأن المؤمن هو من يعتقد أن الساعة حقٌّ يقين، وأن البعث حق يقين، وأن الحشر حق يقين، وأن الحساب حق يقين، وأن الجزاء حق يقين، وأن الجنة والنار حق يقين. لا مجال ولا لِقَدْرِ أنملة من الظن في هذا أو الشك؛ وإلا كان من الكافرين! فاليقين هو الدين.

الرسالة الرابعة: في أن تلقي حقائق الإسلام الإيمانية والعملية لا يؤخذ إلا بالوحي ومن الوحي، كتابًا وسنةً، وأن الخرص في الدين من أكبر الإثم؛ لما فيه من التقوُّل على اللَّه ﷻ والافتئات عليه. فقوله تعالى فيما تدارسناه ههنا: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ﴾ شاملٌ لكل خرَّاصٍ فيما لا يجوز فيه الْخَرْصُ؛ لأن الخارص في قضايا الغيب والإيمان لا يكون إلا كذابًا؛ ولذلك فُسرت عبارة « الخرَّاصين » في كتب التفسير بالكذابين. وعلى هذا يفهم قول رب العزة ﷻ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ﴾ [الحج: ٨، ٩]. وقال سبحانه:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

وهو تحذيرٌ ووعيدٌ يجريان على الكفار وعلى المسلمين سواء. وقد يَفْجُرُ المسلم فيقع في هذا الوزر العظيم، كما نشاهده في زماننا هذا. وهذه كتب بعض المفتونين بالفلسفات الغربية من المسلمين، تعرض بعض القضايا العقدية الكبرى، وتفسر بعض أمور الغيب تفسيرًا لا أصل له في عقائد الإسلام، وإنما هو مجرد خرص وتخمين، مغلف بمنطق التحليل والتعليل! والخبير يعلم أنه ما في تلك الكتب من حقيقة العلم شيء، وإنما هي الشبهات والأهواء لها تجليات إغرائية، وتزيينات شيطانية. فكل من تقَوَّل على اللَّه بغير الحق فقد عرَّض نفسه لنقمة اللَّه، والعياذ باللَّه!

الرسالة الخامسة: في أن عبادة التفكر في خلق السماوات والأرض، وفي آيات الأنفس، من أهم المسالك الموصلة إلى اليقين، لكن بشرط أن يكون الانطلاق فيها من القرآن إلى الطبيعة؛ لأن القرآن هو مبصار الإيمان. وأما من عزل القرآن عن المحيط الكوني، واستغنى عنه في تفكره ومشاهداته؛ فإنه لا يرجع إلا بالعمى والحيرة والتردد؛ ذلك أن القرآن هو كلمة السر التي بها يفتح الفكرُ طلاسمَ الوجود، وبها يفتح كنوز الأسرار في معرضه الكبير. إن الجبال، والأحجار، والأشجار، والأنهار، والبحار، والأفلاك، والنجوم، إلى غير ذلك من أنواع خلق اللَّه في السماوات والأرض؛ كلما عكست شعاعَ القرآن أتت بوميض شديد، يكشف آثار أسماء اللَّه الحسنى المتجلية على كل شيء. ثم تتدفق منها واردات اليقين لتعمر قلب العبد المتفكر المتدبر. إن الكون هو كتاب اللَّه المنظور، لكن القرآن هو النور الضروري الذي به نقرأ ذلك الكتاب ونتلقى إشاراته.

الرسالة السادسة: في أن التزود الروحي من موارد العبادات، وخاصة منها الصلاة، والتهجد بليل، والاستغفار، وسائر ضروب الأذكار؛ هو من أهم المغذيات الضرورية للسائرين إلى اللَّه، كما أن ذلك من الثوابت التي لا يجوز لمؤمنٍ - بله داعية إلى اللَّه - أن يَقْفَرَّ قلبُه منها، أو تجفو عنها أشواقه وأذواقه. وإن ذلك لمن أهم المؤشرات التي بها تعرف سلامة السير من عدمه. وقد كان رسول اللَّه ﷺ يحث أصحابَه على ذلك حثًّا، رجالهم ونساءهم، كبارهم وصغارهم، وكأنما هو بصدد الدعوة إلى نفير عام!

فعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ: **« يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ! جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ! جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ! »** (١).

الرسالة السابعة: في أن خدمة أهل الحاجات من خلق اللّه، ومواساتهم بالزكوات والصدقات، وإغاثة الملهوفين والفقراء والمحرومين؛ من أعظم القربات المستدرة لرحمة اللّه ومغفرته ورضاه. وفي حديث عبد اللّه بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **« الْـمُسْلِمُ أَخُو الْـمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ. وَمَنْ كَانَ فِـي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »** (٢).

وقد كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يثبتون نفقات مهما قلت على بعض أقاربهم الفقراء، وقصة أبي بكر الصديق ﷺ في ذلك مشهورة؛ إذ كان ينفق على ابن عمه مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَلِفَقْرِهِ، فلما بلغه أنه كان ممن تكلم في عائشة ﷺ في حادثة الإفك؛ غضب وقال: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي! فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا! (٣)، وبمثل ذلك كان الصِّدِّيقُ ﷺ صِدِّيقًا. فرضي اللّه عنهم أجمعين.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في بيان منهاج التحقق بمقام اليقين، إيمانًا باللّه واليوم الآخر، وكيفية التخلق بوصفه. **وإنما وسائله العملية مركزة في ثلاث طرائق، مستخلصة مما سبق، وهي:**

الأولى: إدمان التدبر لكتاب اللّه ﷻ، تدبرًا يستحضر فيه المتدبرُ أن المتكلم بهذا

---

(١) رواه الترمذي، والحاكم، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الحلية، وعبد بن حميد في مسنده. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، بينما حسنه فقط الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢ ، ٣) متفق عليه.

القرآن هو اللَّه رب العالمين. هذا أمر أساس، إذا انفلت من قلب المتدبر ضاع منه التدبر.

الثانية: التفكر في الخلق من عالم الأنفس إلى عوالم الآفاق، بما حددنا له في الرسالة الخامسة من ضابط اعتماد المنظار القرآني.

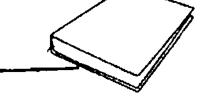
الثالثة: الاستعانة على ذلك كله بإخلاص العبادة للَّه، ومناجاته تعالى بالأدعية والأذكار، في الليل والنهار، وفي خلوات الأسحار.

ذلك، وما التوفيق إلا باللَّه. جعلني اللَّه وإياكم من أهل اليقين الراسخين.

* * *

المجلس الثاني

في مقام التلقي لتجليات اليقين
من قصص المرسلين ومَصَارِعِ الهالكين!
وما في ذلك من الحِكَمِ والعِبَرِ



١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝﴾.

٢ - البيان العام:

يعرض القرآن المجيد في هذه الآيات الكريمات ست قصص، بشكل مختصر وجيز، لكن بعبارات متينة، مكتنزة بالحكمة، تسلط أضواء خاطفة قوية، على مشاهد من تجليات العظمة الإلهية، وقدرته تعالى على العطاء والإنعام بما أراد، لمن أراد، كما أراد.

وكذا تجليات القدرة الإلهية في العقاب والانتقام من الطغاة الظالمين. وهذه القصص الست سِيقَتْ في هذه السورة؛ لبيان غَلَبَةِ اللَّه على أمره، وقدرته تعالى على خلقه، بحيث لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الكفار مهما طغوا وتجبروا فإنهم في قبضة يده، متى أراد أهلكهم ودمرهم تدميرًا! وقد جعل لذلك سُنَّةً جارية ثابتة، ليقرأها الناس ويتفقهوا فيها؛ رحمةً بهم ونذارةً لهم، سنة لها أسبابها ومقدماتها، ولها نتائجها المترتبة عنها حتمًا، ولو بعد حين. فكان تكرار ذلك واستقراره على منهج واحد، مؤديًا إلى ترسيخ أن وعد اللَّه حق يقين، لا يدخله شك ولا ريب، وأن التاريخ شاهد بذلك، إلى جانب آيات اللَّه في الأنفس والآفاق، مما تدارسناه بالمجلس السابق.

فكل هذا وذاك مفض إلى نتيجة أساس، وهي أن التكذيب باليوم الآخر وما فيه، أمرٌ مرفوض قطعًا من لدن الرحمن، مرفوض بشدة، وأن من كذَّب رسله، وعصى أمره قصمه! وأنه لا نجاة لأمة ولا لبشر إلا بالدخول تحت أمان اليقين. **ونبين ذلك بحول اللَّه فيما يلي:**

أما القصة الأولى فهي مشهد من حياة نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام، وهي قصة متداخلة مع مشهد آخر من قصة نبي اللَّه لوط عليه السلام، ولم يُذكر اسم النبي لوط هنا، وإنما ذُكر قومه المجرمون لبيان مصيرهم الشقي؛ ولذلك فقد عددناهما قصتين، لا قصة واحدة، رغم اندماجهما في سياقٍ واحد؛ وذلك لاختلاف التجلي في القصتين بين الإنعام والانتقام.

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾. فهذا الاستفهام الذي ابتُدِئت به القصة ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ بمعنى: هل بلغك؟ أو هل علمت؟ ليس المقصود منه السؤال، وإنما هو أسلوب عربي للتنبيه والتشويق لسماع القصة، وكذلك التعبير بلفظ « حديث » فيه دلالة على ما يستئنسه الناس من سماع الجديد من الكلام، وما جُبِلَتْ عليه الفطرة الإنسانية من حب

سماع الأخبار. وإنما سمي الحديث « حديثًا » في الأصل؛ لحداثة خبره، وجِدَّتِهِ على السامع، حتى ولو كانت واقعته قديمة، ثم صار كل كلام حديثًا.

ومن ثم كان التعبير بقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ... ﴿٢٤﴾ ﴾.. الآية، تنبيهًا مركَّبًا، القصد منه أن يستجمع المتلقي كافة قواه النفسية والعقلية لتتبع القصة، واستيعاب الحدث من بدايته إلى نهايته، فيحصل الفهم الأكمل، والتدبر الأعمق.

والمقصود بالضيف في الآية: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، جماعةٌ من الملائكة. والضيف لفظ يقع على المفرد والجمع سواء، وأقل الجمع ثلاثة. وقد اختلفت كتب التفسير في عددهم وأعيانهم، فقيل: إنهم ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل غير ذلك. والحق أنه لم يثبت في هذا نص من كتاب أو سنة صحيحة، يكون حجة في التحديد والتعيين. وإنما العبرة عندنا بما أجمله القرآن من أمرهم، وأنهم ملائكة من ملائكة الرحمن نزلوا في صورة بشرية على إبراهيم، فدخلوا عليه مدخل الضيف. وحلَّاهم اللَّه تعالى بوصف ﴿ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ لما حصل لهم من إكرام إبراهيم عليه السلام، وقد كان إكرامًا عظيمًا، ولما في ذلك الوصف أيضًا من الإشارة اللطيفة إلى طرافة الحدث، وعدم انتباه الخليل عليه السلام إلى طبيعتهم الملائكية، فعاملهم بما يعامل به ضيوف البشر من الإطعام والإكرام، فإذا بهم ملائكة يحملون له أخبارًا عظيمة من الخير والشر. فكانت النتيجة على غير ما توقع.

والآيات تشير إلى بعض التفاصيل في الإكرام النبوي، والخُلق الإسلامي الرفيع في الضيافة، كما أن المفسرين وقفوا كثيرًا عند اختلاف عبارة « السلام » في الآية ما بين النصب والرفع، في كُلٍّ من قول الملائكة وقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ لِمَا في ذلك من الدلالة على رد التحية بأحسن منها. وهو قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾، فقول الملائكة: « سَلَامًا » هو مصدر دال على الجملة الفعلية، كأنهم قالوا: (نُسَلِّمُ عليكَ سلامًا)، بينما قوله: « سلامٌ » هو دال على جملة اسمية تقديرها: (هذا سلامٌ عليكم). ومعروف أن الجملة الاسمية - عكس الفعلية - أدل على الثبات والاستقرار وعدم التغير، فكأنه قال لهم: سلامي عليكم هو سلام أبدي خالد. وبذلك يكون إبراهيم قد رد التحية بأحسن منها.

وأما قوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فنحن نرجح أنه حديثٌ نفسي وقع في ذهن

إبراهيم؛ إذ التصريح به في وجوههم منافٍ لأدب الاستقبال، وهو جملة غير منطوقة تقديرها: (هؤلاء قومٌ مُنْكَرُونَ)، إنه استغراب نفسي من إبراهيم كشفه القرآن؛ إمعانًا في بيان خُلق الكرم العظيم، الذي كان نبي الله الخليل يتمتع به؛ إذ أكرم قومًا بحفاوة بالغة، وهو لا يعرف منهم أحدًا، ولا حتى ما جاء بهم! ومن ثم قال: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، والتعبير بفعل « رَاغَ » لطيف عجيب؛ لأن الروغ والروغان هو الميلان في السير إلى الشيء، بحيث لا يُفهم من الرائغ قصدُه بالضبط. والمقصود هنا أن إبراهيم عليه السلام دخل على زوجته من مدخلٍ خفي، أو بطريقةٍ لا تُوحي بأنه سيأتي بطعامٍ، أو أنه سيأمر بإعداد طعام، وذلك تلافيًا لمبادرة الضيوف إلى منعه من إعداد الطعام. كما أن من كمال الإكرام مفاجأة الضيف بالمائدة جاهزة، وعدم استشارته في ذلك؛ لأن الاستشارة تحمل نوعًا من الاعتذار عن الإكرام، كقول القائل لضيفه مثلًا: هل ترغب في طعامٍ؟ أو ما تحب أن تأكل؟ فهذا وأضرابه إنما هو في الحقيقة يحمل في طياته رغبة في التهرب من قِرَى الضيف وإكرامه.

فقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، دال على أنه تحرك بخفاء، فاختار عجلًا سمينًا من حظيرته - وقد كان إبراهيم صاحب بقر كما قيل - فذبحه ثم أدخله في تنور الشواء، فلم يمض إلا وقتٌ يسير حتى كان قد وضعه مشويًّا على مائدة ضيفه! وضعه بين أيديهم حيث هم جالسون، ولم ينقلهم إلى مكان غيره، بل قَرَّبَهُ إليهم. وفي ذلك من أدب الإكرام والحفاوة بالضيف ما فيه. وقد كان التعبير بفاء العطف في سائر الجمل دالًّا على تتابع العمل وتعاقبه، لا تراخي فيه ولا بطء.

لكن المفاجأة أن الضيف لم يأكلوا! فتلطف بهم إبراهيم عليه السلام بكلمة ترحيب: ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وهو تعبير لطيف فيه من التحبيب والتقريب؛ ما يشرح صدر الضيف ويفتح شهيته؛ إذ عبر بصيغة الاستفهام الدالة - في هذا السياق - على الحض والترغيب في الأكل، دون العبارات الخشنة الجافة، التي تنبني على الأوامر الصارمة المنفرة! لكن الضيف مع ذلك لم يأكلوا، وهنا ارتاع قلب إبراهيم عليه السلام، وداخَلَه الخوف؛ لأن العادة أن إمساك الإنسان عن طعامِ شخصٍ ما، لا يكون إلا لشر يريده الممتنع عن الطعام. وقد عبر تعالى عن هذا الموقف نفسه في سورة هود بقوله سبحانه:

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠].

وقال هنا في الذاريات: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾. وهذا من أروع المفاجآت! فأن يتحول حال الإنسان في لحظةٍ واحدةٍ، من الخوف والتوجس وتوقع الشر، مباشرة إلى فرحٍ كبيرٍ، وأمن عظيم، وسلام مكين؛ حيث يكتشف إبراهيم حقيقة الضيف، وأنما هم ملائكة الرحمن، ويتلقى منهم - فوق ذلك - خبرًا سارًّا يهمه في حياته الخاصة، بشرى غلام عليم يكون له من زوجه العجوز العقيم؛ فإن ذلك كله مما لا تطيقه خفقات القلب فرحًا!

والجميل في التعبير أنه بمجرد ما داخل إبراهيمَ الخوفُ، وظهرت علاماته على وجهه؛ بادر الملائكةُ إلى طمأنته، وطرد الشعور بالخوف من فؤاده؛ بالكشف عن هويتهم الملائكية الكريمة، وتعزيزها بإلقاء بُشْرَى الولد، بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم. فالرسول آمِنٌ عند ربه، وما كان ليروعه شيءٌ ولا أحدٌ أبدًا! وإنما كان خوف إبراهيم عليه السلام توجسًا، أي شعورًا خفيًّا، فقوله: ﴿ وَأَوْجَسَ ﴾ من الوَجْسِ، وهو: إضمار الشعور بالخوف في النفس [1]. ومع ذلك سارعت الملائكة إلى طرد ذلك الخاطر من قلبه، وتمكين وجدانه من رَوْحِ الأمن والسلام.

وأما الغلام العليم المبشَّر به ههنا، فقد كان نبيَّ الله إسحاق عليه السلام. والنبوة رأس العلم وقمته. وإسحاق هو المصرح به في سورة هود، قال تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]. والمرأة المذكورة هي سارة زوج إبراهيم، وكانت امرأة عقيمًا منذ شبابها الأول، وبقيت مع إبراهيم حتى شاخا ولم تنجب له شيئًا، مع أنه هو عليه السلام أنجب من هاجر سَرِيَّتِهِ ولدَه إسماعيلَ عليه السلام، الذي وُلِدَ له قبل إسحاق، ولذلك لما سمعت سَارَةُ البشرى من الملائكة بهتتها المفاجأة، فصرختْ بِرَنَّةٍ، ولطمت وجهها تعجبًا! فالصَّرَّةُ: الصيحة، من الصرير، وهو الصياح. والصَّكُّ: اللطم والصفع. وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ

---

(١) جاء في الصحاح: (الوَجْسُ: الصوتُ الخفِيُّ. والوَجْسُ أيضًا: فزعةُ القلب. والواجِسُ: الهاجسُ. وأوْجَسَ في نفسه خيفةً، أي أضمر، وكذلك التَوَجُّسُ. والتوجُّسُ أيضًا: التسمُّع إلى الصوت الخفيِّ) مادة: « وجس ».

عَقِيمٌ ۝٢٩﴾! وقد ورد أنها قالت في صرتها أو صيحتها: « يَا وَيْلَتَي! » [١]، جاء ذلك في قوله تعالى من سورة هود: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]. كل ذلك تصرفات نسوية، وردود أفعال أنثوية، تقع منهن كلما فزعن أو تلقين خبرًا غريبًا. وقد سجلها القرآن هنا بدقة، وبين أنها أمور من عادات النساء منذ الزمان القديم.

وجاء جواب الملائكة الكرام قاطعًا لتعجب سارة واستغرابها للبُشْرَى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾، أي: كذلك قضى ربك. فقول الله هنا قضاؤه وقدره. وإذا كان الله ﷻ هو الذي قضى الأمر وقدَّره؛ انتفى التعجب والاستغراب؛ لأنه سبحانه هو رب العالم، الذي يُخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: « كن فيكون »! لا عبرة عنده بسُنة جارية، ولا عادة ثابتة، ولا قانون مطرد؛ لأنه هو تعالى خالق السنن والطبائع والقوانين الكونية جميعًا، إذا شاء أعملها وإذا شاء خرقها وأهملها.

وهو سبحانه الْحَكِيمُ في كل ما قضى وقدَّر، الْعَلِيمُ بما لقضائه من منافع ومصالح في معاش الناس ومعادهم. وقد قضى سبحانه أن يكون إسحاق نبيًّا يرث من إبراهيم دعوة التوحيد في بلاد الشام، ثم يورثها لابنه يعقوب عليه السلام، فيتناقلها أنبياء بني إسرائيل إلى عهد عيسى عليه السلام. كما ورث إسماعيل النبوة من أبيه إبراهيم في أرض الحجاز، وبث دعوة التوحيد في عرب الجزيرة، واستمرت زمنًا، حتى حرَّفها المشركون، فبعث الله من نسله محمدَ بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، بتجديد دين إبراهيم عليه السلام ورسولًا إلى كل العالمين، إلى يوم الدين.

تلك كانت القصة الأولى من قصص هذا المقطع القرآني الكريم، وقد انبنت على سياقها قصةٌ أخرى، هي تتمة لما جاء به ضيف إبراهيم من أخبار وأقدار. وذلك أنه لما سكن روع إبراهيم وانشرح للبشرى، علم أن نزول هؤلاء الملائكة بذواتهم إلى الأرض، مرسلين من رب العزة؛ لا يكون إلا لأمرٍ عظيم! فتوجه إليهم بالسؤال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾؟ ما شأنكم؟ ماذا تريدون؟ وفيم أرسلتم؟ والخَطْبُ: الحدث الجلل،

---

(١) أصل النداء بالويل في العربية: الدعاء بالشر والهلاك، ولكنه قد يرد بمعنى التعجب والاستغراب الشديد، كما هو هنا. ن. مادة « ويل » في لسان العرب.

والأمر العظيم. فكأنه قال: ما المهمة الكبيرة التي أُرسلتم بها، وقَدِمْتُم لأجلها من السماء إلى الأرض؟ فكان الجواب الرهيب حقًّا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾! والقوم المجرمون هنا هم قوم لوط كما هو معروف، وبه صرحت الآية في سورة هود: ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠].

وجريمة قوم لوط جريمة قذرة مشهورة، منصوصة في كتاب اللَّه، في غير ما آية وسورة. فقد كانوا مكذبين بنبي اللَّه لوط عليه السلام أولًا، ثم كانوا يمارسون أقذر الفواحش من الشذوذ الجنسي. قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١]. وقوم لوط هم أول من ابتدع هذا المنكر الشنيع، في التاريخ البشري، كما نصت عليه الآية؛ فاستحقوا بذلك قطع دابرهم إلى الأبد. وهو المقصود بقوله ههنا في الذاريات: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾! ومعنى كونهم مسرفين: أنهم تجاوزوا حدود الفطرة الإنسانية، وبالغوا في تعاطي الفاحشة بما يخالف حتى الطبيعة الشهوانية الحيوانية للإنسان!

فكان أن رجمت الملائكةُ قوم لوط بالحجارة، رجمًا رهيبًا، تمامًا كما ترجم الشياطين! وكانت الحجارة المستعملة للرجم من طين ناري متحجر، قد يكون من بركان متفجر، وقد يكون من حجارة جهنم نفسها والعياذ باللَّه. ولا شيء يستحيل في ذلك على اللَّه. ومعنى كونها مُسَوَّمَةً أي: مُعَلَّمَةً ومُرَقَّمَةً، ذات علامات وأختام وأرقام. وقد قيل: كل حجر منها كُتِبَ عليه اسم المجرم الذي يستحقه، والذي به سيكون فَلْقُهُ وهلاكه! (١)، وذلك كله بما أسرفوا في الكفر والخبائث، وفي التمرد على اللَّه، والاستهزاء برسوله واستضعافه، والنقض الشيطاني لما وضع اللَّه في الفطرة الإنسانية من السنن. ذلك إسرافهم الذي به كانوا من الهالكين!

وأذكر هنا أنني رأيت شريطًا وثائقيًا تقشعر منه الأبدان! وهو عبارة عن عرض لحفريات عميقة، في بعض المناطق القديمة في التاريخ البشري، كان قد دمرها بركان

---

(١) ن. تفسيري ابن كثير والشوكاني للآية.

حسب الشريط، وكانت الحفريات تكشف التراب والصخور عن أجساد بشرية متحجرة، ممن هلك بالرجم البركاني والتدفق الحممي قبل آلاف القرون، وإن مشاهدهم لعجيبة رهيبة، فمنهم من هو ثاوٍ على ركبتيه، ومنهم من هو منكوس على رأسه، ومنهم من هو جالس في مكان كان هو سوقهم، حيث فاجأه الرجم فهلك هناك، ومنهم من كان في حمام أو بيت.. إلخ. ولا تزال أحداث الكوارث العقابية والانتقامية تنزل بالناس، هنا وهناك، في كل سنة تقريبًا، والعياذ بالله (١). ولكن الجهلة بالله يفسرونه تفسيرات مادية عمياء، بينما المؤمنون لا يرون مثل ذلك إلا تجليًا من تجليات عذاب الله، فيزيدهم إيمانًا ويقينًا في الله.

وقد نَجَّى الله برحمته نبيه لوطًا عليه السلام وبنتيه المؤمنتين، ولم يكن قد آمن له سواهما، حتى زوجته كانت مع المجرمين! قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾. أي: فأخرجنا من المدينة ليلًا من كان فيها من المؤمنين، وهذا العموم فيه فائدة تشير إلى أنه لو كان آمن آخرون غير بنتيه لأنجاهم الله، كما أنجى من آمن مع نوح من قبل، ولكن لم يكن من المؤمنين في تلك المدينة المشؤومة سوى أسرة واحدة، هي أسرة النبي لوط نفسه عليه السلام، بل لقد خانتهم زوجته فأهلكها الله مع الهالكين. وهو قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٣].

والتعبير بالإيمان والإسلام كليهما في سياق واحد يدل على اختلافهما وتكاملهما، كما هو وارد في حديث جبريل وغيره من النصوص. فقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾، أي فأنجينا من كان في القرية من المؤمنين الصادقين المخلصين؛

---

(١) ولقد شاهدنا في العصر الحديث مأساة « آرمرو » المدينة الكولومبية المنكوبة، التي اجتاحها الطين البركاني، في الثالث عشر من شهر نوفمبر من عام (١٩٨٥م)، فأتى على الأخضر واليابس، وحصد آلاف الأرواح! كما شهد العالم كله في بداية القرن الميلادي الحالي، طوفان « تسونامي » الرهيب، ذلك الزلزال الخسفي الكبير الذي ضرب عمق المحيط الهندي، في السادس والعشرين من ديسمبر، سنة (٢٠٠٤م)، فارتدت عنه أمواج عملاقة عاتية، محملة بحمم نارية حارقة، انقضت على مدن شاطئية عديدة، لنحو إحدى عشرة دولة، من دول جنوب شرق آسيا، فدمرت العمران والبنيان، والفنادق والملاهي، وحصدت عشرات الآلاف من الأرواح، من السكان الأصليين، ومن السياح الذين نزلوا هناك يحتفلون برأس السنة الميلادي! ومثل هذا وذاك كثير، كما هو معروف، والعياذ بالله.

لأن الإيمان هنا هو سلامة الاعتقاد، وهو مستلزم للعمل الصالح بلا ريب، لكن التركيز المفهومي فيه على الإخلاص، وهو سبب النجاة. وأما قوله تعالى: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، أي الذي أسلموا على الإجمال. وقد يُسْلِمُ المرءُ ظاهرًا ولا يُسلم قلبه، كحال المنافق، وفي ذلك إشارة إلى امرأة لوط، فقد كانت تظهر موالاتها لزوجها علنًا، لكنها كانت تمالئ المجرمين وتساندهم سِرًّا. ولذلك صرح بالنجاة هنا في حق المؤمنين فقط، دون عموم المسلمين.

قال العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله: (والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تُظهر الانقياد لزوجها، وتضمر الكفر وممالأة أهل القرية على فسادهم (...) فَبَيْتُ لوطٍ كان كله من المسلمين، ولم يكن كله من المؤمنين؛ فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معًا) [1]؛ لأن الإيمان مستلزم للإسلام. بينما الإسلام الظاهر لا يستلزم الإيمان. كما قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولا خلاف في أن الإيمان والإسلام، إذا ذُكِرَ كل واحد منهما في سياق منفرد؛ كان أحدهما بمعنى الآخر، وهو كثير في الكتاب والسنة.

وقد بقيت مَهْلَكَةُ قوم لوط في مدينة سَدُومَ، آيةً من آيات الله في التاريخ البشري. قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾؛ أي تركنا هذه المدينة وقصتها الرهيبة عبرة، وآية من سنن العقاب الإلهي، يقرؤها كل من سمع بها أو مَرَّ بها من المؤمنين بالله واليوم الآخر. وهي منطقة ما تزال خرابًا إلى اليوم، في الطريق ما بين الشام والحجاز. وقد كانت قوافل العرب قديمًا تمر بها في رحلاتها التجارية، كما نص عليه القرآن في سورة الفرقان بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠]. وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

فتلك هي سدوم مدينة المجرمين، دمرها الجبار جل جلاله، وقطع دابر مجرميها إلى يوم القيامة. وإن المؤمنين ليرتاعون لخبرها، ويتعظون بمنظرها، وتقشعر أبدانهم لآثارها

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

البئيسة؛ لأنهم يبصرون فيها أثرًا من آثار العزة الإلهية المكينة، ومظهرًا من مظاهر الجبروت الرباني العظيم، ولمحة من لمحات عذاب اللَّه الأليم، فيزيدهم ذلك خوفًا ورهبًا، ويزيدهم إيمانًا ويقينًا. وما الآية إلا علامة توجه السالك في الطريق إلى اللَّه، وتزيده معرفة باللَّه.

وأما القصة الثالثة فهي لمحة خاطفة من قصة موسى العظيمة، عليه الصلاة والسلام، لكنها لمحة كافية لبيان الغرض والقصد، وهو بيان قدرة اللَّه على خلقه، وهيمنته على ملكه، وأن لا نجاة إلا بالدخول طوعًا تحت أمره. قال تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ۝٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝٤٠ ﴾. بمعنى: ولكم في موسى آية أخرى؛ إذ أرسلناه إلى فرعون ببرهانٍ عظيم، ومعجزات قاهرة باهرة، لكن عدو اللَّه فرعون تولى وأعرض عن الحق عُلُوًّا واستكبارًا! واستند إلى ركنه؛ أي إلى قوة سلطانه، من جيشه وملئه المحيط به. ثم رمى موسى ودعوتَه بسهام الاتهام والتشويه الإعلامي، وقال: ساحر أو مجنون. والسحر صفة تنزع عن صاحبها قدسية الحق، وتصنفه مع أهل الدجل وقلب الحقائق. بينما الجنون نزع لصفة العقل والإرادة الواعية، ونفي للفهم السليم للأشياء مطلقًا.

فكانت النتيجة أن الجبار ﷻ أخذه وجنوده فنبذهم في اليم! والتعبير بالأخذ يدل على معنى العقاب والانتقام كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]. وهو تعبير دال على التمكن من العقاب، والإحاطة القوية الشديدة بالعدو؛ ولذلك عبر بعدُ بقوله تعالى: ﴿ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝٤٠ ﴾! والنبذ: الإلقاء، والرمي، والتطويح بالشيء، فقد أخذ اللَّه فرعون وجنده فرمى بهم في البحر كما تُرْمَى الحصاة! وقوله: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ جملة حالية يعود ضميرها على الطاغية فرعون، بمعنى أنه كان عند إغراقه وجنوده متلبسًا بما يلام عليه من الجرائم والطغيان.

واللمحة القصصية الرابعة قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ ﴾. **وعادٌ قبيلة من العرب البائدة،** وهم قوم نبي الله هود عليه السلام، كانوا على الوثنية والشرك، وكانوا قومًا طغاة جبارين، فجاءهم رسولهم بالتوحيد والدين الخالص، فكذبوه وسخروا منه، فأهلكهم اللَّه بريح عقيم،

وهي الإعصار الشديد، الذي لا يُرجى له نتاج خيرٍ، من ري أو لقاح، بل هي ريح مدمرة، تحطم كل شيء، لا تمر على شيء إلا جعلته كالرميم، أي جعلته فتاتًا متناثرًا، أو حطامًا هشًّا، كالغثاء المتناثر هنا وهناك. فالرميم في لغة العرب هو: ما يَبِسَ وجَفَّ من النبات وأغصان الشجر، وبَلِيَ حتى صار هَشًّا فارغًا منخورًا، لا يصلح لشيء، ويفسره قوله تعالى في حق عاد بسورة الحاقة: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]. وقد ذكر المفسرون أن الريح الشديدة كانت تحمل الناس في الهواء فتضربهم على جماجمهم في الأرض، وتحطم عليهم منازلهم، وتصدمهم بالصخور، فلم تزل عليهم كذلك ثمانية أيام؛ حتى جعلتهم وديارهم كما وصف الله ﷻ كالرميم البالي (١). وهذا الصنف من العذاب مُشَاهَدٌ اليوم في زماننا هذا، في الإعصارات الرهيبة التي تضرب بعض الأقطار بأمر ربها، فتدمر كل شيء، الإنسان، والبنيان، والشجر، والدواب، جميعًا، فلا ترحل حتى تخلف وراءها آلاف القتلى والمشردين، والعياذ بالله. وقد رُئِيَتْ بعضُ اللقطات المصورة منها، لسيارات ضخمة، تحطمها الريح كما تحطم البيضة!

واللمحة القصصية الخامسة هي في ثمود، قوم نبي الله صالح صاحب الناقة عليه السلام، وهم أيضًا من العرب البائدة الهالكة، كانوا أهل شرك وأوثان. وقد كانوا قريبي عهد من قبيلة عاد، لكنهم لم يتعظوا بمصرعهم ولم يعتبروا! فعقروا ناقة نبيهم التي جعلها الله لهم آية ومعجزة، وكذبوه وحاصروه؛ فأهلكهم الجبار ﷻ بصاعقة خارقة، زلزلت أعصابهم وأبدانهم حتى قتلتهم جميعًا! ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥ ﴾. وقد ضرب لهم نبيهم صالح موعدًا لهلاكهم، يحل بعد ثلاثة أيام من عقرهم الناقة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ... ۝٤٤ ﴾، أي: فاستكبروا على ربهم، وطغوا على رسوله، وسخروا من وعيده وكذبوه! ويفسره قوله تعالى من سورة هود: ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، ومع شروق اليوم الرابع نزلت بهم صاعقة غريبة من السماء، صاعقة ذات صيحة شديدة، لا تطيقها الأسماع ولا الأعصاب

---

(١) تفسير ابن كثير للآية.

البشرية، فلم تزل تصرخ بهم، وهم ينظرون إلى أجسادهم تتمزق من هولها، منبطحين على الأرض، فما استطاعوا من قيام؛ بسبب قوة الصراخ الشديد المستمر، ولا استطاعوا فرارًا من بأسه، وما كانوا منتصرين على أمر اللَّه، ولا ناجين من عذابه! ولم تزل تلك الصاعقة الرهيبة تدوي بهم؛ حتى جعلتهم هلكى خامدين!

ثم قال تعالى في اللمحة القصصية السادسة والأخيرة: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾. **أي: وقد أهلكنا قومَ نوح قبل إهلاك هذه الأمم المذكورة.** فقومُ نوح أسبق في الزمان من كل الأمم، ونوح عليه السلام كان أول الرسل إلى الناس [1]. وكان مهلك قومه بما عُلِمَ في كتاب اللَّه من قصة الطوفان العام. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، بمعنى: إنهم كانوا منحرفين عن الحق؛ بشركهم وطغيانهم، فكانوا أول من جرت عليهم سُنة الانتقام الإلهي، بالهلاك العام.

وخلاصة هذه القصص الست، أنها سيقت - في هذه السورة - لبيان صدق وعد اللَّه باليوم الآخر يقينًا، وقدرته تعالى على خرق عوائد الطبيعة بشتى أشكالها، فهو سبحانه خالقها، وهو يفعل بها ما يريد، كما يريد، ومتى يريد. وأن كل من خالف أمره وطغى وتجبر بغير الحق؛ فإن سنته جرت بالانتقام الشديد. واطرادُ السنة وثباتها يُنتج في قلوب المبصرين إيمانًا بها على مقام اليقين، تمامًا كما نؤمن بقانون الجاذبية، ونعلم يقينًا أن من ألقى بنفسه من على جبل عالٍ؛ تحطمت جمجمته وأضلاعه. نسأل اللَّه الهدى والثبات، ونسأله تعالى العافية والنجاة، في الحياة الدنيا وبعد الممات.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في ثمان رسالات، نفصلها على النحو التالي:

الرسالة الأولى: في أن إكرام الضيف ماديًا ومعنويًا، بالإيواء وبذل الطعام وإلانة الكلام، من أهم أخلاق الإسلام، ومن أرفع أصوله الاجتماعية والسلوكية. وتعتبر الضيافة في الإسلام حقًّا على كل مسلم، لها قواعدها وشروطها وآدابها؛ وذلك لما لها

---

(١) جاء في حديث الشفاعة المتفق عليه: « فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ »، وفيه دليل على أن آدم عليه السلام إنما كان نبيًا. وقد استمر الإيمان والتوحيد في الأرض، بعد عهده عشرة قرون، ثم انحرف الناس إلى الشرك وعبادة الأوثان، فبعث اللَّه لهم نوحًا عليه السلام رسولًا، فكان أول رسول في التاريخ البشري.

من أثر بليغ في تمتين الروابط الاجتماعية، وتعميق مشاعر الأخوة بين المسلمين. وقد ثبت في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، منها ما في الصحيحين عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ!** » قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ. وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ. وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ!** » [١]، وفي وصية النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو ﷺ قال: « **وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا!** » [٢]، والزَّوْرُ: الضيف.

وهذه الأخلاق النبيلة مفقودة في المجتمعات الغربية النصرانية اليوم، وإنك لترى النسيج الاجتماعي عندهم متلاشيًا هشًّا، لا تسنده العواطف الصادقة ولا المحبة الخالصة، وإنما هو محمي بقوانين قاسية بئيسة، لا تغني عن مشاعر الأخوة شيئًا على الإطلاق. ومن ثم وجب على الدعاة المسلمين الانتباه لهذا، وتجديد خُلق الضيافة والإطعام في بيئاتهم؛ لأن ذلك أدعى لرعاية حقوق الله وحقوق عباده في الأمة.

الرسالة الثانية: في أن السلام هو تحية الإسلام، وإفشاؤه واجب بالكل على المسلمين، بمعنى أنه مندوب للفرد، لكن حصوله على الإجمال في الأمة واجب، ولا يجوزه فقدانه على الإطلاق، كما نشاهده في المدن الصناعية الكبيرة في البلاد الإسلامية! فهذه آفة خطيرة يجب القضاء عليها بإفشاء السلام، لا بد من تربية دعوية عامة، تذكر الناس بهذا الواجب العظيم.

إن تحية السلام التي هي تحية أهل الجنة، وتحية الملائكة، بنص القرآن، لها أثر عظيم في شرح القلوب، وتطهيرها من ضغائن الكراهية والغضب، وخاصة مما يوتر الأعصاب في زماننا هذا، من العلاقات الاجتماعية؛ بسبب طبيعة الأعمال المعاصرة، ذات الضغط الشديد، والسرعة المفتونة، والسباق المجنون.

وإن النبي ﷺ قد جعل السلام جسرًا رحمانيًا للعبور إلى القلوب، واكتساب محبتها، وذلك أدعى لقضاء المصالح المتبادلة بين المسلمين بأمان ووئام، وأدعى لفعل الخير، وعدم التشنج، وإكرام الآخرين؛ بما يزكي النفس المؤمنة، ويرقيها عند الله في

(١، ٢) متفق عليه.

درجات الجنة! ومن أجمع النصوص في هذا ما رواه أبو هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ: « **لَا تَدْخُلُونَ الْـجَنَّـةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ** »[١] نعم، بكل هذه البساطة: أفشوا السلام! لأن « السلام » اسم من أسماء اللَّه الحسنى، وإفشاء التحية به في كل مكان كفيلٌ بنشر مشاعر السلام بين الناس، وتحقيق سعادة الأمن والأمان في المحيط الاجتماعي، فتتقوى بذلك روابط الأخوة في الدين، ووشائج المحبة في اللَّه.

ولعل نشوء ظاهرة انعدام السلام بين المسلمين في المدن الكبرى، راجع إلى كثرة الناس وقلة المعارف بينهم. وهذا سبب غير مشروع؛ لأن السلام حقٌّ لكل مسلم، سواء عرفته أم لم تعرفه، وذلك بنص الحديث الصحيح، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: « **تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ** »[٢].

وكما ترى من نص هذا الحديث، فإن السلام فيه معنى الإكرام؛ لارتباطه في السياق بإطعام الطعام، كما أنه عبادة كالصيام والقيام، فأجره عند اللَّه جارٍ على ذلك الوِزَانِ، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيرة، نختار منها حديثَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَلَامٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « **أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ!** »[٣].

وقد بالغ النبي ﷺ في الحض على السلام، حتى جعله مطلوبًا بين المسلمين كلما التقوا من جديد، بعد لقاء سابق قريب، حتى ولو لم يكن الفارق بين لقائهم السابق واللاحق سوى بضعة ثوانٍ! فانظر إلى هذا الحديث العجيب حقًّا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ

---

(١) رواه مسلم. (٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم. وصححه الترمذي، وقال الحاكم: « صحيح على شرط الشيخين »، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة: « وهو كما قالا ». كما صححه في صحيح الجامع، وفي تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه، وكذا في صحيح الترغيب. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: « رجاله ثقات رجال الشيخين ».

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَيْضًا!** »[١]، وقد ثبت أن الصحابة الكرام كانوا يعملون بمقتضى هذا الحديث بصورة تامة، ففي حديث أنس بن مالك ﷺ قال: (إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يكونون [في سفر أو نحوه] فتستقبلهم الشجرة، فتنطلق طائفة منهم عن يمينها وطائفة عن شمالها، فإذا التقوا سلم بعضهم على بعض)[٢].

فإذا عُلِمَ ذلك عُلِمَ ما لقيمة تحية السلام في الإسلام، وأنها ليست مما يجوز التهاون فيه. ولعل كلمة واحدة ينطق بها المؤمن؛ ينال بها من الدرجات العلى، ما قد لا يخطر له على بالٍ! أما الآثار النفسية والاجتماعية للسلام فهي أعمق بكثير مما يتصور، بل إنها في حاجة إلى دراسة اجتماعية ونفسية، وبحث ميداني؛ لنكتشف مدى عمق كلمة السلام في بناء النسيج الاجتماعي في الإسلام وتمتينه وتحصينه.

الرسالة الثالثة: في أن العطاء الإلهي غير مقيد بسُنة كونية، ولا مرتهن بقانون طبيعي، وأنه تعالى قادر على أن يهب الولد للعقيم، ولو بعد سن اليأس، فيخلق في رحمها جنينًا، بما يخرق كل القوانين البيولوجية والطبيعية. فهو اللَّه الملك الوهاب، سبحانه. وما السنن الكونية والقوانين الطبيعية إلا سُتُرٌ وحُجُبٌ خلقها اللَّه تعالى؛ ليخفي من ورائها قدرته العظيمة، ومشيئته المكينة؛ ابتلاءً للناس وامتحانًا لهم. ولو شاء - سبحانه - لجعل السماء تمطر من غير غيم، ولا برق، ولا رعود. فلا حد لقدرته، ولا مانع على الإطلاق لتصرف مشيئته.

أما بالنسبة لنا معشر بني آدم، فالأخذ بالسنن والأسباب الطبيعية واجب؛ لأنها خُلقت لنا، كي نعبد اللَّه بها، ونتعرف إليه بمدارجها ومعارجها. وإنما لا يجوز أن تصبح الأسباب والسنن حُجبًا تمنع المؤمن من إبصار جلال الربوبية وجمالها، ومشاهدة تصرف المشيئة وسلطانها. فلو وقع الإنسان في ذلك لكان معناه أنه خسر الامتحان، وصار عبدًا للأسباب، أعمى البصيرة.

وعليه؛ فإن المؤمن العارف باللَّه حقًّا لا يزال يسأل اللَّه من فضله، ويطلب منه

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه. وصححه الألباني في تحقيق سننيهما، وفي صحيح الجامع والسلسلة الصحيحة.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الأوسط، وابن السني في عمل اليوم والليلة. وصححه الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (٣١٢/١).

حاجته، ولو كانت السنن الطبيعية كلها تعبر عن استحالة الوقوع، لكن المؤمن الحق لا ينقطع عن الدعاء، ولا يدخله اليأس أبدًا؛ لأنه يؤمن أن اللَّه لا يعجزه شيء! ولو أنه انقطع ويئس لكان ذلك معناه: أنه اتهم اللَّه - سبحانه - بالعجز والعياذ باللَّه! ولقد شاهدنا غير ما مرة، في أنفسنا وفيما حولنا، ما قرره القرآن في أكثر من آية، أن الرب الكريم - سبحانه - يجيب دعاء عبده، ولو كانت السنن كلها في حق ذلك العبد سلبية مانعة! وإن ذلك لهو معنى الابتلاء! وتدبر قول رسول اللَّه ﷺ في مناجاته الخاشعة: « **أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ - وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ - اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ** »[1]، والْجَـدُّ: الحظ والجاه. فما شاء سبحانه كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا عبرة بقانون ولا سُنَّةٍ. فمن عرف اللَّه بهذا فقد عرفه حقًّا. ذلك امتحان، وإنما ينجح فيه أهل اليقين في اللَّه. جعلني اللَّه وإياكم منهم.

الرسالة الرابعة: في أن حقيقة البُشْرَى بالولد ذكرًا كان أم أنثى؛ إنما هي كونه عبدًا صالحا، عليمًا بحقوق اللَّه وحقوق عباده، عاملًا على ذلك. وإلا كان شَرًّا على نفسه، وبلاءً على والديه، وفتنةً للناس، والعياذ باللَّه! فانظر إلى الفرق الكبير - في كتاب اللَّه - بين هذين النموذجين من الولد، فالنموذج الأول قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٢ - ١٥]، وأما النموذج الثاني: فهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٧].

---

(١) جزء حديث رواه مسلم، ونصه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ. أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ - وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ - اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ! » وقد كان النبي ﷺ يقول مثل ذلك دُبُرَ كُلِّ صلاة، ففي الصحيحين عن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ! » متفق عليه.

ولقد شاهدنا فيما حولنا من الناس من يتمنى لو كان عقيمًا، ولو لم يكن له ولد على الإطلاق؛ بسبب ما صار يكابد من العنت الكبير والشر المبير، في ترويض أولاده، وهم مع كل ما يبذله من جهود لا يزدادون إلا طغيانًا وفجورًا! ولقد رأينا في بعض أهل الثراء، من ألقوا أباهم - لما حضرته الوفاة - على سرير منسي في بعض المستشفيات، وهم يستعجلون موته للاستحواذ على التركة!

ولقد شاهدنا أيضًا أن الولد الصالح هو من أعظم النعم الإلهية فعلًا، ومن أعظم الكرامات التي ينالها العبد من ربه. فمن طلب الولد مجردًا من هذا المعنى العظيم؛ فقد طلب لنفسه شَرًّا كبيرًا. وهذه حقيقة يغفل عنها كثير من الناس؛ بسبب طغيان شهوة المال والولد.

الرسالة الخامسة: في أن وجود المؤمنين - ولو قل عددهم - في بيئة ما؛ يرفع عنها عذاب الله بإذن الله، ما داموا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وقد تواترت النصوص بذلك. كما تضافرت الآيات في أنه ما من عقاب ينزل بالطغاة إلا ويكون أهل الإيمان الـخُلَّصُ بمنجاة منه؛ رحمةً من الله وفضلًا. وهو أمر مُطَّرِدٌ مشهور، منذ حدَثِ الطوفان في عهد نوح، وإغراق الكفرة من قومه إلا أهلَ السفينة. وقد قال تعالى في حق هود عليه السلام ومن آمن به: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]، وكذلك الأمر جرى مع مؤمني بني إسرائيل عند إغراق فرعون وجنوده. ثم قال عن أصحاب السبت من بني إسرائيل: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وقد نص القرآن في غير ما موطن على أنها قاعدة مطردة في المؤمنين بإطلاق، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

ولا ينقض ذلك حديثُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ** » - وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ: الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا؟ - قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: « **نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ!** » [١]؛ لأن الهلاك هنا إنما يقتصر على الصلاح السلبي، وهو الذي لا يأمر صاحبه بمعروف ولا ينهى عن منكر، فهو صالح في نفسه وليس بمصلح لغيره. وأما الصلاح الإيجابي فصاحبه آمِنٌ بإذن اللَّه، وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدل عليه ما رواه حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ!** » [٢]، وآية سورة هود - قبل ذلك - نص في اطراد نجاة أهل الإصلاح مطلقًا، وهي قاضية على كل ما خالفها، تُقيده وتخصصه. أعني قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

وقد قال اللَّه تعالى في حق كفار قريش قبل الفتح: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥]. فمنع اللَّه - سبحانه - العذابَ عن كفار قريش؛ بسبب أن بينهم مؤمنين مستضعفين مستخفين بإيمانهم. قال الإمام الطبري رحمه الله: (وقوله: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة، من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم؛ ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يقول: لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل) [٣]، واللَّه جل جلاله قدير على تمييزهم عند العقاب لو شاء، ولكنه عَلِمَ

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي في الشعب. وحسنه الألباني في تحقيق سنن الترمذي، وفي صحيح الجامع، وصحيح الترغيب.

(٣) من تفسير الطبري للآية.

سبحانه ما سَبَقَ في قدَره، من أن كثيرًا من الكفار هنالك سوف يسلمون بعد حين؛ فأرجأهم ليؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، ووهب لهم النجاة برحمته. وقد أهلك طواغيت الكفر منهم في غزوة بدر وغيرها. والآية - على كل حال - شاهد قوي على أن للمؤمن حرمةً عظيمة عند الله ﷻ، يحفظه من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وأما تعرض الدعاة للتعذيب والتقتيل، في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه لا يعتبر عذابًا ولا عقابًا، كلَّا وحاشا! وإنما هو تكريم لهم من الرحمن وتشريف، ورفع لدرجاتهم عند الله ﷻ. وإنما المنفي عنهم أن يعمَّهم الله بعذاب منه، مما يسلطه على الكفار من الهلاك العام، في الدنيا قبل الآخرة، من مثل ما وقع لعاد وثمود وغيرهما. فأما هذا فقد كتب الله لهم النجاة منه. كما قررناه بشواهده.

الرسالة السادسة: في أن خلو مدينة، أو دولة، من الدعاة إلى الخير - مهما قلوا - الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حقيقةً، على مقتضى مقام الإخلاص، والتجرد الكامل لله، وعلى ميزان قواعد الشرع وحِكَمِهِ؛ يعني أنها مدينةٌ أو دولةٌ معرضة لعذاب الله وانتقامه الشديد، نسأله تعالى العفو والعافية. ونصوصُ الرسالة السابقة كلها دالة على هذا. ويكفي أن نعيد التدبر لقول النبي ﷺ فيما ذكرناه: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْـمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ!** » [١].

الرسالة السابعة: في أن جميع ما نراه اليوم مما يسمونه بـ « الكوارث الطبيعية »، إنما هو استمرار لسنة الله الجارية، في الانتقام من أهل الفسق والفجور، والظلم والطغيان، المتمردين على شريعة الله! وأنه لا قوة مدمرة من ذلك، إلا ووراءها طائفة من ملائكة الرحمن، تسلط العذاب على من شاء الله من أعدائه، سواء كانت تلك القوة إعصارًا، أو زلزالًا، أو خسفًا، أو بركانًا متفجرًا، أو بحرًا غاضبًا، أو عاصفة مدمرة، أو صاعقة قاتلة، أو حريقًا زاحفًا مستعصيًا عن الإطفاء... إلى غير ذلك مما نشاهده كل سنة من حوادث العالم.

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي في الشعب. وحسنه الألباني في تحقيق سنن الترمذي، وفي صحيح الجامع، وصحيح الترغيب.

ذلك أن سنة العقاب الإلهي لم تنقطع قط، فمنذ أن نزلت بقوم نوح في التاريخ القديم، وهي مستمرة في الأرض، تقع على أهلها في صور مختلفة، وأماكن مختلفة، وأنها ستبقى ثابتة حتى تقوم بها الساعة على شرار الخلق. ففي كل حين تصيب طرفًا من الناس، في رقعة من الأرض؛ لتجدد النذارة بيوم الدين، وأنه حق يقين، وتطرق بقوة على قلوب الفاسقين والغافلين، أن: فروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين! قال تعالى بما يدل على الثبات والاستمرار: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١]. وكفى بهذا دليلًا على ما أصّلناه.

الرسالة الثامنة: في أن الأدب عند مشاهدة شيء من الكوارث والنوائب ولو كان يسيرًا؛ أن يجأر المؤمن إلى ربه بالدعاء والاستغفار. وقد كان رسول الله ﷺ إذا هبت العاصفةُ كَرِبَ لذلك وارْبَدَّ وجهُه، فلا يستبشر حتى تمطر أو تفتر. فعن أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قالَ: (كَانَتْ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ إِذَا هَبَّتْ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ!)[١]، وَأوضحُ منه حَدِيثُ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا؛ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ فَقَالَ: « **يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا:** ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤] »)[٢].

كما أنه ﷺ كان كلما مَرَّ في سفره بآثار الأمم الهالكة من عذاب الله؛ وَجِلَ قلبُه لذلك واهتز رهبًا، ووعظ أصحابه مذكرًا إياهم بأيام الله، والتخويف من عذابه الأليم، حاثًّا إياهم على التفكر في مَصارع القوم؛ بما يستوجب البكاء والاعتبار. فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: (لَـمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحِجْرِ [ديار ثمود، وذلك في غزوة تبوك]، قَالَ ﷺ: « **لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ! فَإِنْ**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم. وتمام الآية قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ؛ لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ! » ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ!) (١).

ورغم أنه ﷺ أسرع العبور في وادي المعذبين - كما هي عادته ﷺ كلما مر بآثار القوم المهلكين - إلا أنه مع ذلك اغتنم فرصة العبور، فألقى في أصحابه موعظة ميدانية بليغة، وهم كذلك على رحالهم سائرين، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: (لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ: « لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ! وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ [يعني الناقة] تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا! فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا؛ فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ ﷻ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ ﷻ ». قِيلَ: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « هُوَ أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ! ») (٢).

٤ - مسلك التخلق:

الخُلق الرئيس الذي وردت به هذه الآيات هو خُلُق الخوف! الخوف بمعناه التعبدي، القائم على معرفة مقام الرب العظيم، الخوف النازل على القلب من شُرُفَاتِ اليقين. ففي التعقيب على مهلك قوم لوط قال تعالى فيما تدارسناه: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾، وهو معنى جارٍ في كل مصارع الأمم الأخرى؛ لأنه مفهوم من السياق الكلي، وإنما فائدة قصص المهلكين الترهيب والتخويف من عذاب اللَّه، ومن مغبة عصيانه والتمرد على شرعه ودينه. ومن ثم كان الخوف مقامًا إيمانيًا من أجَلِّ منازل الإيمان، لا يوصف به إلا أهل اليقين من الأبرار الربانيين.

وقد مدح اللَّه أهله في غير ما موطن من كتابه وسنة نبيه ﷺ. كما حكى سبحانه مقالة الأبرار إذ قالوا: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، والحاكم، والطبراني في الأوسط، كما رواه الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقد أورده ابن كثير في البداية والنهاية برواية أحمد، وقال: (وهذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو في شيء من الكتب الستة والله أعلم)، البداية والنهاية (١٣٧/١). ط مكتبة المعارف، بيروت. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: « حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم ».

سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، ونحو هذا وذاك في القرآن كثير.

والخلاصة أن الخائف من الله آمن في الدنيا والآخرة بإذن الله. آمن في الدنيا من نقمته تعالى ومن شر خلقه، وآمن في الآخرة من عذابه المقيم والعياذ بالله؛ ولذلك عقَّب على خوف الأبرار من اليوم العبوس القمطرير، فقال سبحانه: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١].

إن الخوف من الله هو سبب السكينة والسلام، أما الخوف من غيره فهو سبب التعاسة والشقاء. ومن خاف الله وحده كفاه شر كل خوف.

والمسلك الأساس للتحقق بهذا الخلق العظيم هو:

أولًا: تدبر قصص الهالكين في كتاب الله، ومطالعة أخبارهم مستحضرًا أنها حقائق منزلة من عند الله، تتدبرها حتى تجد نفسك كأنك تراها، بل كأنك تعيشها وتحياها! وقد قرأت عن بعض الصالحين، أنه كان كلما قرأ قصة نوح في القرآن، ووقف على مشاهد الطوفان؛ شَعُرَ بالاختناق، وتتابع نبضُه، وضاقت أنفاسه، كأنما هو يغرق! وذلك من شدة الاندماج النفسي مع حقائق القصة!

ثانيًا: الاستيقان من ثبات سنة العقاب إلى يوم القيامة، كما بيناه، وتفسير كل الكوارث العالمية بها، دون شكٍّ ولا تردد، فلا شيء في ملك الله يتحرك بمفرده، أو يحدث بغير علمه وإذنه. فإنما هي مصائب منزلة من سمائه، على ميزان قضائه وقدره، يصيب بها من يشاء من أعدائه. وقد قال ﷻ عن حجارة قوم لوط: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]، أي أنها معلقة على رؤوس الظالمين في كل زمان وفي كل مكان، تنتظر الإذن الإلهي، لتنهال عليهم بالعذاب. فلا تغتر بتحليلات أهل العمى.

ثالثًا: السير في الأرض ما أمكن؛ لمشاهدة آثار الأمم البائدة، سواء ممن ذكرهم الله في كتابه، أو غيرهم. وكثير من آثارهم ما تزال باقية رغم آلاف السنين، شاهدة على سنة الله الجارية في الظالمين. قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى

ﵟٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَﵞ [آل عمران: ١٣٧]. وإنما الشرط في مشاهدة آثار المعذبين، أن يكون القصد الأساس هو التفكر والتدبر والاعتبار، واستحضار مشاعر الخوف والحزن والبكاء، كما بيناه بدليله في الرسالة السابعة. ولا يجوز بأيٍّ حال من الأحوال السير إلى تلك الآثار وأضرابها بقصد الترفيه والاستجمام. وإنما هي مواطن للذكرى، وإنما تركها اللَّه ﷻ آيةً للذين يخافون العذاب الأليم، كما تدارسناه.

رابعًا: معرفة أن هذه الأمة أيضًا معرضة - في بعض أجزائها - لِمَا أصاب الأمم البائدة، من الخسف والقذف والمسخ! نسأل اللَّه النجاة والعافية برحمته. وهذه حقيقة إيمانية صحت بها الأخبار عن النبي ﷺ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « **يَكُونُ فِي أُمَّتِي خَسْفٌ، وَمَسْخٌ، وَقَذْفٌ!** » [(١)]، وفي حديث عمران بن حصين زيادة: (قال رجل من المسلمين: يا رسول اللَّه متى ذلك؟ قال: « **إذا ظهرت القيان والمعازف، وشُربت الخمور!** ») [(٢)]، وقد ذكر النبي ﷺ من علامات الساعة: « **ثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْـمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ!** » [(٣)]، والإنذار بالخسف والقذف والمسخ، حديث متواتر المعنى، فقد روي عن عدد من الصحابة منهم: أم المؤمنين عائشة، وعمران بن حصين، وعبد اللَّه بن عمر، وعبد اللَّه بن عمرو، وسهل بن سعد، وجابر بن عبد اللَّه، وأبو هريرة، وسعيد بن راشد [(٤)].

وقد علمنا بوقوع بعض هذا في السنوات الأخيرة، في بعض البلاد الإسلامية، وخاصة الخسف. والخسف: زلزال عمودي، يجعل الأرض تسيخ بأهلها وعمرانها، فتبتلع ما عليها، وهو شر الزلازل والعياذ باللَّه! نسأله تعالى العافية. والعجيب أنه وقع اليومَ فعلًا في مناطق بلغ بأهلها الفسق والفجور حد الطغيان!

تلك مسالك أربعة من تحقق بمقتضياتها، وشاهد أيام اللَّه من خلالها؛ رجا أن يهبه اللَّه قلبًا خائفًا، فلا يأمن إلا في جوار اللَّه، ولا يطمئن إلا بذكر اللَّه. فذلك الذي

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه. وصححه الألباني في تحقيق سنن ابن ماجه، والسلسلة الصحيحة والجامع الصغير.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع، وصحيح الترغيب.

(٣) جزء حديث رواه مسلم.

(٤) ن. ذلك مفصلًا في السلسلة الصحيحة للألباني (٤/٣٩٢).

يُرْجى أن يكون من الناجين المرحومين، إن شاء اللَّه.

فاللَّهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك! سبحانك اللَّهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

* * *

المجلس الثالث

في مقام التلقي لحق الخالقية
وما يترتب عنه من واجب إخلاص التوحيد والعبادة للّٰه
وبيان أن ذلك هو غاية الوجود البشري
وأن عليه يكون الحساب في اليوم الآخر



١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

٢ - البيان العام:

كانت قصص المجلس السابق جسرًا معنويًّا، يربط بين الثلث الأول من السورة، والثلث الأخير منها. وذلك بما رسخت من أن أمر اللّٰه حق يقين لا مرد له من اللّٰه، في الإنعام والعقاب سواء. وأن الخراصين المذكورين في أول السورة، إنما هم يضعون أنفسهم - بمقتضى سنن تلك القصص - في مواجهة سنة اللّٰه، الجارية بالانتقام من الكفرة الفجرة، المكذبين بيوم الدين.

ومن ثم كانت هذه القصص نفسها تمهيدًا لبيان حق اللّٰه على العباد، وبيان الحكمة التي من أجلها خلقوا، وبيان أمر الذين عوقبوا، لماذا عوقبوا؟ كل ذلك من

خلال الكشف عن حق الخالقية الثابت للَّه ﷻ منذ الأزل، وبيان ما يترتب عنه من واجب إخلاص التوحيد والعبادة للَّه، وأن تلك هي الوظيفة الأولى للإنسان في الأرض، وأنها هي حكمة وجوده، وغاية خلقه وتكوينه. وأن اليوم الآخر إنما جعله اللَّه ﷻ من أجل فصل الحساب في هذه القضية الإيمانية الكبرى. ومن ثم فلا دين بغير ترسيخ الإيمان باليوم الآخر على مقام اليقين، كما تبين مفصلًا في الثلث الأول من السورة.

وهكذا جاءت آيات هذا القسم الأخير، ترسم الخلاصات الأساسية، لقضية الإيمان باللَّه، توحيدًا وتفريدًا، وتضع معالم الطريق للعابدين، وتبين ما للَّه خالق الجن والإنس على خلقه من حقوق، وتفتح باب النجاة للإنسان كي يفر إلى اللَّه الذي خلقه، وخلق له كل شيء من السماء إلى الأرض، عساه يكون بذلك من الناجين.

وعلى ذلك القصد انتصبت الآيات الأولى من هذا المقطع: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾، تلك ثلاث آيات، كل واحدة منهن تفتح كتابًا من كتب الكون، لكنها لا تفتحه على الصفحات التي فُتح عليها من قبل، في المجلس الأول من هذه السورة، من جمال الْحُبُكِ، وبيان دقة الصنع والتقدير والتدبير، بل تفتحه الآن على مشاهدة صفحات أخرى من عظمة اللَّه ﷻ، وقدرته، ومشيئته، وتصرف إرادته سبحانه، وهو يبني السماء، ويفرش الأرض، ويخلق الأزواج من كل شيء. إنها تبصرنا أساسًا بصفة « الخالقية » في ذات اللَّه ﷻ، وتفتح أعيننا على شعاعٍ جديدٍ من نور اسمه تعالى « الخالق »، ذلك الاسم العظيم الذي به استحق ربوبية العالم، وبه استحق عبادة المخلوقين له ﷻ . فإذا شاهدنا في صدر الصورة جمال الصنع، فإننا نشاهد هنا جلال الصانع. ولا شك هو مقام أعظم وأرقى.

وارتباط هذا المقطع بما قبله من القصص، وورود آياته بعدها مباشرة، يوحي بأن الذي دمر هناك وأهلك، هو الذي بنى هنا وخلق، وأنها قدرة واحدة، ومشيئة واحدة، تُدبر أمر هذا العالم بميزان محكم حكيم. **وبيان ذلك هو كما يلي:**

قال ﷻ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ ﴾، وعبارةُ « الأَيْدِ » هنا ليست جمع يَدٍ، وإنما هي مصدر لفعل: آدَ، يَئِيدُ، أيْدًا، بمعنى: اشْتَدَّ وقَوِيَ. فالأَيْدُ في اللغة

اسم للقوة [١]. فقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ... ﴿٤٧﴾ ﴾، أي بقوة وإحكام، مع توسيع أرجائها وفضاءاتها وطبقاتها، بما لا قدرة للبشر على حصره ولو بالتخيل! وبعض التصورات الحديثة، في علم الفلك والكونيات اليوم، تقول بأن الكون لا يزال في تمددٍ واتساع، منذ أن انفجر عن ذرة صغيرة في بداية الخلق، وذلك فيما يسمونه بنظرية الانفجار العظيم.

والتعبير بالبناء في الآية مشيرٌ إلى أن السماء ذات تركيب بنائي متوازن، سواء في كواكبها ونجومها ومجرَّاتها، ومواضع أفلاكها، ومواقع كل نجم من تلك الأفلاك، أو بالنسبة إلى طبقاتها الغيبية، التي لا يعلم الإنسان عنها شيئًا، إلا ما جاء عن طريق الوحي. فقد ثبت في أحاديث شتى أن لكل سماء من السماوات السبع بابًا أو عدة أبواب، وأنها سقوف مبنية مغلقة، لا تُخرق جُدُرُهَا إلا بإذن الله. ففي حديث ابن عباس ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ!...) الحديث [٢].

وفي حديث المعراج العجيب إذ كان البراق يخرق بالنبي ﷺ طبقات السماوات، كان جبريل ﷺ يستأذن له عن كل باب من أبواب السماوات؛ فَيُفْتَحُ له، وفي ذلك قول النبي ﷺ: « **ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ،**

---

(١) جاء في اللسان: (الأَيْدُ والآدُ جميعًا القوة (...) وقوله ﷻ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ ﴾ [ص: ١٨]، أي: ذا القوة. قال الزجاج: كانت قوته على العبادة أتم قوة، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وذلك أشد الصوم، وكان يصلي نصف الليل. وقيل: أَيْدُهُ: قوتُه على إلانةِ الحديد بإذن الله، وتقويته إياه. وقد أَيَّدَهُ على الأمر، [قال] أبو زيد: آدَ يَئِيدُ أَيْدًا، إذا اشتد وقوي. والتأييدُ مصدرُ أَيَّدته، أي قوَّيته. (...) وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، قال أبو الهيثم: آد يئيد إذا قَوِيَ). لسان العرب، مادة: (أيد). وجاء في القاموس: (آدَ يَئِيدُ أيْدًا اشْتَدَّ، وقَوِيَ. والآدُ الصُّلْبُ، والقُوَّةُ، كالأَيْدِ. وآيَدْتُهُ مُؤَايدَةً، وأيَّدْتُه تأييدًا، فهو مُؤْيَدٌ ومُؤَيَّدٌ: قَوَّيْتُه). القاموس المحيط: (آد).

(٢) رواه مسلم، وتتمة الحديث: عن ابن عباس ﷺ قال: (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ!).

قَالَ: فَفَتَحَ لَنَا، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ »[1]، وكانت هذه العبارة تتكرر في الحديث عند كل سماء، من السماء الدنيا حتى السماء السابعة؛ بما يدل على الطبيعة البنائية لكل سماء، وأنها ذات أبواب محروسة، لا يدخلها إلا مأذون من رب العالمين.

ولذلك ورد في كتاب الله عن الكفار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ثم إن بناء السماء بهذه القوة المذكورة، يعني بأنها مرفوعة فوق الطبقات العليا للفضاء، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الرعد: ٢]، ثم إنه تعالى رفعها فوق النجوم والكواكب والشمس والقمر؛ لأن هذه إنما هي زينة للسماء الدنيا فقط، وهي معلقة في سقفها دون سطحها، كما هو ظاهر التعبير القرآني، قال تعالى في سورة الصافات: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

صحيح أن لفظ السماء قد يرد في القرآن بمعنى الفضاء الأرضي، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [النحل: ٧٩]، لكن الغالب هو ذكر السماء بمفهومها الغيبي، كما في النصوص السابقة، وكما في كثير من الأحاديث الصحيحة، من مثل ما أوردنا في حديث المعراج وغيره. وهذه السماء، أو بالأحرى السماوات، هي المقصودة بعبارات الرفع والبناء في القرآن، وهي أوسع، وأبعد، وأعمق بكثير من فضاء النجوم والكواكب، رغم شساعته المهولة؛ إذ ما هو إلا زينة للبنية التحتية للسماء الدنيا! والمتدبر لمصطلح السماء في الكتاب والسنة يدرك بسرعة هذه الحقيقة الرهيبة! وإن الدماغ البشري ليصاب بالصداع؛ كلما حاول استيعاب هذا الامتداد الغيبي الواسع الشاسع!.. تلك لمحة من قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ثم قال ﷻ عطفًا على بناء السماء: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾،

---

(١) جزء حديث متفق عليه، وهو حديث المعراج الطويل.

والفَرْشُ: البَسْطُ والتَّوْطِيءُ. وأما الْـمَهْدُ فهو: التذليل والتمهيد والتهييء. وقوله: ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ۝٤٨ ﴾ ثناءٌ من اللَّه ﷻ على نفسه؛ تذكيرًا بنعمته على خلقه، كأنه قال: « فنعم الماهدون نحن لها من أجلكم! » وفيه تعليم لعباده أن يشكروا النعمة للّه.

ومعنى الآية في مجملها أن اللَّه ﷻ فَرَشَ الأرضَ بطبقة من التربة، تكون صالحة للحياة البشرية، ولشتى ضروب الزراعات والفلاحات، وأجرى فيها الأنهار وسخر البحار، ثم مهدها للإنسان وأعدها له إعدادًا، قبل خلقه بزمن سحيق. فما أُهبط إليها آدم عليه السلام إلا من بعد ما كانت مفروشة، مهيأة للحياة البشرية الدنيوية، على أكمل صورة وأدق تقدير. كما قال تعالى في سورة فُصِّلَتْ: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠].

ومن كمال فرش الأرض وتمهيدها، أنه تعالى خلق فيها من كل شيء زوجين؛ لإجراء سُنَّةِ التوالد والتناسل والتجدد؛ ضمانًا لبقاء النوع ووفرته، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والطيور والأسماك، وغير ذلك مما اللَّه به عليم، من المسخَّرات الظاهرة والباطنة. وقد يتسع مفهوم « الزوجين » ليشمل كل الثنائيات المتقابلة، كالليل والنهار، والصحة والمرض، والفقر والغنى، والموت والحياة، والخير والشر.. إلخ، مما تذكره كتب التفسير، لكن قصره على المعنى الأول أوفق للسياق. فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ ﴾. والتذكر: هو الاعتبار، واستخلاص الحكمة، واستفادة نتائج التفكر فيما خَلق اللَّه من الأزواج من كل نوع، وفيما ذُكر قبله من بناء السماء وفرش الأرض، وما في هذا وذاك من فضل اللَّه العظيم على الإنسان، المستفيد الأول من هذا التدبير والتسخير.

وأنت تلاحظ ما أشرنا إليه قبلُ، من أن التعبير في هذه الآيات جميعًا قد أُسْنِدَ فيه الفعل إلى اللَّه ﷻ ، وأنه هو سبحانه يتكلم بخطاب المتكلم الفاعل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ ﴾؛ وإنما ذلك كله لفتح البصيرة على مشاهدة يد الصانع وهو يبني، ويفرش، ويمهد، ويخلق ما يشاء، ويبدع ما يريد كما يريد؛ فلا ينشغل الذهن بالمخلوق عن الخالق، ولا يذهل الفكر بالمصنوع عن الصانع. وهذه هي خصوصية هذه الصفحات، المفتوحة هنا من كتاب السماء والأرض وسائر الخلق، كما بينا.

والقدرة الإلهية المتجلية هنا في سماء هذه الآيات، خَلْقًا وتقديرًا، تملأ القلب علمًا بالله، ومعرفةً به جل علاه؛ فلا يبقى في القلب شك؛ بما سيق فيها من علامات واضحات، ومعانٍ معجزات، من أن الخالق لهذا الكون هو هذا الرب العظيم، المتكلم بهذا القرآن، خالقًا واحدًا لا شريك له، فيحيل آخِرُ السورة في هذه الآيات على أولها، من ذكر الوعد الحق، الذي بموجبه سَيُنْقَضُ بناءُ السماء ويُطْوَى، ويُجْمَعُ فراشُ الأرض ويُرْكَمُ!

ومن ثم ناسب أن يحصل الاستثمار لهذا التسلسل البرهاني الكريم، من أول السورة إلى حدود هذا البيان؛ بدعوة البشرية إلى الرجوع إلى الله، والاعتصام بحبل هداه، فيرتفع النداء الرباني العظيم، على لسان رسوله الكريم ﷺ، نذيرًا مدويًا فوق رؤوس البشرية إلى يوم الدين: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝﴾، فلا يبقى لمن عَرِفَ الله حقًّا، وعَرِفَ مقامه العظيم، وما له من حقوق على خلقه، وما عليه العصاة من خطر عظيم، وما ينتظر هذا العالم من دمار وفناء، ثم إحياء وبناء، وحشر الناس إلى يوم الدين؛ لا يبقى لمن عرف ذلك كله إلا الفرار إلى الله! فهو وحده الذي يملك لعباده النجاة من الهلاك المكين والخسران المبين، فلا مناص من الفرار إلى حِمى طاعته، والمبادرة إلى الدخول في ظلال عبادته، بالتوبة السريعة النصوح، والاستقامة على منهاج شريعته، وتوحيده في ربوبيته وألوهيته، وعدم التوجه بالرغب والرهب إلى أحد سواه؛ رجاء التحصن بأمان عفوه ومغفرته، والفوز بسلام رحمته.

وتكرار عبارة: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝﴾ فيه دلالة على أن لكلٍّ واحدةٍ منهما مقامًا دلاليًا متميزًا عن الآخر، علاوة على ما يفيده التكرار الشكلي من التوكيد، فالعبارة الأولى، نذارة للناس ليسارعوا إلى التوبة والرجوع إلى الله على العموم، وأما العبارة الثانية فهي نذارة أخص، تتعلق ببيان أن أخطر ما عليه الإنسان من الفسق عن منهاج الله هو الشرك بالله، سواء كان إشراكًا في ربوبية العالم، أو كان إشراكًا في عبادة آلهة متعددة! فذلك هو الظلم العظيم، الذي لا يغفره الله لمن مات عليه أبدًا! فتبين أن النذارة الأولى عامة في كل انحراف، كبيرًا كان أو صغيرًا، شاملة لكل فسق، كفرًا كان أو عصيانًا. لكن النذارة الثانية خاصة بالشرك الأكبر، الذي هو

رأس الكبائر، والذي يكون صاحبه مضمون الخلود في النار، والعياذ بالله.

بذلك جاءت النذارة من النذير المبين، محمد رسول الله ﷺ. ومعنى النذارة والإنذار في اللغة: الإخبار بما فيه خطر وخوف، والتحذير من شره. وكون رسول الله ﷺ نذيرًا من الله، معناه: أنه قادم بخبر النذارة من عند الله، ومن جهته وقِبَلِهِ، لا من عند نفسه: ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾. والمبينُ: الفصيح الواضح البليغ، المبلِّغ للمقصود على أكمل ما يكون البلاغ والبيان. وهي نذارةٌ مؤكَّدةٌ ثابتة، بما أحاط عباراتِها من أدوات التوكيد وصيغه التعبيرية؛ ليبقى ذلك النداءُ دعوةً خالدة مستمرة إلى قيام الساعة.

ولقد نادى محمد ﷺ بهذا النداء وما في معناه، منذ أن أمره الله بالصدع بدعوته بين كفار قريش في مكة، في أول عهد البعثة، كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: « يَا بَنِي فِهْرٍ! يَا بَنِي عَدِيٍّ! » لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا؛ لِيَنْظُرَ مَا هُوَ؟ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ؛ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ » قَالُوا: نَعَمْ! مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ! » فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد: ١، ٢])[١].

ولقد كان النبي ﷺ يحزن من تكذيب قومه، ويشتد ذلك عليه ويغتم؛ فكان الرحمن - جل ثناؤه - يواسيه، ويشد أزره بآيات كثيرة. وعليه؛ فبسبب ما كان من ندائه ﷺ المذكور هاهنا في الذاريات، وما انطوى عليه من بيان جحود الكفار، وعدم استجابتهم للنداء، مما هو مفهوم من صدر السورة وخواتيمها؛ التفت الخطاب القرآني إلى رسول الله ﷺ التفاتَ رحمة ومواساة، مبينًا له أن هذه هي سنة الدعوة الإسلامية وطبيعتها، فالحق لا بد له من كافر يجحده، وشيطان يدافعه، وأن الرسل جميعًا تعرضوا للتكذيب والتشويه، والحصار الإعلامي البهّات. فذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾.

---

(١) متفق عليه.

وعبارة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ تستعمل في اللغة لأغراض شتى، منها فَصْلُ الكلام وترتيبه، وربط سياق منه بسياق؛ لإحكام بناء الخطاب وتسلسله. وهو الظاهر المقصود هنا. أي كأنه قال: الأمر كذلك، مشيرًا إلى مضمون النذارة النبوية، وإلى ما كان من ردود الأفعال التي عبر عنها الكفار، من الجحود والتكذيب. مبينًا أنها قاعدة مطردة في الكفر، وطبيعة واحدة في الكفار، رغم اختلاف الزمان والمكان، وأن هذا شأن الأمم السابقة في مخاصمة رسلها، وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ﷺ، ووصفه بالسحر والجنون، هو أمر قد وقع ممن قبلهم لرسلهم. حتى إن الرب الجليل قال بصيغة الاستفهام الإنكاري، مُعَجِّبًا منهم ومُقَرِّعًا: ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ﴾ بمعنى: هل كانت تلك التُّهم، وتلك الطريقة في التكذيب، وصيةً توارثها كفار الأمم اللاحقة عن السابقة، حتى وصلت إلى هؤلاء؟ ثم أضرب عن ذلك إضرابًا وقال: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ ﴾ بمعنى أن طغيان الكفر على القلب واستيلاءه عليه؛ يجعل أصحابه يطغون في الأرض ويتجبرون، ثم يفكرون بنفس التفكير، ويعبرون بنفس التعبير، ولو فرقت بينهم الأزمنة والأجيال!

والاتهام بالسحر أو بالجنون، هو من أشنع الاتهام؛ لما سبق بيانه من أن السحر فعل شيطاني خبيث، يقلب الحقائق ويصورها على غير واقعها؛ فيخدع الناس. وأما المجنون فهو المغلوب على عقله بتسلط الجن، ومن ثم فإن جاء بغرائب وخوارق، فإنما هي أفعال شيطان، تجري على لسانه أو جسمه قهرًا. وهذا من أشنع ما اتُّهمت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو مناقض تمامًا لحقيقة الوحي، وقدسية الاتصال بالملأ الأعلى، وتنزل الملائكة عليهم، وما يقتضيه ذلك من طهارة الرسول، وصفائه الروحي الكامل؛ ومن ثم كان محمد ﷺ يحزن لسماع مثل هذه الاتهامات المنكرة، ويغتم لها كثيرًا. فجاءت هذه التسلية من الرحمن لِتُسَرِّيَ عنه وتثبته، وتثبت كلَّ داعية إلى الحق الخالص على أثره ومنهاجه.

ويرفع الرحمنُ - جلَّ ثناؤه - اللومَ عن عبده ورسوله محمد ﷺ، ملتفتًا إليه - سبحانه - التفاتَ رحمةٍ وتلطف، آمِرًا إياه بالكف عما يعنته ويجهده، من مناظرة هؤلاء الكفرة الفجرة، ومقارعتهم الجدلية الشديدة، وأن يكتفي بالتذكير بحقائق الإيمان، تذكيرًا بينًا هينًا، لا يعنته ولا يجهده؛ لما للذكرى والموعظة الحسنة، من أثر بليغ على القلب الذي سكنه الإيمان ابتداءً، أو سبق في علم اللَّه أنه سوف ينشرح

للإيمان، ولو بعد حين. فذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾. ومعنى التولي: الإعراض، لكنه إعراض جزئي، يُعْرِضُ فيه رسولُ اللَّه ﷺ عما غاظه من كيدهم، وسبابهم، وشتائمهم، ويُعرض عن مشاجبتهم ومجادلتهم العقيمة. فقد بلَّغهم ﷺ الحقَّ على أتم ما يكون البلاغ، فلا لوم عليه بعد ذلك إذا اقتصر على التذكير، فلعل مؤمنًا ينتفع، ولعل حائرًا مترددًا يهتدي. وهو في نفس الوقت توجيه له ﷺ ليشتغل بتزكية من آمن معه من أصحابه، ويهتم بتربيتهم وتعليمهم، إعدادًا لهم في طريق بناء دولة الإسلام، التي سوف ترجع على هؤلاء الكفرة المردة، لتواجههم باللغة التي يفهمونها، ألا وهي القتال والجهاد، وكذلك الأمر كان.

ثم خلصت خواتيم السورة إلى بيان علة هذا كله، وبيان القصد من إنزال الوحي وإرسال الرسل، بل بيان القصد من خلق الخلق، وإبداع الوجود، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾، وهذه آية جامعة مانعة، فيها بيان حجم الانحراف الخطير، الذي وقع فيه الكفار بكفرهم، وتمردهم على الدين، وخروجهم من تحت ربقة العبودية للَّه رب العالمين. والاقتصار على ذكر الجن والإنس من دون سائر المخلوقات، مع أنه ما من شيء في الوجود إلا وهو مخلوق للعبادة، كما هو معروف، من الملائكة إلى ما دونها من الكائنات، كالنجوم والشجر والدواب... إلخ؛ فلأن هذين الجنسين وحدهما ينقضان عهد اللَّه بالكفر والمعصية، أما غيرهما فهو عابد للَّه أبدًا. وتقديم ذكر الجن على الإنس، فيه إشارة إلى سبق خلق الجن على خلق الإنس في الزمان، كما أن فيه إشارة إلى شناعة اتخاذ الجن أربابًا من دون اللَّه، كما هو واقع كثير من الكفار والأديان الشيطانية، فالجن أنفسهم إنما خُلقوا لعبادة اللَّه الواحد الأحد. فدلَّ ذلك على أن المقصود بهذا الخطاب أصالةً هو الإنسان. وأنه هو محور التوجيه والمحاسبة، وهو المخاطب الأول بهذا القرآن، والجن في ذلك له تبع. فالعبادة إذن هي الوظيفة الأولى والأخيرة للإنسان [1].

---

(١) وقد أشكلت هذه الآية على بعض المفسرين؛ لأنهم فسروا إرادة الخلق للعبادة هنا بالإرادة القدرية التكوينية التي لا يجوز تخلفها، فكيف يكون ذلك وهذا أغلب الجن والإنسان يكفرون ولا يعبدون، كما هو ثابت بنص القرآن؟ ومن ثم جعلوا يتأولون العبادة بغير معناها الشرعي المعروف، أو يقولون بأنه عمومٌ =

ومعنى العبادة: الخضوع والانقياد الطوعي للَّه، بالدخول تحت رِبْقَةِ الإيمان قولًا وعملًا، اعتقادًا وسلوكًا. وهي مراتب:

أولاهن: توحيد اللَّه وإخلاص الدين له.

والثانية: الدخول تحت تكاليف الشريعة من العبادات المحضة، وسائر أحكام الحلال والحرام. ويعتبر التخلق بأمهات الفضائل من أركان الإسلام الخمسة، والتخلي عن أمهات الرذائل من المحرمات الكبرى، وكبائر الذنوب؛ هو مدار العبادات العملية في الإسلام.

وأما المرتبة الثالثة للعبادة، فهي: السعي إلى عمران الأرض، وإصلاح المعاش، وتطوير الزراعات والصناعات والتجارات، وتسخير الطاقات المبثوثة في الأرض ومحيطها الكوني؛ بما يحقق ضمان قيام المرتبتين الأولى والثانية.

كل ذلك مشمول بمعنى العبادة، إذا ضُبط بهذا الترتيب المقاصدي. فتكون الدنيا خادمة للآخرة، وتكون حركة الإنسان بهذا الميزان كلها عبادة للَّه رب العالمين، لا يشذ منها شيء البتة، حتى نومه واسترواحه. وبذلك يفهم الحصر الجامع المانع من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ ﴾.

=أريد به خصوص، وهو من سبق في علم اللَّه أنهم سوف يعبدون ولا يكفرون. وكل ذلك تعسف بعيد! والحقيقة أنما هو إشكال وهمي؛ لأن الآية تتضمن الحديث عن إرادتين لا إرادة واحدة، **فالأولى:** إرادة قدَرية تكوينية لا تتخلف، وهي المتعلقة بإرادة الخلق للجن والإنس ابتداءً، وقد تحققت كما أراد اللَّه ﷻ. والثانية: إرادة تكليفية تشريعية، وهي إرادة العبادة، وهي منوطة برضا الإنسان وطوعه، وهي المشار إليها بقوله: ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾، وهذه إنما جعلها اللَّه على نظام الثواب والعقاب، فمن جاء بها جوزي خيرًا، ومن خالفها جوزي شرًّا.

فكأنه قال: إنما أردت بخلقي الجن والإنس إرادة التكليف والتشريع لهم. والتكليفُ منوط بطوع الإنسان، والطوع محتمل للطاعة والعصيان. فمن استجاب فقد وافق إرادة التشريع وإرادة التكوين معًا، ومن لم يستجب فقد خالف إرادة التشريع، لكنه وافق إرادةَ القَدَرِ والتكوين؛ لأن إرادة التكوين إنما تتعلق بخلق الإنسان وتهييئه جسمانيًا وعقليًا للعبادة، لا أمره بها، وإنما هو مأمور بالعبادة بإرادة التكليف، لا بإرادة التكوين والقدر، فلا تناقض ولا إشكال البتة. فالإنسان في جميع أحواله غير خارج عن الإرادة القدرية التكوينية. وهذا معنى لطيف، قد أشار إليه الإمام ابن كثير بعبارة وجيزة جدًا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى الآية: (أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم).

ويتأكد هذا المعنى بما جاء بعده مباشرةً من بيانٍ إلهي، يرسخ حصر غاية خلق الجن والإنس في قصد العبادة دون سواه، قال تعالى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝ ﴾. وما من سيد في الأرض يستخدم العبيد، أو يستعمل الخدم والعمال؛ لا يفعل ذلك في جميع الأحوال؛ إلا لجلب منافعه الخاصة، وخدمة مصالحه الشخصية. لكن رب العباد ﷻ هو الغني بذاته عن خلقه. فهو إذ خلقهم لعبادته، فإنما ليستفيدوا هم نَفْعَهَا في حياتهم الدنيا والآخرة. فهو لا يستجلب بهم رزقًا كما يفعله أرباب الأرض، سبحانه، ولا يرجو منهم إطعامًا، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا. بل هو « الرزَّاق »، هكذا بصيغة المبالغة: « الفعَّال »، وبهذا الاستغراق الشامل المفيد للحصر، بمعنى أنه لا رازق لأحد سواه. إنه وحده الرزاق لغيره، من جميع المخلوقات في البر والبحر، المتكفل بإطعامهم ما قدَّر لهم من أقوات كل يوم. وهو سبحانه قوي على ذلك، قدير عليه، متمكن منه بسلطانه العظيم، فهو « ذو القوة » أي: مالك القوة وصاحبها المهيمن عليها. ثم هو « المتين » أي: الشديد، الذي لا يغلبه شيء ولا يقهره أحد، بل هو القاهر فوق عباده. يعطي ويمنع، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. وكل الخلق خاضعون طوعًا أو كرهًا لإرادته وسلطانه.

وفي ذلك نقض لبعض التصورات الجاهلية لمفهوم الربوبية، من مثل ما وقع في مقالات يهود، مما حكاه اللَّه في القرآن، في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وقد قرر سبحانه عقيدةَ الربوبية الكاملة المطلقة، وبين استغناء الرب ﷻ عن جميع خلقه، في تعبير واضح صريح، فقال سبحانه في سورة فاطر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]. وذلك حتى لا يقع بالنفس الجاهلة باللَّه، أن الأمر بالعبادة هو لمنفعةٍ يجنيها الخالق من خلقه، كلَّا كلَّا، بل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝ ﴾، كما قرره هنا في الذاريات.

ثم تُختتم السورة أخيرًا بآيتين كريمتين، تربطان آخر السورة بأولها، فكلتاهما وعيدٌ شديد للكفار الظلمة؛ بما أشركوا باللَّه وتمردوا على شرعه، وبما جحدوا من عقيدة اليوم الآخر، وحقائق البعث والنشور، والحساب والجزاء. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ

ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾. وهذا يحيل على ما جاء في صدر السورة من قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾. وذلك لإحكام موضوع السورة، وجعل يقينية اليوم الآخر والبعث والنشور، هو الثمرة الإيمانية الكبرى التي يجنيها المؤمنون بالله، فَيُرَسِّخُونَ إيمانهم بالله واليوم الآخر يقينًا.

فقوله هنا: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾، تجميع ختامي للقضية، واستنتاج مرتبط بسياقه الخاص والعام، بمعنى أنه إذا تقرر أنَّ خَلْقَ الخلقِ إنما هو للقيام بوظيفة العبادة للَّه؛ فإنه من الظلم إذن أن يخرج الإنسان عن فطرته، فيكفر بربه ويشرك به، أو يعصيه ويخالف أمره ونهيه. وبذلك استحق الكفار هذا الوعيد الشديد، مما توعدهم اللَّه به، وأعلمهم به، من هذا النصيب الكبير من العذاب المحتوم، الذي جعله لكل طائفة منهم، تلقاه في جهنم جزاءً مفروضًا، لا محيد لها عنه ولا محيص!

والذَّنُوبُ بفتح الذال، معناه في العربية: الدَّلْوُ الكبيرة، التي يُستقى بها الماء من الآبار. وتستعملها العرب كناية عن معنى النصيب، والجزء المقسوم لصاحبه؛ لأنهم كانوا يتداولون الاستقاء من البئر، ويتناوبون عليها، لكل شخص ذَنوب. فقوله تعالى هاهنا: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾، معناه كما أشرنا: فإن لهؤلاء الكفار من قريش، وممن جاء بعدهم من الكفار مطلقًا، نصيبًا ضخمًا من العذاب مقسومًا لهم، كما قُسم لمن سبقهم من أصحابهم الكفرة الظالمين. ومعنى ﴿ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ هنا: أمثالُهم وأشباهُهم ونظراؤهم، ممن سبقوهم إلى نفس الصفات الشيطانية الخبيثة، من مقولات الكفر والتكذيب.

وقوله: ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾، نهي للكفار عما يقومون به من استعجال النبي ﷺ العذابَ الذي يتوعدهم به. وأصل الفعل: (فَلَا يَسْتَعْجِلُونِي) فحذفت الياء تخفيفًا، وهي ضمير في محل نصب على المفعولية، يعود على ذات المتكلم، وهو اللَّه سبحانه؛ لأن استعجال رسولِه إنما هو استعجالٌ لربه ﷻ، فأمر العذاب والعقاب إنما هو بيده. وحقيقة هذا النهي إنما هي تهكم وتوبيخ للمستعجلين لعذاب اللَّه؛ لأن

العذاب حقيقةٌ واقعةٌ بهم حتمًا، لكن في الأجل الذي قدَّره اللَّه وأراده؛ ولذلك قال في الختام: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝ ﴾! والويل: الشر والعذاب والهلاك والثبور. وإضافة « يوم » إلى الكفار ﴿ يَوْمِهِمُ ﴾ إلصاق لحقيقته بهم، تلك الحقيقة التي يكذبونها ويتهربون منها، إنها لهم، ويومها هو يومهم، فلينتظروه أو لا ينتظروه فهو يومهم، وإنهم ملاقوه قطعًا!

وهذا توعد رهيب للكفار بعذاب اليوم الموعود. وهو بهذه الصيغة من التوعد بالويل والدعاء عليهم به، يرجع على سخرية الساخرين، المستعجلين لعذاب يوم الدين؛ بالزلزلة العصبية، والترعيب النفسي؛ بما يجعلهم يفقدون الثقة في معتقداتهم الباطلة، ويضطربون في مواجهة هذا الحق القوي الجهير! حتى ولو لم يصرحوا إلا بما يدل على ثباتهم على مواقفهم ظاهرًا؛ بسبب ما سيطر عليهم من الكِبْرِ والهوى؛ إلا أنهم كانوا وما يزالون كلما سمعوا هذا القرآن ووعيده الشديد، تزلزلت أعصابهم، وتخلخلت أفكارهم، وتناقضت هواجسهم، وشعروا بخوف داخلي، يجعل الذين كتب اللَّه لهم الهدى منهم ينشرحون للإسلام ولو بعد حين. ويبقى الذين كتب اللَّه لهم الضلالة في غيهم يعمهون حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

وفي هذا وذاك من ترسيخ عقيدة اليوم الآخر ما فيه، فالمؤمن المتلقي لهذه الكلمات الثقيلة، تَرسخ قدمُه في طريق يقينه، ويتزكَّى إيمانُه بربه وبدينه. وأما الكافر فيكفي أنها تحطم عليه جدران قلبه، وتهدم عليه أوهام خرصه، فإما يستجيب للحق فيهتدي، وإما يضل في متاهات الحيرة والعذاب.

ثبتني اللَّه وإياكم على طريق الهدى والنجاة، وجعلنا برحمته ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، آمين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في ثمان رسالات نلخصها فيما يلي:

الرسالة الأولى: في أن تدبر صفة الخالقية في ذات اللَّه ﷻ، ومشاهدة تجلياتها في الخلق؛ لا يرجع منه المؤمن إلا بخوف ورهب، ورغبة شديدة في الفرار إلى اللَّه؛

بسبب ما عرف من مقام الرب العظيم. إن فعل الخلق بما هو إيجاد للمخلوق، سواء كان ذلك من عدم، أو كان من مادة أولية؛ لهو من أغرب ما يبهر القلوب ويحير العقول! وإن الإنسان الذي يملك حظًّا من التفكير السليم، لا يملك إلا أن يخر ساجدًا للَّه رب العالمين، كلما نظر ببصره وبصيرته إلى تجليات اسم اللَّه « الخالق » في نفسه، وفيما حوله من جميع المخلوقات، المشكلة بذاتها لهذا الملكوت العظيم، الممتد ما بين السماوات والأرض. إنني عندما أتفكر في لحظة ما قبل وجودي أشعر بالفزع! هل فعلًا أتى عليَّ حين من الدهر لم أكن شيئًا مذكورًا؟ ألا ما أرهبها من حقيقة! وإنما معناها أنه سيأتي حتمًا حين آخر من الدهر، أندثر فيه من سطح هذا الوجود الدنيوي. إن معنى كون الإنسان مخلوقًا، هو أنه واقع في قبضة خالقه، وكفى بتلك الحقيقة رَهَبًا! ولولا صفات الجمال في أسماء اللَّه الحسنى؛ لما وسع الإنسانَ إلا الحزَنُ والبكاء!

الرسالة الثانية: في أن الشرك أكبر الظلم في الدين. وذلك أن رب العالمين واحد، هو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو الهادي وحده، بيده حياة الخلق، وبيده مماتهم، من شاء أحيى، ومن شاء أمات، يصيب من يشاء بالأسقام، ويشفي من يشاء منها، هو الشافي لا شفاء إلا شفاؤه، له الملك وحده، وله الحمد وحده، لا إله إلا هو، من وجده وجد كل شيء، ومن فقده فقد كل شيء، هو اللَّه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، الملك الديَّان، وارث الملك والملكوت في الأرض وفي السماء. كل الخلق يفنى، ولا يبقى أحد سواه، سبحانه جل جلاله وعلاه. لا يقع شيء في الأرض ولا في السماء إلا بعلمه، ولا يحدث شيء من خلقه إلا بإذنه. هو الرب المتصرف في ملكه بأمره، لا دخل لأحد في شأنه، هو السيد الحق، والمالك الحق، والجن والإنس له عبيد. ما تمرد عليه من جبار إلا قصمه، ولا جاهره طاغية بالعداء إلا دمره! وهو الرحمن الرحيم، يرعَى خَلْقَهُ بلطفه، ويتولاهم برحمته، يسوق أرزاق الفراخ إلى أفواهها، ويهدي شفاه الرُّضَّعِ إلى أثدائها. يُغيث الملهوف وحده، ويجيب المضطر وحده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فبأيِّ منطقٍ بعد ذلك يشرك الناس في عبادة اللَّه؟ فهل من خالق غير اللَّه؟ وهل

من رازق غير اللَّه؟ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]؟ فعلامَ يُتَوَجَّهُ بالرَّغَبِ والرَّهَبِ إلى سواه؟ ولماذا يُقْصَدُ غيره بالخوف والرجاء؟ كيف والخلق كلهم له عبيد؟ ألَا ما أضل من طلب العطايا من عند غير اللَّه! ألَا وإن ذلك لهو عين الشقاء!

وإنه لا غرابة أن يكون الشرك مهيمنًا على عبادة الكفار بشتى مللهم ونحلهم؛ لأن ذلك أساس عقائدهم. وإنما العجب العجاب أن تنتشر مظاهر الشرك بين المسلمين! فتنصرف قلوبهم عن اللَّه، ويتوجهون بالاستغاثة وطلب الحاجات إلى غير اللَّه، كيف؟ وهذا القرآن واضح صريح في أن اللَّه لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصًا له وحده! ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

اللَّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه، اللَّهم إني أعوذ بك من الشرك كله ظاهره وباطنه، اللَّهم أخلصني لك وحدك لا شريك لك، ولا تجعل في قولي وعملي حظًّا لأحد سواك. سبحانك لا إله إلا أنت.

الرسالة الثالثة: في أن الحصار الإعلامي والتشويه المعتمد على قلب الحقائق، وبث الأراجيف والإشاعات المدمرة؛ من أهم وسائل الكفار عبر التاريخ في مواجهة دعوات الرسل والأنبياء. وإلى الآن ما يزال الأسلوب هو نفس الأسلوب، ولو تغيرت الوسائل وتطورت. فمن أخطر ما يواجه الدعوةَ والدعاةَ في العصر الحديث؛ ضربُ الحصار الإعلامي المتعدد الأشكال، والتركيز على بعض صور الجهل والانحراف في أشخاص بعض جهلة « الدعاة »، كما قدَّموا أنفسَهم أو قُدِّمُوا، ممن حُرِمُوا الإخلاص الحق، أو حُرموا الفهم السليم للإسلام، أو حُرِمُوا ذلك جميعًا؛ فتقدمهم وسائل الإعلام الشيطانية، على أنهم هم دعاة الإسلام، وأن فكرهم الفج ذاك، هو فكر الدعوة الإسلامية عامة، وطبيعة كل دعوة إصلاحية في الأرض، تتخذ الإسلام غايةً ومنهاجًا!

ثم تسخر الدوائر الإعلامية الكبرى بعض « المفكرين »، من أصحاب الأقلام المأجورة والأصوات الرخيصة؛ لتحليل « الظاهرة الإسلامية »، أو « ظاهرة التدين »، كما يعبرون، فيصورونها بأخبث ما يُلْقِي إليهم الشيطان من مصطلحات ومفاهيم! وفي دول الغرب اليوم مراكز لسانية كبرى، لصناعة مصطلحات خبيثة، توظف في حصار الدين في كل مكان، من مثل مصطلح « الإرهاب »، و « التطرف »، و « الأصولية »، وغيرها من التشنيعات، التي تمضي على أثر سلفهم الفاجر القديم، ممن قالوا في

النبي ﷺ، وغيره من الرسل والأنبياء: ساحر أو مجنون. وقالوا في المؤمنين: سفهاء، وأراذل، وهلم جرًّا.

إن أهم طريقة لمواجهة الحرب الإعلامية الفاجرة، **يكمن في الاعتصام بأمرين اثنين:**

أولهما: عدم الاستجابة للاستفزاز الشيطاني، وعدم الدخول في حرب كلامية خاسرة؛ إذ لا يستفيد منها سوى الخصم الذي يَشْغَلُ الدعوةَ عن ممارسة عملها الرئيس. بل المطلوب هو الثبات على المنهاج الدعوي الهادئ الحكيم، الموزون بقواعد الشريعة ومقاصدها.

الثاني: الاعتصام بالقرآن المجيد، واعتماد آياته وسوره مادةً أساسية في الدعوة والتربية، والتحليل والتعليل، ومخاطبة العامة والخاصة. فكلمات الله لها من القدرات الخارقة على تحطيم الباطل ودعاته؛ ما قد لا يخطر على بال! وهي بذاتها تهدم وتبني، وتُفرغ وتَملأ. إن تأسيس مجالس القرآن في كل منطقة وقطاع، وتدشين نهضة قرآنية في الأمة، تقوم على تجديد التداول الاجتماعي للقرآن المجيد؛ لهو أشبه بشروق عظيم متدفق على القلوب، يكنس آثار الظلام في العمران، ويكشف زيف ما بثته دوائر الشيطان من إعلام، في حق دعوة الإسلام، ثم يعمر العالم بالنور. إن إشهار كلمات الله في وجه طغاة الإعلام - كافٍ بإذن الله للقضاء على كل محاولتهم لحصار الخير، مهما أوتوا من قوة مال وسلطان.

الرسالة الرابعة: في أنه لا فائدة من الجدالات العقيمة، والمناظرات الْـمُغَالِبَةِ، في محاورة طغاة الملاحدة والكفار، اللَّهم إلا حوارًا هادئًا تُعْقَدُ مجالسُه لبيان الحقيقة، أو للاستماع لحكماء الدعاة بعيدًا عن منطق الغالب والمغلوب، ومباريات « الاتجاه المعاكس ». إن المناظرة القائمة على قصد المغالبة لا تنفع الجاحد للحق أبدًا. فهو إنما جاء إلى هناك؛ ليغالب وينتصر، كالعدو المقاتل تمامًا. فإن استجاب الداعية لذلك فقد اشتغل بخلاف الأولى. وإنما حق هؤلاء المردة أن تقام عليهم الحجة بالنذارة والبلاغ وكفى؛ إعذارًا إلى الله رب العالمين، على ما قال الله ﷻ عن القرية العادية في السبت من بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وعليه؛ فإنه إذا وصلت كلمة الحق إلى محالها من القلوب؛ فقد انتهت وظيفة

الداعية الحوارية، في هذا السياق خاصة، ولا عليه بعدُ مما قد يكون من نتائجها. وإنما عليه أن يتفرغ للبناء تزكيةً وتعليمًا وإعدادًا، في صفوف المقبلين عليه من أهل الفِطَرِ السليمة، والنيات المخلصة، وهم سواد الأمة الأعظم ولله الحمد. وعلى هذا تجري كثير من النصوص القرآنية، من مثل قوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٥ - ١٢].

الرسالة الخامسة: في أن الدعوة إلى الله بالذكرى والموعظة الحسنة، أعظم وسائل الدعوة أثرًا في النفس الإنسانية، سواء تعلق الأمر بالكافرين أو بعصاة المسلمين. وفي غير ما آية من كتاب الله أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالتذكير نذارةً وبشارةً، وبالجدال بالتي هي أحسن، والتلطف بالمدعوِّين والرفق بهم؛ عسى أن يشرح الله صدورهم للحق. فذلك هو المنهاج الناجع، والدواء النافع، إن شاء الله، على ما قرر الله سبحانه هنا في سورة الذاريات: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾، أي المؤمنين حالًا أو استقبالًا، كما بيناه.

الرسالة السادسة: في أن العبادة هي غاية الوجود البشري، فمن دخل تحت رِبْقَتِهَا فقد انخرط في فَلَكِ وظيفته الوجودية، يدور مع شرع الله حيث دار. فبالعبادة يعرف الإنسان ربه، وبها يعرف نفسه، وبها يتذوق معنى الحياة. فيقرأ كتاب الكون بعين قوية بصيرة، تكشف عن أسراره، وتفك طلاسمه، فيرى بنور الله من الحقائق؛ ما ضلَّ عنه الفلاسفة والمفكرون الجاهلون بالله. وقد بيَّنا مراتب العبادة في البيان العام، وامتدادها من معين الإيمان إلى جميع أنشطة العمران، على ميزان من الأولويات معلوم بالكتاب والسنة. لا يضخم شيئًا على حساب شيء. والعابد لله إذا اشتغل بدنياه اشتغل بها عابدًا لله؛ فكفاه اللهُ همَّ دنياه وأُخْرَاهُ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ في الحديثِ القُدْسِيِّ: « **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ؛ وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ!** »[1]، ومعنى التفرغ لعبادة الله أن تجعل العبادات المحضة محور حياتك، وأن تجعل كسبك

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وفي تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه.

الدنيوي خادمًا لها، فتكون عابدًا للَّه بجميع أحوالك. وفي حديثِ عَبْدِ اللَّهِ ابن مسعود ﷺ قال: (سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: « **مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ؛ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا؛ لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ!** ») [(١)].

وسيأتي لهذه الرسالة بيان عملي في مسلك التخلق، بحول اللَّه.

الرسالة السابعة: في أن الرزق في الإسلام له مفهوم غيبي صرف، مرتبط بأصل الإيمان بالقدَر. فرزق الإنسان مقسوم عند اللَّه في اللوح المحفوظ، وهو واصله بعزة اللَّه وقدرته، لا محالة، كما دلت عليه الآيات هنا في الذاريات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾. فلا أحد يستطيع منع رزق أحد، وما كان ظاهره كذلك في أعين الناس، فإنه لا يخرج أبدًا عما قدر اللَّه سلفًا من مقادير الأرزاق، وإنما يبتلي اللَّه الناسَ في الرزق بعضهم ببعض، فمن فتح اللَّه بصيرته على الحق؛ شاهد مصدر الرزق الحق، ولم تفتنه حُجُبُ الأسباب المادية، عن مشاهدة تجليات اسم اللَّه: « الرزَّاق ». وقد ثبت في الحديث أن الرزق مما يُكتب للإنسان في بطن أمه عند نفخ الروح فيه، ففي حديثِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ** ». الحديث [(٢)].

الرسالة الثامنة: في أن النذارة باليوم الآخر في القرآن، هي أول الكلام وآخره، وعلى ذلك وجب أن ينبني الخطاب الدعوي في كل مكان. وهذه قاعدة كلية قطعية، مستقرأة من نصوص الكتاب والسنة. فالإسلام دين أخروي بالقصد الأول، وما عمارة الدنيا فيه إلا تبع خادم للآخرة. ومَنْ قلب هذا الميزان في ممارسته الدينية،

---

(١) رواه ابن ماجه، والبيهقي في شعبه. كما رواه الحاكم عن ابن عمر. وحسنه الألباني في تحقيق سنن ابن ماجه، وفي صحيح الترغيب، وصحيح الجامع.

(٢) متفق عليه. وتتمته: « فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ فَيَدْخُلُهَا! وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا! ».

فجعل الآخرة خادمة للدنيا، أو قَلَبَهُ في خطابه الدعوي، وممارسته الإصلاحية، فعرض الإسلامَ للناس على أنه منهج عمران دنيوي أساسًا، ومشروع حضاري مادي، أو برنامج سياسي يَعِدُ بالرفاه والوفرة في المعاش؛ مُغْفِلًا حقائق الإيمان، أو أنه يجعلها تابعة لهذه المقاصد المتضخمة عنده؛ فإنه يعاني هو في نفسه أولًا من سوء فهم لطبيعة هذا الدين، ومنهاجه في بناء الدنيا والآخرة. فلا تكون حركته إلا ضربًا في الطريق المسدود، وتحريفًا لحقائق الإسلام.

نعم الإسلام يقيم عُمران الدنيا على أكمل مثال، ولكنه عُمران مؤسَّس على جذور الروح، وأصول الإيمان، اعتقادًا وعملًا. ومن ثم فهو يوجه الحضارة البشرية إلى خدمة مقاصد الآخرة. وعلى هذا وجب أن تنبني طبيعة الخطاب الدعوي، وبرامج التجديد الديني في جميع المجالات، بما فيها المجال السياسي والاقتصادي.

٤ - مسلك التخلق:

والمسلك هنا هو في كيفية التخلق بمقام العبادة، على سبيل التفرغ المطلق، والدوران في فلكها أبدًا، على ما تقرر فيما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾. فتلك هي طريق الأنبياء والصديقين. **وللتحقق بهذا المقام ثلاثة مسالك:**

الأول: التزود من العلم بالله والمعرفة به، ما يجعل المؤمن يعيش أبدًا مع الله. وذلك يكون - كما قررناه في غير ما مجلس - بإدمان النظر في كتابين: القرآن المجيد، وكتاب الملكوت المفتوح للناس ملءَ السماوات والأرض.

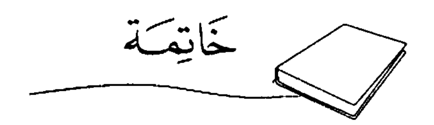
الثاني: النظر الدائم إلى النفس في مقام عبديتها، قبل مقام عبوديتها، بمعنى أن يشاهد المؤمن نفسه على حال حقيقتها، وهي حال الذلة والضعف والفقر، والحاجة الدائمة إلى الله، وأنه لا يستطيع أن يستقل بشيء من مصالح نفسه، إلا بعون ربه وتوفيقه. فإذا تحققت له هذه المشاهدة يقينًا؛ وجد نفسه مَشُوقًا بالدخول في مسلك العبودية الخالصة لله، وكان من العابدين لمولاه على كل حال.

الثالث: التعبد العملي لله، وهو صمام الأمان لسلامة السير في فلك العبودية، وهو راجع إلى القبض على محوره الأساس، ومركزه الرئيس، ألا وهو العبادات المحضة،

من صلاة وزكاة وصيام وحج واعتمار، وما تفرع عنها من نوافلها، ثم الاشتغال بفعل الخير والدعوة إليه. قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وكذا الاستقامة على موازين الشريعة وأحكامها، أمرًا ونهيًا، بما يحقق للنفس صلاحها ويحفظه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

فإذا اجتمعت هذه المجاهدات في حياة العبد، وتحقق بثمارهما الطيبة؛ وجد نفسه يسبح هونًا في فلك العبودية الخالصة لله، لا يعبد أحدًا سواه، ولا يرى أحدًا غيره. متوجها دائمًا بكليته إلى مولاه، سواء كان في صلاته أو سوقه، وسواء كان في خلوته أو جلوته، وسواء كان في مسجده أو وسط مجتمعه، لا يتصرف ولا يعيش في كل ذلك إلا مع الله.

* * *



خاتمة

وختام المسك لمجالس سورة الذاريات، خلاصةٌ تدبرية لطيفة، وهي أن من أدمن النظر في هذه السورة الكريمة، تلاوةً وتدبرًا وتخلقًا، وصحبةً لحقائقها الإيمانية بالليل والنهار؛ **تحقق بإذن اللَّه من ثلاث صفات عظمى:**

الأولى: قدرة روحية خاصة على قراءة آيات اللَّه في النفس، وفي المحيط الكوني. وكانت له في ذلك بصائر إيمانية نفاذة إلى حقائق الأشياء، فعاش بجسده في الأرض، وعاش بروحه في صحبة الملأ الأعلى، يتلقى البشارات، ويحسن قراءة الإشارات.

الثانية: تعلقٌ قلبي بالعبادة؛ حيث يُرْزَقُ حُبَّهَا إلى درجة الوله. ويكون بذلك عبدًا للَّه حقَّ عبدٍ. وعسى أن يكون - إن شاء اللَّه - من السبعة الذين يظلهم اللَّه يوم القيامة، يومَ لا ظل إلا ظله، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ [أَوِ الْمَسَاجِدِ] إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ!** »[1]، وهذه كما ترى، كلها مقامات من العبادة الرفيعة، لا تحصل إلا لعارف باللَّه، سكن قلبه حبُّ اللَّه وحبُّ عبادته.

الثالثة: تحققٌ بمقام اليقين، فلا تضيره شبهة ولا فتنة بإذن اللَّه، وبذلك يتمتع بسكينة القلب ورسوخ الإيمان؛ بما يجعله لا يقلق من رزق ولا أجل. وكفى بذلك سعادةً في الدنيا وزادًا للآخرة.

تلك بعض ثمار التخلق بسورة الذاريات.

فيا إلهي الرحيم!

---

(١) متفق عليه.

هذه ذنوبي قد أثقلتني عن اللحاق بركب الصديقين، وأهل شهود اليقين.. وهذا ضعفي ما يزال يكبو بنفسي في طريق السائرين، وليس لي من رجاء في الوصول إلا بتجلي رحمتك، والتفات عطفك وحنانك، اللَّهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، واجعلني بفضلك من أهلك وخاصتك، اللَّهم ربي آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وَلِيُّهَا ومولاها. اللَّهم أنت ربي وأنا عبدك، اللَّهم أنت ربي وأنا عبدك، اللَّهم أنت ربي وأنا عبدك، لا حول ولا قوة لي إلا بك، فاغفر لي وأدخلني في رحمتك!

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

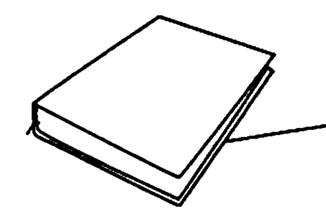
من التلقي إلى البلاغ

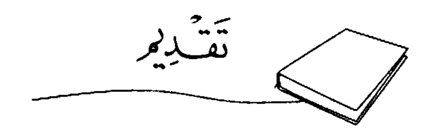
المدارسات القرآنية

٧ - سُورَةُ الطُّورِ

وهي مكية، وعدد آياتها (٤٩)

وهي تتضمن مجلسين اثنين





سورة الطور هي سورة التحدي.

فالتحدي هو صلب موضوعها، التحدي للكفار الجاحدين ليوم الدين؛ بما أعد الله لهم فيه من عذاب النار. لقد شابهت هذه السورةُ سورةَ الذاريات التي قبلها، من حيث إنهما معًا يعرضان حقيقة اليوم الآخر، عرضًا يفتح للنفس المؤمنة معراج اليقين، ويحطم أوهام الخرص والشك لدى الساخرين والمترددين. إلا أن سورة الطور هذه تتميز - بعد ذلك - ببناء خطاب التحدي على برهان اليقين؛ إذ تنطلق من المقدمات الإيمانية اليقينية؛ لترجع على طائفة المكذبين بإعلان التحدي البرهاني، والمساءلة الإنكارية الشديدة، الكاشفة عن تهافت منطق الكفر والجحود، والواضعة للكافر - أنى كان - في موضعه الطبيعي، ألا وهو موضع العبدية القسرية، بما فيها من عجز مطلق وضعف كلي شامل!

ولقد ابتُدئت السورة بِقَسَمِ الرب ﷻ بأمور ذات شأن عظيم عنده، مثل كتابه المجيد، وبعض مخلوقاته العظيمة، أقسم سبحانه بذلك على حتمية وقوع عذابه بالكفار، وأنه يقينية إيمانية راسخة، لا يعتريها الشك ولا التردد على الإطلاق. وبيَّن سبحانه ما نتج عن مواقف البشرية من هذه الحقيقة من اختلاف وافتراق، فوصف جانبًا من عذاب المكذبين، وجانبًا من تنعم المتقين في جنات النعيم، ثم انطلق الخطاب بعد ذلك مباشرة إلى تفصيل التحدي، مواجِهًا شُبَهَ التكذيب، وناقضًا لها جميعًا، الواحدة تلو الأخرى. وهو في كل ذلك يتحدى الكفار بأن يَرُدُّوا على شيء من هذا أو ذاك، أو أن يتصرفوا في الكون بما يفيد تحكمهم في تدبيره وتسيير شؤونه، أو أن يتصرفوا في أمر الوحي، بما ينقض هذا القرآن، كاشفًا في كل ذلك عن عجزهم، وعن حقيقتهم البشرية القاصرة، التي لا تخرج عن طبيعة المخلوق الضعيف الحقير.

وقع ذلك كله عبر سلسلةٍ من الْمُسَاءَلَاتِ الإنكارية الشديدة، والمحاكمات العلنية العتيدة، الرافعة لأعلام التحدي في كل جملة وفي كل كلمة. وهي آيات استغرقت

كل النصف الآخر من السورة، إلا قليلًا. منها قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ ﴾.

فهذه المعاني من التحدي والفضح والتعرية للكفر، رغم أنه لم يَشْرَعْ في تفصيلها إلا بعد منتصف السورة تقريبًا، إلا أنها مع ذلك تعتبر المحور الرئيس لها؛ لأن صدر السورة إنما كان كالتمهيد لها، أو كالمقدمات المنهجية لحقائقها؛ ولأن نتائج هذا التحدي الحجاجي، مما مارسه الخطاب القرآني هنا، من التوبيخ، والتقريع، والتبكيت، والفضح للكفار؛ هي التي أفرزت خواتيم السورة، من الوعيد الشديد لهؤلاء الطغاة بما هم له مكذبون من جهة، ومن التوجيه الرفيق العميق للرسول الداعية؛ كي يتزود لدعوته بالصبر والتسبيح والعبادة.

تلك هي سورة الطور، سورة ثقيلة كالطور فعلًا، والطور هو الجبل العظيم. وما من سورة في القرآن إلا ولها من اسمها نصيب، غالبًا ما يكون هو قضية السورة، وموضوعها الرئيس. فكانت قوارع التحدي ههنا هي المعبرة عن الثقل العظيم لهذه السورة، فكأن آياتها صخور عالية رفيعة، تساقط على رؤوس الطغاة من عَلُ؛ فترضخها رضخًا! وأما من سَلِمَتْ فطرته الإنسانية من الأهواء؛ ولو كان ما يزال على جهله وضلاله؛ فإنه لا يملك إذا سمع تحدياتها الرهيبة، ونُذُرَهَا الشديدة؛ إلا أن يخضع لها، ويُسْلِمَ وجهَه لله الواحد القهار!

فمما صح من قصص هذه السورة - في هذا السياق - أن الصحابي جُبَيْرَ ابْنَ مُطْعِمٍ ﷺ كان قد قَدِمَ على النبي ﷺ في المدينة، بعد غزوة بدر، وهو ما يزال يومئذ على شركه وكفره، قَدِمَ ليفاوض النبي ﷺ في فداء بعض الأسرى، فأدرك الناس في صلاة المغرب، وبقي حول المسجد ينتظر، فسمع الرسولَ ﷺ يقرأ في الصلاة بسورة الطور، فكان أن قرعت آياتُها قلبَ جبير قرعًا شديدًا؛ بما جعله يعيد النظر في حقيقة

الإسلام، ويكون ذلك أول خطواته النفسية نحو إعلان إسلامه. فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ!) [١]، يعني: كاد قلبي يطير خوفًا وفزعًا! ثم قال في رواية أخرى للبخاري: (وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي!) [٢].

هذا، وقد بينا قَبْلُ أن من الإشكالات المنهجية، في مدارسة أغلب سور المفصل، أنها تمتنع من التجزيء إلى فقرات ومجالس مستقلة؛ لأن آيات كل سورة منها متسلسلة في نفسها تسلسلًا وثيقًا، وهي بذلك كالخطبة الواحدة، التي تخدم قضية واحدة. وسورة الطور هي من هذا القبيل. ورغم أننا وجدنا من المفسرين من قسمها إلى ثلاث وحدات فأكثر؛ إلا أننا مع ذلك فضلنا أن نجعلها في مجلسين اثنين فقط؛ مراعاة للتوازن في عدد الآيات المدروس بكل مجلس من جهة؛ ولأن ذلك هو الأليق بموضوع السورة وطبيعتها، من جهة ثانية. ولو جعلناها في ثلاثة مجالس؛ لاختل توازن الفقرات؛ ولوجدنا أنفسنا ندرس الشيء بمعزل عن مقابله المفسر له. ثم لما أمكن أن نستنبط من الهدى المنهاجي ما تكتمل به الصورة، وتُسَدُّ به الحاجة التربوية لكل مجلس. كذلك، والله أعلم.

ذلك ما يسر الله تقييده من تعريف سورة الطور.

فلندخل الآن مجلسها الأول بحول الله.

والله المستعان.

---

(١) رواه البخاري. ومسلم مختصرًا.

(٢) رواه البخاري.

المجلس الأول

في مقام التلقي لنذارة الترهيب بعذاب الله والتحدي بحتميته وعلامات موعده وانقسام البشرية عليه، بين أهل التكذيب وأهل الإشفاق

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾.

٢ - البيان العام:

قَسَمُ الربِّ ﷻ بمخلوقاته في كتابه، لا يكون إلا بما له عنده شأن عظيم، وسر كريم. وعلى هذا جرى مطلع سورة الطور بقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ

مَّنشُورٍ ۝ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝ ﴾.

والطُّورُ مكان له خصوصية. ومعناه في اللغة: الجبل الضخم العظيم الذي تعلوه أشجار ونباتات.

لكن لفظ « الطور » في القرآن صار عَلَمًا على الجبل الذي كلم اللَّه فيه موسى تكليمًا. وهو طور سيناء. كما قال سبحانه في سورة مريم: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]، وفيه بقعة مباركة خاصة، قال ﷻ: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٢٩، ٣٠].

والبقعة المباركة هي على سفح الطور؛ حيث يوجد الوادي المقدس طُوَى، وحيث وقع نداء اللَّه لموسى، قال ﷻ: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢]. وعند الطور أيضًا وَاعَدَ اللَّهُ بني إسرائيل؛ إذ اختار موسى ؑ من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه، قال اللَّه تقدست أسماؤه: ﴿ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ [طه: ٨٠].

وقد أقسم اللَّه بهذا الطور في القرآن مرتين، الأولى: هذه التي في سورة الطور، **والثانية:** هي التي في سورة التين: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين: ٢]. والمفسرون مجمعون تقريبًا على أن « طور سيناء » و « طور سينين » كلاهما واحد؛ لأن « سيناء » أو « سينين » عبارة تستعمل هكذا وهكذا بمعنى واحد، وهي دالة على معنى الْحُسْنِ والبركة، كأنك قلت: جبل البركة. وهو لفظ مُعَرَّبٌ في الأصل، قيل: عن الحبشية، وقيل: عن السريانية أو النبطية [١].

ورغم أنه لا يجوز في شرعنا شد الرحال إلى جبل الطور [٢]؛ إلا أن بركته ما تزال

---

(١) ن. تفسير سورة التين عند الطبري، والبغوي، وابن كثير، والشوكاني، وغيرهم.

(٢) اتفق جمهور العلماء على عدم جواز شد الرحال إلى الأماكن المقدسة بقصد التعبد، سواء ما ذُكر في القرآن أو غيره؛ إلا ما خصه النبي ﷺ بذلك، وهو ما يرويه أبو هريرة ﷺ وغيره، أن النبي ﷺ قالَ: « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى ». متفق عليه.

ثابتة إلى يوم القيامة؛ ولذلك فالطور لا يدخله المسيح الدجال ولا يستطيعه؛ حيث ثبت في الحديث النبوي الصحيح، أن الدجال: « **لَا يَأْتِي أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ: الْكَعْبَةَ، وَمَسْجِدَ الرَّسُولِ، وَالْمَسْجِدَ الأَقْصَى، وَالطُّورَ** »(١).

ويكفي جبلَ الطورِ بركةً أنه تجلى عليه نور اللّه - جلت عظمته وتقدست أسماؤه - وكلم اللّه فيه موسى تكليمًا! فتلك بعض الأسرار التي تبدت من قَسَمِ اللّه بالطور.

ولما كان الطور مهبط التوراة، ومَجْلَى كلامِ اللّه ونوره العظيم، الذي تجلَّى على موسى عليه السلام؛ **فقد ناسب أن يكون القَسَمُ الذي يليه، واقعًا من رب العزة بكتابه العظيم: القرآن المجيد**، فهو كلام اللّه ﷻ ، كلامُه الموثَّقُ المسطور، وكتابه الجامع لكل الكتب، والنور المهيمن على كل نور، الذي جعله اللّه معجزة خالدة لرسوله محمد ﷺ. فهو لم يزل مسطورًا في المصاحف، أي مكتوبًا على الورق، منشورًا للتلاوة والتدبر، معروضًا في كل مكان. ومعنى الرَّقّ في اللغة - بفتح الراء - كل جلد رُقِّقَ جِدًّا حتى يصلح للكتابة. وهو أنسب اليوم للدلالة على الوَرَقِ الحديث في رقته وملوسته وجماله، تنضد عليه سطور القرآن سطرًا تحت سطر، بشكل أنيق جذاب. والمنشور من النشر، وهو: العرض والبسط لكل شيء مثني أو مطوي. والمقصود أن هذه المصاحف مستعملة للتلاوة والدراسة، فهي منشورة مفتوحة مهيأة للناس.

ولو استقريت مطابع العالم اليوم، ودور النشر؛ لما وجدت كتابًا ينافس القرآن الكريم في عدد الطبعات، والنسخ الصادرة منه، هنا وهناك في كل مكان. وربما وجدت كتابًا في الشرق أو في الغرب؛ وصل رقمًا قياسيًّا في عدد المبيعات، لكنها لا تكون إلا سحابة صيف وتمضي! فما هي إلا سنة أو بضع سنوات، ثم يُلقى ذلك الكتاب في رفوف النسيان! أما كتاب اللّه ﷻ فلم يزل منذ جمعه الصحابة - رضوان اللّه عليهم - في مصحف واحد، تَستنسخ منه بالأيدي ملايين النسخ تلو الملايين! حتى إذا ظهرت الطباعة الحديثة تأسست له مراكز متخصصة - علاوة على دور النشر التجارية - توزع من المصحف كل سنة ملايين النسخ. ولا تكاد الآلة الطابعة - في كل مكان - تفتر من تسطير المصاحف تسطيرًا!

---

(١) جزء حديث رواه أحمد، وابن أبي شيبة. وصححه الألباني في رسالته: قصة المسيح الدجال، وفي السلسلة الصحيحة. كما صححه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

ثم ناسب - بعد ذلك - أن يكون القَسَمُ الثالث هو ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾. وقد قيل: هو الكعبة، معمورة بالحجاج والمعتمرين أبدًا. وقيل: بل هو البيت المعمور المذكور في حديث المعراج، وهو بيت يماثل الكعبة ويقابلها في السماء السابعة، وقد ثبت أنه: « **يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ!** » [١]، ولا مانع أن يكون المقصود كليهما معًا، كأنه قال: « والبيت المعمور في الأرض وفي السماء ». وإن كان تفسير « البيت المعمور » هنا بالمسجد الحرام أنسبَ للسياق؛ لِمَا سبق من القَسَمِ بالطور والكتاب المسطور، فبأكناف المسجد الحرام نزل أَوَّلُ ما نزل من القرآن المجيد، وهو أول بيت وُضِعَ للناس على الإطلاق، وإليه حَجَّ الأنبياء والرُّسل قبل محمد ﷺ، آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وبنوه، ثم موسى نفسه، وكثير من الأنبياء بعده، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وقد تكفل اللَّه بحفظه وأمانه، فإذا خَرِبَ كان ذلك علامةً على ساعة خراب العالم كله! كما ورد به الخبر في السنة النبوية الصحيحة [٢].

« **وأما القَسَمُ الرابع فقد كان بـ « السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ »**»، وهو في أغلب أقوال المفسرين: السماء المرفوعة؛ لأن اللَّه تعالى جعلها للأرض سقفًا محفوظًا، كما فصلناه في سورة الذاريات. وقيل: هو عرش الرحمن؛ لأنه سقف الجنة. وهو مخلوق عظيم يعلو الكون كله. ولعل القسم بالسماء - خاصة الدنيا - أنسب للسياق، سوابقه ولواحقه؛ لما سيأتي بعدَ جواب القسم، من بيان تخلخلها ومورانها عند قيام الساعة. وأما عظمة السماء فقد بيناها في غير ما مناسبة ومجلس، ويكفي أن نتذكر أن المسافات الفاصلة بين نجومها ومجراتها، لا تقاس إلا بملايين السنوات الضوئية!

---

(١) جزء حديث متفق عليه.

(٢) ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: « يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ! » متفق عليه. وعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: « يُبَايَعُ لِرَجُلٍ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ، فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلَا يُسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ! ثُمَّ تَأْتِي الْحَبَشَةُ فَيُخَرِّبُونَهُ خَرَابًا لَا يَعْمُرُ بَعْدَهُ أَبَدًا! وَهُمُ الَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ كَنْزَهُ! » رواه أحمد، وابن حبان، والطيالسي، والحاكم، وابن أبي شيبة. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند: « إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح ». وقال ابن حجر رحمه الله معلقًا: (ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ يَقَع فِي آخِرِ الزَّمَانِ، قُرْبَ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ حَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: اللَّهُ، اللَّهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالُ: فِي الأَرْضِ: اللَّهُ، اللَّهُ! ») فتح الباري (٤٦١/٣).

وأما القَسَمُ الخامس والأخير فقد كان بـ « الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ »، ومعنى كونه مسجورًا: أي أنه مشتعل وملتهب ومتقد، من السَّجْرِ وهو إشعال النار؛ حيث تكون المحيطاتُ كلها نارًا ملتهبة. وتلك حال تصير عليها البحار أثناء قيام الساعة، وبين يديها. وهو اختيار الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ [1]. وهو معنى ثابت بنص القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦]، ويحتمل أن يكون هو المقصود أيضًا بقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٣]، رغم أن المفسرين فسروا « التفجير » هنا بتحطيم حدود البحار واختلاطها، وكل ذلك محتمل.

فهذه الأقسام الخمسة - جمعُ قَسَمٍ - الواقعة من رب العزة جَلَّ جَلَالُهُ بمجموعة من المقدسات وعظائم المخلوقات؛ كلها جميعًا من أجل إثبات جواب واحد، وترسيخ حقيقة إيمانية واحدة، توكيدًا ويقينًا، ألَا وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾! أي: إن عذاب ربك يا محمد لواقع حتمًا بالكافرين، نازل بهم قريبًا! ليس له شيء يمنعه، أو قوة تدفعه. ومن ذا قدير على التصدي لعذاب اللّٰه أو رفعه، إذا حل بقوم والعياذ باللّٰه؟

وبقدر ما في هذا التعبير من تأنيس لمحمد ﷺ وتثبيت في مواجهة مقولات الكفار، ورميهم إياه بشتى نعوت التكذيب وصفات التسفيه؛ فإن فيه تحطيمًا لمعنويات الكفر في قلوب الجاحدين، وتحديًا لطغاة المنكرين للبعث بحقيقة العذاب، الواقع من الرب العظيم، وأنهم في موعد قريب سَيَصْلَوْنَ نار جهنم خاسئين مدحورين! وذلك عندما تتحرك علامات الساعة الكبرى، من فوقهم، ومن حولهم، ومن تحت أرجلهم، وهو: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾، والْمَوْرُ: حركة شديدة واهتزاز في شكل دائري قوي، كما يحدث في عاصف الريح الدوَّار؛ ولذلك فهو يسمى « الْمُورُ » بضم الميم. وكما يحدث أيضًا في تيار البحر الدوَّار، الذي يُغرق السبَّاحين والزوارق. فالسماء أيضًا لها موعد تمور فيه، فتقع نجومها وكواكبها في كسوفات شديدة، وتخرج عن مداراتها الطبيعية، وأفلاكها المتوازنة، يدور بعضها على بعض، ويصطدم بعضها ببعض؛ فتطير شظاياها كما يطير غبار الريح العاصف! وكذلك الجبال في الأرض، تُقتلع جذورها، وتحطم أركانها

---

(١) ن. تفسير الآية في فتح القدير للشوكاني.

وقممها، ثم تسير كما تسير الرمال في الريح العاصف، فتتناثر ذراتها في الفضاء، حتى لا يبقى لها من أثر!

ذلك يوم وأي يوم! لا أرانا اللّٰه شرَّه! إنه يوم قيام الساعة - و « **لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق!** »[1] - يومَ تُغيَّرُ طبيعةُ الكون، ويُبدَّلُ خَلْقُ الوجود على نظام جديد، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ إذ يَهدم رَبُّ العزة العَالَمَ الكوني كله، ثم يخلقه خلقًا جديدًا، ويبنيه بناءً جديدًا: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إنه موعد الكفرة المكذبين مع العذاب، العذاب الذي كانوا به يُكذبون؛ ولذلك صدر هذا الوعيد الرهيب من الجبار ﷻ - هنا في سورة الطور - يتوعدهم بالويل والثبور، عند وقوع ذلك الدمار العظيم، قال ﷻ: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾. وإن الكفار بشتى مللهم، ونحلهم، وأجناسهم؛ ليلعبون في هذه الحياة الدنيا! يلعبون ويلهون بالمصانع، والزخارف، والمتارف، والمعازف. وما من تعمير للأرض في غير طاعة اللّٰه وعبادته إلا لعب كلعب الأطفال، بل هو كلعب الكبار من المجانين وسفهاء العقول. وأي جنون أم أي سفه، أشنع ممن أيقن بالموت ثم هو يخوض ويلعب؟ إلى متى؟ وحتى متى؟

ومعنى الخوض هنا: التخليط والتلبيس في الكلام، والانخراط في حديث الباطل، وقول الزور[2]. وذلك ما كانوا يفترونه من وصف الرسول ﷺ بالسحر والجنون، فيتندرون بذلك ويسخرون ويضحكون ويلعبون، وهم يعلمون يقينًا بأن محمدًا ﷺ هو أعقلهم، وأفطنهم، وأحلمهم، وأرزنهم، وأن رجلًا في مثل أخلاقه العالية العظيمة، وأمانته المثالية الكريمة؛ ما كان ليكذب على اللّٰه أبدًا! حاشاه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) جزء حديث رواه مسلم.

(٢) جاء في لسان العرب: (أَصْل الخَوْض المشيُ في الماء وتحريكُه. ثم استعمل في التلبس بالأَمر والتصرف فيه. (...) والتَّخَوُّضُ: تفعُّل منه، وقيل: هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أَمكن. (...) والخَوْضُ: اللَّبْسُ في الأَمر. والخَوْضُ من الكلام: ما فيه الكذب والباطل، وقد خاضَ فيه.) مادة: « خوض ».

فلينتظروا يومهم إذن! ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، وهذه آياتٌ فيها من التقريع والتبكيت والتهكم الشديد؛ ما يَصَّدَّعُ له قلب المؤمن حقًّا! إنه جزاء ما لعبوا به من السخرية بدين الله ورسوله ﷺ، وجزاء ما كذبوا وشنعوا وجحدوا من حقائق الإيمان وعذاب الآخرة! فالآن ها هم أولاء ﴿ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾، والدَّعُّ: الدفع القوي، والزجر العنيف، والسوق الشديد! وذلك أن زبانية جهنم - والعياذ بالله - تسوقهم إلى عذابها بالدفع والضرب، كما تساق البهائمُ الْحُرُنُ! واستعمال المصدر « دَعًّا » توكيدًا لفعله المذكور؛ هو هنا للدلالة على شناعة الدَّعِّ الواقع عليهم، وشدته وفظاعته.

ثم يمعن الخطاب القرآني في التقريع والتهكم؛ إذ تقف ملائكة العذاب بالمجرمين على شفير جهنم، فتقول لهم: انظروا! هذه هي النار التي كنتم بها تكذبون، فما رأيكم الآن؟ أهذا سحر أم حقيقة؟ أم أنكم لا تبصرون هذا الجحيم؟ فينبذون في أُوَارِهَا نبذًا، ويُغْطَسُونَ في أعماقها غطسًا، ويقال لهم: « اِصْلَوْهَا! » والصَّلْيُ والصُّلِيُّ: الاحتراق والالتهاب الكامل بالنار. نعم، يُلْقَوْنَ فيها فيقال لهم على سبيل السخرية والتقريع: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ فما ينفع الصبر وما ينفع الجزع؟ كل ذلك في البلاء سواء! إنه عذاب شديد خالد، لا يفتر ولا يفنى، والعياذ بالله. وهناك في غمرة الألم الشديد والعذاب المديد، يقال لهم: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، هذا عملكم، هذا تكذيبكم، هذا كفركم وجحودكم، وهذا هزؤكم برسولكم وسخريتكم، ها أنتم أولاء تذوقون جزاءَه الآن على تمامه. إنها لآيات تروع القلوب وتقبض النفوس، وتهيج خواطر الخوف والرهب، وتحاصر مواجيد البسطة والسرور؛ فتنقبض النفس انقباضًا. فما أشقى من يقامر بمصيره الأبدي؛ مقابل تمتع دنيوي فانٍ، حتى إذا لقي ربَّه أرداه في مهالك الهوان! نعوذ بالله من الخزي والخذلان!

ذلك تصوير رهيب لمصير المكذبين، بناه الرحمن على برهان اليقين، قَسَمًا بعظائم المخلوقات، وكرائم الكلمات.

تلك كانت آيات مروعات، ثم هبت على إثرها أنسام اللطف والرحمات، فتنفس

القلبُ رَوْحَ الرجاء بعد زمهرير الخوف، وتلقّى أنداءَ الرَّغَبِ، بعد سَمُومِ الرَّهَبِ، على منهاج القرآن في عرض ثنائية النذارة والبشارة، حداءً ربانيًا متوازنًا؛ لسوق القلوب إلى دار السلام؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

والقضية دائمًا هي في التقوى، التقوى ذات المدارج والمعارج، سيرًا إلى الله عبر مسلك الخوف والحذر في الدين، ومراعاة مقام الرب العظيم. فالمتقون دائمًا هم أهل النجاة، وهم محل الرضا الإلهي الكريم. إنهم يومَ الفزع الأكبر آمنون مطمئنون، يتمتعون ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾، والجمع والتنكير فيهما هو للتعظيم، والنعيم: كل ما تسعد به النفس وتشتهيه من الملذات والمكرمات. ونعيم الجنة جمال لا تحصره العبارات. ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾، والفَاكِهُ هو: المتمتع المسرور، من فَكُهَ يَفْكَهُ: إذا فَرِحَ وسُرَّ وابتهجَ، وطابت نفسه بما أوتي. وقد آتاهم ربهم من نعيم الجنة، ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فصاروا بذلك فاكهين، مسرورين، متمتعين أبدًا. ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾، والوقاية: الإنجاء والحفظ والمنع. وإنها لنعمة كبرى ولفوز عظيم أن ينجو العبد برحمة الله من عذاب الجحيم! والجحيم: اسم مخيف من أسماء النار. يقال: جَحَمَ النارَ يَجْحَمُهَا جَحْمًا وجُحُومًا: أوقدها وأضرمها، حتى عظمت وتأججت وهاجت، فصار بعضها يأكل بعضًا، فهي جحيم! وجَحُمَتِ النارُ: اشتدت وهاجت [1].

إن المتقين الآن في الجنة، ولكن أليس من الممكن أن يُنَاقَشَ أحدُهم الحسابَ مناقشةً دقيقةً؛ فلا تفي حسناتُه بدفع سيئاته، وينعكس رجحان الخير على الشر في ميزانه؛ فيكون من الخاسرين؟ بلى، بلى، وكيف لا؟ وها الحديث صريح في أن: « **مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ!** » [2] وأنه: « **لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ!** » **قَالُوا:** وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ!** » [3]، فوقاية الرحمن

---

(١) ن. مادة: « جحم » في لسان العرب، والقاموس المحيط.

(٢، ٣) متفق عليه.

للمتقين عذابَ الجحيم تَفَضُّلٌ منه تعالى ورحمة. ومن رحمته تعالى أنه لا يعذب أولياءه، ولا عباده المتقين، مهما ضعفوا عن أداء حقوقه على تمام شروط الكمال. بل يقبل منهم المقاربة والتسديد، والعمل القليل ما خلص لوجهه الكريم، ويعفو - جل ثناؤه - عن العثرات والهنات، سبحانه إنه هو الغفور الرحيم. وإضافة لفظ « رب » إلى ضمير المتقين في الآية: ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى صلة القرب والمودة، والاختصاص بالرحمة والمحبة.

ثم يقال لهم: زيادة في الإكرام والإنعام: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وهذه عبارات ترحيب وتحبيب، تُكرم بها الملائكةُ المتقين في الجنة: كلوا واشربوا من خيرات الجنة، واهنؤوا بما تأكلون وتشربون، بمعنى: اسعدوا وافرحوا. فالعيش الهنيء: هو العيش السعيد الذي لا تكدره الآلام، ولا المخاوف والأحزان. والجنة هي السعادة الهنيئة حقًّا؛ لأنها سعادة حقيقية خالدة، لا تنغصها هموم ولا أحزان، ولا يتبعها موت ولا فناء. وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، أي: بسبب ما تقبل الله لكم من أعمالكم الخالصة، وبما ضاعف لكم من أجرها؛ تفضلًا منه ورحمة، فكنتم بذلك من أهل النعيم. ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾. وهذا وصف لحالهم في الجنة، فالاتِّكَاءُ على السُّرُرِ والمتكآت تعبير عما هم فيه من أحوال الترف الكريم، والنعيم المكين، الذي لا يُخشى له زوال. والسُّرُرُ: جمع سرير، وهي الفُرُشُ العالية المرتفعة، وتطلق أيضًا على الأرائك الكبيرة والعروش. وقد وصفها الرحمن بأنها « مصفوفة »، بمعنى أنها منظَّمةٌ، مُنَضَّدَةٌ في صفوف، مرتبة بشكل بديع، مهيأة بصورة تغري أهل الجنة بالاتكاء عليها والجلوس.

ثم أكرمهم الله - جل ثناؤه - بحورٍ عينٍ. ومعنى الحور العين: جمع لصفتين من الجمال، هما: حَوْرَاءُ وعَيْنَاءُ، على وزن فُعْلٍ جمع فَعْلَاءَ، كَحُمْرٍ وحمراءَ، وبِيضٍ وبيضاءَ. فالحَوْرَاءُ: هي المرأة الصافية البياض. والعَيْنَاءُ: المرأة الواسعة العيون. وقيل: الحوراءُ: المرأة ذات العيون الجميلة؛ بما فيها من حَوَرٍ، وهو: شدة صفاء بياض العين في شدة صفاء سوادها. والعيناء: كبيرة العيون واسعة الْمُقَلِ. وكل ذلك من صفات الجمال في النساء، فهن حُورٌ عِينٌ.

ومعنى التزويج بالحور هنا أنه - تقدست أسماؤه - جعل الحور العين قرينات لهم

وندِيمات، يجالسنهم على السُّرر والمتكآت، ويبادلنهم أطايب الكلام والحديث. وفي ذلك ما فيه من جمال التكريم وكمال التأنيس.

ومن تمام نعمة اللَّه على أهل النعيم من المؤمنين المتقين، أنه - جل ثناؤه - يجمع للعبد الصالح ذريته الصالحة في الجنة، ويجعلهم في قصورها متجاورين، على منزلة واحدة. قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ... ﴿٢١﴾ ﴾، وقُرِئَتْ ﴿ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ الثانية بالإفراد والجمع، وهما سواء، وإن كان الجمع أقوى دلالة على الاستغراق والشمول. والمقصود أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذريتهم في الإيمان والعمل الصالح، وإن لم يبلغ الأبناءُ مرتبة الآباء في البر والصلاح؛ فإن اللَّه - جل ثناؤه - يُلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوها بأعمالهم؛ وذلك لتقر أعين الآباء بالأبناء، فيجمع الرحمن بينهم على أكمل الوجوه؛ إذْ يُلْحِقُ الناقصَ في العمل منهم بالكامل، ويرفعه إلى درجته، دون أن ينقص من درجة الكامل أو يخفضه عن منزلته. فذلك قوله: ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ... ﴿٢١﴾ ﴾، فَالأَلْتُ في اللغة: المنع والبخس والنقص [(١)]. ومعنى الكلام هنا: وما نقصنا أهلَ الدرجات منهم ولا بخسناهم شيئًا من عملهم، بل زدنا الناقص منهم وكملنا نقصه ورفعناه [(٢)]. وشاهده ما صح عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (إن اللَّه عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته، وإن كان لم يبلغها في العمل؛ ليقر بهم عينه. ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ... ﴿٢١﴾ ﴾ الآية، ثم قال: وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين) [(٣)].

ثم ذَيَّلَ سبحانه الآيةَ بقوله: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾، وهذه قاعدة كلية من كليات القرآن الكريم، قاضية على كل إنسان أنَّى كان. فما من عبد إلا وهو

---

(١) جاء في المحيط للصاحب بن عباد: (لَاتَهُ حَقَّهُ يَلُوتُه ويَلِيتُه: أي حَبَسَهُ. وما يَلُوتُكَ عَنِّي؟ أي: ما يَحْبِسُكَ عَنِّي؟) مادة: « ألت ». وفي اللسان: (أَلَتَهُ مَالَهُ وحَقَّهُ، يَأْلِتُه أَلْتًا، وأَلَاتَهُ، وآلَتَهُ إياه: نَقَصَهُ). مادة: « ألت ».

(٢) ن. تفسير الطبري للآية، وابن كثير، والشوكاني، والطاهر ابن عاشور، وغيرهم.

(٣) رواه الطبري في تفسير الآية، والبغوي في تفسيره، كما رواه البزار، والطحاوي في مشكل الآثار. وهو يروى مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وموقوفًا على ابن عباس، وهو الأصح، كما ذكره غير واحد من النقاد. لكن الشيخ الألباني صحح رفعه في السلسلة الصحيحة (٥/٦٤٧)؛ باعتبار أنه في حكم المرفوع؛ لما فيه من خبر عن الغيب. قلت: ويجوز أن يكون من فهم ابن عباس رضي الله عنه للآية؛ لأنها ظاهرة في هذا المعنى، واللَّه أعلم.

رهينُ عملِه يوم القيامة، أي أن مصيره مرهونٌ بما قدمه في الدنيا من عمل، ومتوقف عليه، إنْ خيرًا فخير، وإن شَرًّا فشر، والعياذ بالله. ويتفضل الله على من شاء من عصاة المسلمين، بالعفو والمغفرة؛ فيدخلهم في رحمته وينقذهم من النار، كما يأذن سبحانه لرسوله محمد ﷺ بالشفاعة لمن شاء الله إدخالَه الجنة، ولو لم يبلغها بعمله. لكن الأصل هو: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾، وفيها إشارة إلى أن الذرية غير المؤمنة، لا يُلْحَقُونَ بآبائهم الصالحين، وأن الإلحاق في مراتب الجنة ومنازلها، مشروط باستحقاق دخول الجنة أولًا؛ بما كسبه الإنسان من أعمال الخير والصلاح.

ويشرع القرآن المجيد في وصف مشاهد من أحوال النعيم، الذي يتمتع به المتقون في الجنـات، ويبين ما يُمَـدُّونَ به من أنواع الفاكهة واللحوم، وأصناف الطعام والشراب، وما يتقلبون فيه من أنواع الملذات، قال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾. ومعنى الإمداد هنا: الزيادة في الإنعام والتكريم، من المَدَدِ وهو: الزيادة في الخير عمومًا. وإمدادُ الرحمن عبادَه من أهل الجنةِ، عَطَاءٌ فوقَ عطاءٍ، وإكرامٌ بعد إكرام، وإنعامٌ لا ينقطع أبدًا؛ إذ يُمِدُّهُمْ سبحانه من فاكهة الجنة ولحومها، أصنافًا وأشكالًا تترى. ومهما يتخيل الإنسان من طبيعة فاكهة الجنة وأصنافها؛ فإنه لن يبلغ حقيقتَها التي لا توصف لذةً وجمالًا! وكذلك لحم الجنة، من مشويات ومطهيات بشتى الفنون والأشكال، مما تشتهيه النفس وتتعلق به الأذواق. كل ذلك يُقَرَّبُ إلى أصحاب الجنة، ويُمَدُّونَ به على أكمل ما يكون الإكرام والإنعام.

وهم خلال ذلك النعيم ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، ومعنى يتنازعون: يَتَسَاقَوْنَ، ويتعاطون، ويتداولون الكؤوس الكثيرة الوفيرة، من نَزْعِ الدلو من البئر: إذا استسقى منها. وكانت العرب تتنازع الدِّلَاءَ، بمعنى أنها كانت تتداول الاستسقاء من البئر، لكل دلو. والعبارة هنا كناية عن اجتماع المتقين بمجالس الشرب في الجنة؛ حيث يتعاطون كؤوس الخمر، وهي خمر لا تذهب بالعقل ولا تخمره، بحيث لا يكون في مجالسها لغو ساقط، كما يكون في مجالس خمر الدنيا الخبيثة. واللغو: فاسد الكلام من الهذر والهذيان. ولا يكون فيها تأثيم، وهو: ما يستوجب الإثم والعقاب من الأقوال والأفعال، كالشتم والضرب، مما هو معهود في سكارى الحياة الدنيا. وإنما خمر الجنة لذة

ومتعة، على أكمل ما تكون اللذات والمتع، لكنها رفيعة كريمة، منزَّهة عن اللغو والفساد.

ثم ختم سبحانه وصف مجالس الطعام والشراب في الجنة، بقوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾، والطواف: تكرار المشي على صورة الدوران، بما يفيد أن مجالس أهل الجنة تكون على هيئة الحلقة، أو ما يشبهها، فيطوف عليهم غلمان الجنة بما ذُكِرَ قبلُ من الطعام والشراب، وهو محذوف هنا لدلالة السياق عليه. وغلمان الجنة ليسوا بمماليك، وإنما هم وِلْدَانٌ مخلَّدون خلقهم اللَّه في الجنة لخدمة أهلها، وقوله: ﴿ لَّهُمْ ﴾ ليس معناه أنهم مملوكون لهم، على عادة الرقيق في الدنيا، وإنما معناه أنهم مخصَّصون لهم، وهو اختيار الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو كلام حسن وجيه (١). وهم علاوة على ذلك قد أوتوا من كمال الحسن والجمال؛ ما ترتاح له العين وتنبسط له النفس: ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾، واللؤلؤ: الدُّرُّ، وكونه « مَكْنُونًا » يعني محفوظًا محجوبًا، مصونًا عن الأيدي. من الكَنِّ، وهو: الْحَجْبُ والإخفاء والستر (٢). والمعنى: أنه ما يزال في صدفه، أو أنه مخزون مكنوز بمخابئه عند أهله؛ لنفاسته وغلاء ثمنه وأصالته، فلا يُخْرَجُ من مخازنه إلا عند إرادة الاحتفال به، فيبقى على صفائه وجِدَّتِهِ، وشدة لمعانه.

ثم ختم الخطابُ مشهدَ الجنةِ وأهلِها في هذا السياق، ببيان السبب الذي به فاز المتقون بهذا النعيم المقيم، وقد مَهَّدَ له الرحمن بآية كريمة لطيفة، فيها رَوْحٌ جميل من التشويق والتحبيب، مثير للانتباه ومُرَغِّبٍ في الاستطلاع، فقال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾، وإقبال المرء على صاحبه: التفاته إليه بكليته، بحيث يصير بمواجهته، ينظر بعضهما إلى بعض. وإنما يكون ذلك - في الغالب - عند إلقاء البشارات، أو المناجاة بما يُفْرِحُ ويَسُرُّ. فكذلك يُقْبِلُ أهل الجنة - وهم في مجالس النعيم - بعضهم على بعض، ويدنو بعضهم من بعض، ثم يسأل بعضُهم بعضًا: ماذا كنتم تعملون في الدنيا؟ كيف كنتم في دينكم تسلكون؟ كيف كنتم تتصرفون في

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

(٢) تقول: كَنَنْتُ الشيءَ، إذا خَبَأْتَهُ وسترْتَهُ وأخفيتَه، أَكُنُّهُ كَنًّا وكُنُونًا، فهو مَكْنُونٌ. والكِنُّ: السُّتْرَةُ، والغِمْدُ ووِقَاءُ كُلِّ شيء، والجمع أَكْنانٌ. والأَكِنَّةُ: الأغطيةُ والحُجُبُ. ن. مادة: « كنن » في الصحاح ولسان العرب.

حقوق ربكم؟ كيف نالكم من هذا العطاء الرباني الكريم ما نالكم؟ كُلٌّ يسأل صاحبَه، وكُلٌّ يحكي قصتَه، وكلُّهم جميعًا مهما اختلفت أشكال تعبيرهم، يدورون في الجواب حول حقيقة واحدة: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨ ﴾.

إن معنى الإشفاق راجع إلى معنى الخوف المصحوب برحمة، والحذر المصحوب بعناية، ويُقَدَّرُ فيه دائمًا طرفان اثنان، قد يُذكران معًا، وقد يُكتفَى بأحدهما دون الآخر، فالأول: مُشْفَقٌ منه، وهو الشيء الْمَخُوفُ المحذور المرهوب، والثاني: مُشْفَقٌ عليه، وهو الشيء الْمَخُوفُ عليه المرحوم [1]. كما قال تعالى عن المتقين في سورة الأنبياء: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩]. أي: مشفقون على أنفسهم منها؛ فيحذرون الوقوع فيما يهوي بهم في عذابها.

ومن ثم فالإشفاق هو وازع التقوى ومَوْرِدُهَا ومغذيها. فمعنى أنهم كانوا في أهلهم مشفقين بيانٌ لما كانوا عليه من قبلُ في الحياة الدنيا، من حال الحذَرِ والرَّهَبِ، ومواجيد الخوف من لقاء الله، والاحتياط في الأعمال ليوم الحساب، والتصرف على ذلك الميزان، وبذلك الشعور الإيماني العميق. وعبروا بأنهم كانوا كذلك في أهليهم؛ لأن الإنسان وَسَطَ أهله وأبنائه أكثر تعرضًا للغفلة والفتنة؛ بسبب ما يصحب العيشَ بين الأزواج والولدان، من الميل إلى الراحة والكسل والدعة، ومن الانشغال بمتع الحياة الدنيا وشهواتها، والانغماس في همومها، والتفكير في الكسب والمال. لكن أهل التقوى لم يشغلهم ذلك كله، رغم عدم تقصيرهم في طلب ما كتب الله لهم منه، ولم يفتنهم عن عبادة الله ورعاية حقوقه، والسير إليه تعالى بقلوب وجلة، وأعمال خالصة، وسط ذلك المحيط الدنيوي المغري بالتنعم العاجل الفاني، بل إنهم أناروا بيوتهم بمصابيح التقوى، ولقنوا أهليهم حقيقة الإشفاق من رب العالمين، فصار الأبناء في ذلك لآبائهم تابعين.

فكانت النتيجة أن الله - تقدست أسماؤه - تفضل عليهم بِمَنِّهِ: فَسَلَّمَهُمْ من عذابه، ونجاهم من عقابه، وأدخلهم جنته، مَنًّا منه وفضلًا. فذلك قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ ﴾. والسَّمُومُ: ريح جهنم

(١) مفردات الراغب: مادة « شفق ».

الحارقة. وأصلها اللغوي: ريح حارة تهب في جزيرة العرب، وفي كل بلاد شديدة الحر. وكانت من فرط حرارتها تدخل في مَسَامِّ الجلد فتبخر الماء من الجسم.

وفي الأخير اكتمل جواب المتسائلين عما به كان نجاتهم بقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾، وسياق الكلام دالٌّ على أن مدار الدعاء، كان حول طلب النجاة من النار، والفوز برضا الرحمن. وقد يتسع معنى الدعاء هنا؛ ليشمل كل معاني العبادة، وعلى رأسها التوحيد والإخلاص. وأما الابتهالُ إلى اللَّه بالدعاء رَغَبًا ورَهَبًا، فهو حُدَاءُ العبد السائر إلى ربه، بأقدام الخوف والرجاء. وهذا إنما هو من تجليات الإشفاق الذي كانوا عليه من قبل، وهو علامة التقوى، الصفة الأساس التي وصفهم الرحمن بها في صدر السياق.

ومن ثم ختم المشهد كله بهذا التذييل: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾، وقد قُرِئَتْ (أنه) بفتح الهمزة؛ للدلالة على أنهم كانوا يدعونه؛ رجاءَ بِرِّهِ ورحمتِه، أو لأجل أنه هو البَرُّ الرحيم. كما قُرِئَتْ بالكسر (إنه) على الاستئناف؛ للدلالة على توكيد صفة البِرِّ والرحمةِ في ذاته ﷻ؛ وبذلك استحق أن يُدْعَى ويُرْجَى وحده دون سواه. فالجملة في القراءتين معًا تفيد التعليل، لفظًا أو معنًى. واستعمال ضمير الفصل (هو) مقرونا بـ « اَلْ » الاستغراقية، في اسميه تعالى: ﴿ ٱلْبَرُّ ﴾ و ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾، يفيد تخصيص ذلك به وحده وقصره عليه، بمعنى أنه لا بَرَّ على الحقيقة سواه، ولا رحيم على الكمال غيره. والصفتان اسمان كريمان من أسماء اللَّه الحسنى، فالبَرُّ معناه: الكثير العطاء والإحسان، الوفي الذي لا يُخَيِّبُ ظن عبده به. والرَّحِيمُ معناه: الكثير الرحمة، الذي تَسَعُ رحمتُه كلَّ من تاب إليه من عباده ورجاه.

فاللَّهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي، فاغفر لي وارحمني، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم، اللَّهم اجعلني من عبادك المتقين، المشفقين من يوم لقائك، واجعلني على ذلك من العاملين، ولا تحرمني من فضلك وإحسانك، إنك أنت البَرُّ الرحيم. آمين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن القرآن أمان الأرض ومن عليها. فكما أن الجبال الراسية

بأكنافها، والبحار المتجمعة في محيطاتها، والسماء المشدودة ببروجها ونجومها، كلها توازنات كونية فوق الأرض وحولها، تحفظ الوجود البشري كله وتُؤَمِّنُهُ؛ فإن القرآن المجيد هو كذلك له نفس الوظيفة، إلى جانب وظائفه الدينية الأخرى. فما دام القرآن موجودًا في الأرض، مسطورًا في المصاحف، ومحفوظًا في الصدور، ومتداولًا في المجتمع، فإن الوجود البشري لا يزال في أمان. وهو قصد من مقاصد القَسَم به فيما تدارسناه هنا في سورة الطور، مقرونًا بالثوابت الكونية الأخرى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝ ﴾. وإن اختلال واحد من هذه المقسمات معناه اختلال الكون كله، ونزول العذاب والهلاك بأهل الأرض، وهو قيام الساعة، التي لا تقوم إلا على شرار الخلق، كما سبق بيانه في الحديث الصحيح. وعلى ذلك دلَّ جواب القسَم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾.

وعلى هذا أيضًا دلت السنة النبوية الصحيحة، فقد ثبت فيها أن للقرآن كما للجبال والنجوم، وظيفة تأمينية للوجود البشري العام، وأنه ما دام القرآن يُتْلَى ويحفظ ويدرس؛ فإن الناس سيعيشون في أمان. فإذا بدأ يتلاشى تَدَاوُلُ القرآن، ويتدهور طبع مصاحفه ونشرها، ويتناقص عددُ حُفَّاظِهِ شيئًا فشيئًا؛ فتلك علامة شر وشؤم! وإنه لن تقوم الساعة حتى يُرْفَعَ القرآن كله، فلا يبقى شخص واحد في الأرض يذكر آيةً واحدةً من كتاب اللَّه! وهو ما ورد الخبر به في هذا الحديث النبوي الرهيب، عن الصحابي العظيم حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **يَدْرُسُ الإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ!** [١]، **حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ! وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ﷻ فِي لَيْلَةٍ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ! وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا** » [٢]. وإنما هذا وضع تتهيأ فيه الأرض بمن عليها لقيام الساعة!

وقد ثبت في نصوص أخرى، أن وجود القرآن بين الناس وتمسكهم به – أمانٌ لهم

---

(١) دَرَسَ الشيءُ يَدْرُسُ، هو بمعنى: بَلِيَ وقَدُمَ وعَفَا وتلاشَى.

(٢) رواه ابن ماجه، والبيهقي في شعب الإيمان، والحاكم وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: « وهو كما قالا ». كما صححه في صحيح ابن ماجه، وصحيح الجامع.

من الهلاك العام. فعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ ﷺ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « **أَبْشِرُوا، أَبْشِرُوا! أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟** » قَالُوا: بَلَى، قَالَ: « **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ** [أي: حَبْلٌ] **طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا!** » (١).

الرسالة الثانية: في أن هَمَّ الآخرة هو أعظم هموم الدين، وأن اليوم الآخر هو ما يجب على المؤمن أن يعيش على خوفه ورجائه حياتَه كلها، وقد تقرر ذلك في القرآن بصورة متضافرة، تكاد تشمل كل سوره، من أوله إلى آخره. ويكفي المؤمنَ من ذلك قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومن ثم فإن النبي ﷺ الذي كان خُلقه القرآن، إنما كان يعيش الدنيا للآخرة، وللآخرة فقط! فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: « **اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ!** » (٢). وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ؛ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟ فَقَالَ: « **مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا!** » (٣). وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ! وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ!** » (٤).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وعبد بن حميد في مسنده. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا. ورواه عن ابن عباس ﷺ كل من أحمد، والحاكم، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وابن حبان، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة. وقال الترمذي: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ». كما صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب، وصحيح الجامع، وفي تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه. ثم صححه أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٤) رواه الترمذي، والبزار، وابن حبان، والطبراني في الأوسط عن أنس. كما رواه ابن ماجه وابن حبان، =

الرسالة الثالثة: في أن تقوى اللَّه تقدست أسماؤه، وخشيته، والإشفاق من لقائه، هو أساس النجاة يوم القيامة، وهو خير المطايا، وأقوى الرحال، في السير إلى اللَّه بلا انقطاع ولا فتور؛ لأن أهل التقوى هم أهل الخوف والخشية، وهم أهل الحذر والإشفاق؛ ولذلك بنوا كل دينهم على العزم والحزم. فلا يزالون في حذر من عاقبة أمرهم، واحتياط في شؤون دينهم، لا يخطون خطوة إلا بعد التحقق من موقعها في الدين، وبأي صحيفة يمكن أن تُستنسخ: عن الشمال أم اليمين؟

فالتقوى هي مركب الأنبياء والصديقين والصالحين، وكلما ازداد العبد ترقيًا في منازل الإيمان؛ ازداد رسوخًا في مقام التقوى، واشتد عليه لهب الخوف. وإذا رأيت الإنسان قد فترت تقواه في الدين، رغم كثرة كلامه عن مدارج الإيمان وحقائق الروح؛ فاعلم أنه قد استُدرج إلى مهاوي الهلاك، وأن قَدَمَهُ قد زلت في الطريق عن سكة الإخلاص. وإنما أهل الحذر هم أهل العمل: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

الرسالة الرابعة: في أن عمل الإنسان هو المؤشر الدال على مصيره إجمالًا، وأن ميزان الأعمال يوم القيامة – وهو ميزان حق – يحسم مصير الإنسان بين الجنة والنار، اللَّهم إلا عبدًا عاصيًا نجا من عقاب اللَّه بعفو اللَّه، أو بشفاعة محمد ﷺ بعد إذن اللَّه. فالأصل أن القاعدة جارية بما قال اللَّه ﷻ فيما تدارسناه هنا: ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾. وهذه قاعدة كلية عظمى من كليات القرآن الكريم، تتضافر الآيات الكثيرة على قطعية حكمها واطرادها، كما قال اللَّه – تقدست أسماؤه – في الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وعلى ذلك جرت نصوص السنة الكثيرة الوفيرة، ولنا أن نختار منها ما رواه أبو ذر الغفاري ﷺ عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ من الحديث القدسي،

=عن زيد بن ثابت. ورواه الطبراني أيضًا في الكبير عن ابن عباس. وصححه الألباني في تحقيق سنني الترمذي وابن ماجه، وفي صحيح الجامع الصغير، والسلسلة الصحيحة. ورواية ابن ماجه وابن حبان عن زيد بن ثابت أصح.

قال: « **يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ!** » (١)، وقد تواتر في الكتاب والسنة أن أعمال بني آدم توزن، بميزان يضعه اللَّه يوم القيامة لهذا، ويوكل به ملائكته، قال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. فمن رجحت حسناته على سيئاته كان من أهل الجنة برحمة اللَّه، ومن رجحت سيئاته كان من أهل النار بعدل اللَّه. ويعفو اللَّه عن من شاء من عباده العصاة، الذين ماتوا على عقيدة التوحيد.

الرسالة الخامسة: في أن دعاء اللَّه بأسمائه الحسنى، وتوحيده بها، والتوسل إليه بها إيمانًا وإخلاصًا؛ من أهم المسالك إلى نيل رضاه ﷻ، والدخول في رحمته، والنجاة من عذابه. **فالدعاء بالأسماء الحسنى يحقق للعبد ثلاثة أمور:**

أولها: معرفة اللَّه تعالى بما له سبحانه من صفات الجمال والجلال، فتعلُّم الأسماء الحسنى - كما عرضها القرآن الكريم والسنة الصحيحة - والتحقق بمعانيها الجليلة، ثم التخلق بأنوارها الجميلة، وكذا مشاهدة آثارها في الخلق، وفي سيرورة الوجود الكوني والبشري؛ هو أهم معراج رباني لتلقي العلم باللَّه.

الثاني: تحقيق الثناء على اللَّه، وهو من أبلغ العبادات وأحبها إلى اللَّه، وكلما قرأ المؤمن في صلاته: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من الفاتحة؛ قال الرب ﷻ: « **أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي** » (٢). وكان رسول اللَّه ﷺ يثني على اللَّه ﷻ بما هو أهله، ثم يقول: « **لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** » (٣).

الثالث: أنها من أهم أسباب إجابة الدعاء؛ لما تتضمنه من حقائق التوحيد، والتفريد، والثناء على اللَّه ﷻ؛ ولذلك أُمِرْنَا بالتوسل بها إلى اللَّه في العبادة والدعاء، وهو قوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللَّه، جعلني اللَّه وإياكم من أهل التوفيق والتطبيق.

---

(١) جزء حديث رواه مسلم.

(٢، ٣) جزء حديث أخرجه مسلم.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في التحقق بخلق الإشفاق في الدين، وهو مقام إيماني رفيع، على ما قدمنا في بيان قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾. وقد بينا أيضًا أن معنى الإشفاق من الشيء راجعٌ إلى معنى الخوف منه، كما أن معنى الإشفاق على النفس أو على الغير معناه الخوف عليها أو عليه. لكنه خوف مصحوب برحمة وعناية [1]؛ ولذلك فإن الإشفاق خُلُقٌ إيماني نفسي كريم، يضبط عمل صاحبه على مقام التقوى، وهو المطلوب. **والتخلق به له مسلكان اثنان، على ما ورد في سياقات موارده من القرآن:**

الأول: التعرف على اللَّه ذي الجلال، أي بما له من عظمة الملك والسلطان، وبما له من قوة القهر والجبروت، والقدرة على خلقه وعباده، والغلبة على أمره. ومعرفة أنه ﷻ قد ألزم الخلق بشريعة، وحَدَّ لهم حدودًا، وفرض عليهم فرائض، هي حقوقه الواجبة عليهم؛ بما هو ربهم الذي خلقهم، وأنه سبحانه مُسَائِلٌ عبادَه عن ذلك، وأن الناس إليه راجعون، وبين يديه لا محالة واقفون. فهذه حقائق إيمانية من معرفة اللَّه والعلم به - جل علاه - وجب تغذية النفس بها، وتزكيتها بتدبرها والتحقق بمعانيها، حتى يقع في النفس شعور الخوف والخشية، فتشفق على ذاتها من لقاء اللَّه، وتحذر عذابَه وعقابَه. وقد مدح الرحمن سبحانه عبادَه ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧]. وقال عن الملائكة: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وذلك لما عرفوا من جلال اللَّه ومقامه العظيم. وهو باب كريم، يورث الخوف والخشية والإشفاق، بإذن اللَّه.

الثاني: إدمان مطالعة أخبار الآخرة، وطلب العلم بها، ومعرفة أحداثها وأهوالها، وجميع مراحلها، وما يكون فيها، ابتداءً من أول منزل من منازلها، الذي هو القبر، إلى أن تقوم الساعة ويحشر الناس إلى ربهم، فيقفون بين يديه تعالى لتعاطي الحساب، ثم يفصل الجبار ﷻ بين العباد، ثم يتحدد مصير كل امرئ بما قدر اللَّه له. ولا بد من العلم أنه ما فَصَّلَ الربُّ ﷻ في وصف عذاب جهنم ودركاتها؛

---

(١) مفردات الراغب: مادة « شفق ».

إلا ليكون ذلك غذاءً روحيًّا؛ لاكتساب خُلق الخوف والرَّهَبِ والإشفاق. فهذا كله وما في معناه، هو المسمى بعلم الآخرة، وهو أعظم زاد - بعد العلم بالله - للتحقق بمقام الإشفاق. وقد جمع الله تعالى المسلك الأول والثاني في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

فمن اجتمع له هذا وذاك؛ كان - إن شاء الله - من أهل الإشفاق في الدين. ورجا أن يكون يوم القيامة من الآمنين؛ لأن من خاف في الدنيا أَمِنَ في الآخرة، كما هو متواتر في الكتاب والسنة، وكما هو مفهوم السياق الوارد ههنا في سورة الطور: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ ﴾.

اللَّهُمَّ إنَّا نَسْتَعِينُكَ ونَسْتَغْفِرُكَ، ونُثْنِي عَلَيْكَ الخيرَ كُلَّهُ، ونَشْكُرُكَ ولَا نَكْفُرُكَ، ونَخْلَعُ ونَتْرُكَ مَنْ يَفْجُرُكَ، اللَّهُمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ، ولَكَ نُصَلِّي ونَسْجُدُ، وإليكَ نَسْعَى ونَحْفِدُ، نَرْجُو رحمتَكَ، ونخشَى عذابَكَ، إنَّ عذابَكَ الجِدَّ بالكفارِ مُلْحقٌ!

* * *

المجلس الثاني

في مقام التلقي لبراهين التحدي، والتحطيم لكبرياء الكفرة،
وكشف عبديتهم القسرية لله رب العالمين،
وأنهم واقعون في قبضة الجبار، لا محيص لهم من عذابه.
ثم بيان مسلك الداعية إزاء كيدهم،
وشروط السير إليه تعالى دينًا ودعوةً.

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾.

٢ - البيان العام:

هذا هو القِسْمُ الثاني من سورة الطور، وقد جاء مفصلًا لما ورد فيها من التحدي بحقائق اليقين، من اليوم الآخر والعذاب الواقع بالمكذبين. وهو أكثر ارتباطًا بصدر السورة الأول؛ حيث أقسم الله ﷻ بعظائم الأمور المذكورة، على: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ

لَوَٰقِعٞ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝﴾، إلى آخر آيات العذاب. وأما البشارات الواردة بعدها فإنما هي ملحقة في المعنى بهذه النذارات؛ لأنها هي تأمين وتطمين للمتقين، الذين وقر الخوف في قلوبهم، بعد سماع النذير، فكانوا في أهلهم مشفقين. فالتحدي بحقائق النذارة، والترهيب بها، هنا في سورة الطور هو أساس الخطاب، وعنه تفرع كل شيء فيها. وبذلك وجبت الذكرى، ومخاطبة المكذبين.

ومن ثم جاء هذا القسم الثاني مرتبطًا بالأول؛ بما يشبه الاستنتاج والتعقيب على ما سبق بيانه من حقائق اليوم الآخر، وبراهينه، ومَشاهده، فخاطب الرحمنُ - جل ثناؤه - رسولَه الكريم ﷺ بالتذكير، وعدم الالتفات إلى ما يرميه به المكذبون من تهم، وما يثيرون حوله من أراجيف، مُسَلِّحًا إياه ببراهين التحدي، وقوارع التصدي! فقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ۝ ﴾، والكاهن: هو الذي يتلقى أخبار الجن فيخبر عن المغيبات. وأما المجنون فهو الذي يعتريه مَسُّ الجن؛ فَيُسْلَبُ عقله كليًا أو جزئيًا. والمعنى العام للآية توجيه دعوي من الله لرسوله ﷺ، وتثبيت له في معركة الحق، فكأنه قال: فَذَكِّرْ يا محمد بهذا القرآن، وبما فيه من حقائق النذارة، والوعيد بيوم الحساب، كلَّ من تلقاه، واثْبتْ على منهجك من الوعظ والتذكير، فما أنت بما أنعم الله عليك من النبوة، وكمال الفطنة ورجاحة العقل؛ بكاهن ولا مجنون، كما يفتريه عليك المفترونَ، ويُرْجِفُ به الْمُرْجِفُونَ. كلَّا، كلَّا! بل أنت نبي حق، تتلقى الوحي من السماء، وتُبلغ الناسَ كلماتِ اللَّه ورسالاتِه.

وهذه الآية ربطٌ بأول السورة كما ذكرنا، وفتحٌ لفصل جديد من الخطاب، يرتقي بوتيرة التحدي إلى أعلى مراتبه، وأشد حِجَاجِهِ، وأقوى براهينه؛ مما جعل آيات هذا القسم الأخير تصير كلها تقريبًا، معاول تحطم كبرياء هؤلاء المكذبين الفجرة، أو كأنها صخور عظيمة من صخور الطور، تتنزل على تلك الرؤوس القاسية العنيدة، فترضخها رضخًا؛ ولذلك قال بَعْدُ مباشرةً: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ۝ ﴾!

وقد ذكر أهل اللغة أن عبارة « أم » المتكررة هنا في سورة الطور تفيد الإضراب الانتقالي، أي الإضراب عن كلام والانتقال إلى غيره، فهي بمعنى « بل »، مع دلالتها

على الاستفهام الإنكاري والتوبيخ [١]. فقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝ ﴾ هو انتقال من إبطال قولهم: « كاهن أو مجنون »، إلى إبطال تهمة أخرى، وهي قولهم: « شاعر ». والمعنى: بل إن منهم من يقول: هو شاعر. وقد أنكره عليهم إنكارًا شديدًا بصيغة الاستفهام الذي تفيده « أم » كما قررناه. كأنه قال مُنْكِرًا ومُعَجِّبًا: أتقولون هو شاعر؟ وفي ذلك من التهديد والوعيد ما فيه.

وتذكر كتب التفسير في قصة ذلك، أن رؤوس قريش اجتمعوا في دار الندوة بمكة؛ للتشاور في كيفية مواجهة محمد ﷺ ودعوته، فقال بنو عبد الدار: إنما هو شاعر نتربص به ريب المنون، فسيموت كما مات الشعراء قبله: زهير، والنابغة، والأعشى، وينقطع أمره [٢]. هكذا تصوروا المسألة بهذه السذاجة. والتَّرَبُّصُ، معناه: الترقب والانتظار. ورَيْبُ الْمَنُونِ: حوادثُ الدهر، ويُكنى بها عن الموت والهلاك. وَوَجْهُ تهمتهم إياه بالشاعرية، هو أنهم كانوا يَلْقَوْنَ من الشعراء الهجائين في الجاهلية عنتًا، فإذا ماتوا استراحوا منهم، فظنوا أن ما يتلوه عليهم النبي ﷺ من القرآن الكريم، وما فيه من النذارة والوعيد هو من هذا القبيل! خاصة وأنه سَمَّى بعض طغاتهم مثل أبي لهب، وجعل لعنه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة. ومن ثم قالوا: هو شاعر نتربص به ريب المنون!

لكن الرد جاء أقوى مما يتصورون، لقد رفع القرآن في وجههم رهان التحدي عاليًا، فقال تعالى: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝ ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﷺ، ترقبوا وانتظروا فإنني أنا أيضًا أترقب كما تترقبون، وأنتظر كما تنتظرون! وسنرى من سيهلك منا وتذهب ريحه، وينقطع أمره. ألَا ما أجهلهم وأطغاهم! يترقبون موته ﷺ، وينسون أنهم قد يموتون قبله، وكذلك الأمر كان! إن محمدًا ﷺ كان على يقين من وعد ربه بهلاك طغاتهم هم، وقد هلكوا في غزوة بدر الكبرى، إلا من كتب اللّٰه له الإسلام، وكان ﷺ على يقين من انتصار دعوته، وهيمنتها على العالم كله. لقد كان النظر الجاهلي إلى دعوة الإسلام سطحيًّا بئيسًا، فأولئك الطغاة ما عرفوا حقيقة معنى النبوة، ولا معنى الرسالة، ولا عرفوا بأن الدعوات الربانية لا تموت أبدًا! وإنه لتحدٌّ كبير يربك النفس الكافرة، ويزلزلها: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝ ﴾.

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير، للعلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله.

(٢) ن. تفسير الطبري للآية.

ثم يزيدهم تسفيهًا وتجهيلًا؛ إذْ ساءلهم مُنْكِرًا ومُعَجِّبًا مرة أخرى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أحقيقةٌ أنهم فكَّروا بأحلامهم، أي بعقولهم وألبابهم، فقالوا ما قالوا؟ أمثل ذلك الكلام يصدر عن عاقل لبيب؟ كلَّا! بل إن كفرهم الطاغي على قلوبهم، قد أعمى بصائرهم وسَفَّهَ عقولَهم، فطغوا في عنادهم وكبريائهم وجحودهم؛ فلم يعودوا ينطقون إلا جهلًا وهَذَرًا! ثم تنتصب مساءلةٌ جديدة وإنكار جديد: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، بمعنى: بل إن منهم من يقول: إنما هو مُفْتَرٍ على اللَّه، حاشاه ﷺ. فقولهم: ﴿ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ هو بمعنى اختلقه، فالتَّقَوُّلُ: هو الكذب والافتراء، ونسبة القول لمن لم يقله. بمعنى إنه اختلق هذا القرآن من عنده، ولم ينزل عليه من السماء شيء! فرد عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، لا يؤمنون باللَّه حقًّا وصدقًا، على عكس ما يزعمون من عبادة اللَّه وخدمة البيت الحرام. فلو كانوا يؤمنون باللَّه حقيقة لنظروا في هذا القرآن متجردين عن الهوى، ولأدركوا أنه كلام اللَّه رب العالمين! وهم عرب أعرف بالشعر والكهانة والسحر، تلك ثقافتهم؛ ولذلك فقد كانوا أعلم بأن هذا القرآن ليس من تلك الصنوف جميعًا، وكانوا أعلم بأن محمدًا ﷺ مبرأ من الكذب تمامًا، يعرفون ذلك كله كما يعرفون أبناءهم. فأي إيمان باللَّه هذا الذي يَدَّعُونَ؛ والحال أن أهواءهم الطاغية تمنعهم من تصديق رسوله الكريم ﷺ وتلقي رسالاته؟

ومن ثم فقد استطرد في التحدي، بل رفع من وتيرته وشدته؛ إذ طالبهم بالإتيان بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين! قال ﷻ : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذه هي الحجة الدامغة، والتحدي المعجز الفاضح! فإذا كان هذا النبي شاعرًا – كما تزعمون – أو كاهنًا، أو ساحرًا؛ فإن منكم عباقرة الشعراء، وكبار الكهان والسحرة، فتفضلوا..! أَبْدِعُوا – إن استطعتم – شيئًا يشبه هذا القرآن الكريم، وانظموا حديثًا أو كلامًا على وِزَانِهِ، إن كنتم صادقين في دعواكم، مستيقنين مما تزعمون! ومن ذا قدير على الإتيان بكلام يحيط بخلق السماوات والأرض، وصفًا وتقديرًا، ويخبر عما كان وما سيكون، بدقة متناهية، وإحاطة شاملة، ويسوق من حِكَمِ التعريف باللَّه والعلم به، وأخبار الرسل والأنبياء عبر التاريخ، وحقائق التدبير والتشريع، ما تحار منه العقول، وتخضع له القلوب؟ من ذا قدير على ذلك كله إلا الرب الذي خلق هذا الملكوت؟

وبقيت معجزة القرآن خالدة، تخاطب بهذا التحدي العظيم كلَّ كافر به - من أي ملة كان - إلى يوم القيامة!

ويرتقي الحِجَاجُ إلى مستوى أعلى مرة أخرى، وإلى تَحَدٍّ أشد، إنه التحدي بحقيقة « الخالقية »، ذلك السر الإلهي العظيم، والوصف الرباني الكريم، الذي به كان الله ﷻ خالقًا لكل شيء. و « الخالق » اسم من أعظم أسماء الله الحسنى، ومن أجلِّها وأبهرها. وبه وقع التحدي ههنا في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾. والْخَلْقُ: إبداع الشيء وتكوينه وإخراجه من العدم إلى الوجود. وهو مفهوم من أغمض المفاهيم وأعقدها؛ لأنه سرٌّ من أسرار القدرة الإلهية العظيمة، تتحطم العقول دون معرفة كنهه! وإنما الذي نعرفه منه هو تجلياته، فيما نشاهده في أنفسنا، وفيما حولنا من الخلائق في الأرض وفي الآفاق.

لكنها حقيقة كبيرة نعرف وجودها يقينًا؛ لأننا نحن أنفسنا وُجِدْنَا في هذا العالم، بعد أن لم نكن شيئًا مذكورًا. ومن ثم توجه التحدي بالتقريع والتوبيخ إلى أولئك الكفرة الجاحدين، مسائلًا إياهم ومحاكِمًا: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ بمعنى: هل خُلِقُوا من غير خالق؟ أم أنهم هم الذين خَلَقُوا أنفسَهم بأنفسِهم؟ ألا يتدبرون هذه الحقيقة الصارخة؟ ألا يرون أنهم مخلوقون كسائر الخلق، يولدون ثم يموتون؟ ألا يرون أنهم مجرد عبيد فقراء ضعفاء؟ وهذه الآية هي التي أفزعت جُبَيْرَ ابْنَ مُطْعِمٍ ﷺ، لما سمع تلاوتَها من النبي ﷺ، وهو آنئذ ما يزال على شركه؛ حتى كاد قلبه أن يطير، فكانت تلك الصدمة أول خطواته النفسية نحو الإسلام [(١)].

ثم قال سبحانه مستطردًا في التحدي بصفة الخالقية: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، أي: هل يستطيعون الزعم بأنهم هم الذين خلقوا هذا الوجود كله وأبدعوه، سماواته وأَرَضِيه؟ وتعليل هذا التحدي هو أنهم بما كانوا يتكبرون في سلوكهم وعنادهم، وبما كانوا يحسمون القول ويجزمون الأحكام بكبرياء، في طبيعة هذا القرآن، وفي الرسالة والرسول؛ يجعلون أنفسهم كأنما هم محيطون بما أحاط به رب هذه الرسالة سبحانه ﷻ ! فخاطبهم الله بهذا التحدي

---

(١) سبق إيراد القصة بشواهدها في تقديم السورة.

الكبير، بدعوتهم إلى مقاربة صفة الخالقية، والتفكر في شؤون الربوبية؛ لتحطيم غرورهم، وإخناس كبريائهم، وإلزامهم حدهم من العبدية البشرية الضعيفة الحقيرة؛ ولذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى: ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، أي لا يقين لهم، لا في إيمانهم الإجمالي بالله، ولا فيما يقولون ويدَّعون من الأباطيل والأراجيف، وإنما هم يخبطون خبط عشواء، ويحاولون رد الحق بما وجدوا من كلام، مع علمهم بأن لا فائدة من ردهم وتهممهم، اللَّهم إلا التعبير عن رفضهم للحق، وإصرارهم على كفرهم وأهوائهم الجاهلية!

وظاهرٌ أن سياق التحدي بحقيقة الخالقية، راجع إلى إبطال ما ورد في أول السورة، من تكذيبهم بالبعث والنشور؛ لأن الْمُـقِرَّ بقدرة اللَّه ﷻ على الخلق؛ مُلْزَمٌ بالإقرار بقدرته تعالى على الإعادة، وهو معنى البعث الذي ينكرونه تعنتًا واستكبارًا.

ويستمر خطاب التحدي في تقريع الطغاة، وتجريدهم من كل أوهام التحكم والسيطرة، والحكم على الحقائق بما يشتهون، فيقول رب العزة ﷻ : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ بمعنى: هل هم يتصورون أنفسهم مالكين لخزائن رحمة اللَّه؟ يَهَبُونَ النبوة لمن يحبون، ويمنعونها مَنْ لا يحبون؟ أهم يتحكمون في عطاء اللَّه من الرحمات والأرزاق؟ أم هم يسيطرون على تدبير شؤون الملك والملكوت؟ ألا ما أجهلهم بالله، وبأنفسهم الحقيرة الفانية! تلك حقيقة تقريعية تفهم من هذه الإنكارات الشديدة؛ ولذلك ناسب أن يتبعها هذا التحدي: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾، بمعنى إذا عجزوا عن دَعْوَى الربوبية أو بعض صفاتها، فمن أين لهم إذن بهذه الدعاوى العريضة على النبوة وصاحبها؟ من أين لهم بهذه التخرصات على كتاب اللَّه وعلى رسوله ﷺ؟ أم لهم سُلَّمٌ يرتقون به إلى السماء، فيستمعون فيه إلى حديث الملائكة، على عادة شياطين الجن، فالتقطوا من أخبار الغيب ما يخالف حقائق القرآن؟

وقد عَبَّرَ بالسُّلَّمِ تهكمًا منهم وسخريةً بهم؛ لأن السُّلَّمَ هو آلة الصعود، قد تكون من خشب، أو حديد، أو بناء، أو غير ذلك، وتصور نصب السلم في الفضاء بهذه الصورة الساذجة فيها من التهكم ما فيه. مع العلم بأن السماء المقصودة بالتسمع أعلى بكثير حتى من هذا الفضاء الخارجي، المليء بالأفلاك والنجوم، كما بيناه في

سورة الذاريات. ومع ذلك تحداهم به فقال ﷻ: ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ وهو تحدٍّ مستمرٌّ إلى يوم القيامة، قائم على إنسان هذا العصر، الذي صنع الأقمار الاصطناعية، والمراصد الفلكية الضخمة، والمراكب الفضائية الخارقة للفضاء الخارجي! كلهم جميعًا يقال لهم: ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ومعنى السلطان هنا: الحجة والبرهان، وكونه « مبينًا » أي: دالًّا بقوة على صدق الدعوى، بأمارات يشاهدها الناس ويتحققون منها. والمعنى: فإذا زعموه فليأت هذا الذي تولى كبره منهم وادعاه، وَلْيُدْلِ بحجته وسلطانه، وليقرأ علينا خَبَرَهُ، إن كان من الصادقين! كلَّا، كلَّا! فلقد سُقِطَ في أيديهم، وإنَّ كهنة العرب أنفسهم قد تنزلت عليهم شياطينهم قبيل البعثة وفي أول عهدها، يصعقها الجزع والفزع، فأنبأت أصحابَها من الإنس، بأن السماء قد ضُرب عليها حصار من حَرَسٍ ملائكي شديد؛ لتأمين نزول الوحي إلى الأرض، وإنه قد بُعث في الناس رسولٌ كريم من رب العالمين، كما تواترت به الأخبار من الكتاب والسنة (١). فلا قدرة لأحد منهم ولا من غيرهم، أن يدعي أنه سمع كلمة واحدة من الغيب، تنقض شيئًا من حقائق هذا القرآن المجيد. وأنى لهم وكيف؟ وهذا الكتاب قد نزل من بحر الغيب الأعلى: اللوح المحفوظ، وسلطانه قائم في نفسه وبذاته، منتصب في خطابه، يرفع راية التحدي إلى يوم الدين.

ويحطم القرآن فرية أخرى من عقائد العرب، وهي زعمهم بأن الملائكة بنات اللَّه، سبحانه وتعالى عما يصفون! فكانوا يعبدونهم من دون اللَّه؛ توسطًا بهم إلى اللَّه! والعجيب أنهم كانوا يكرهون الإناث لأنفسهم، ويتطيرون بالبنات، إلى درجة القيام بجريمة وَأْدِهِنَّ وقتلهن بعد ولادتهن! وإن أسوأ يوم عند أحدهم هو يوم يخبرونه بأن زوجته وضعت أنثى! فيا ويلها ويا ويل ما وضعت! قال تعالى في سورة النحل:

(١) من ذلك ما ورد في صحيح البخاري، أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى رجلًا - في خلافته - كان يشتغل بالكهانة في الجاهلية قبل الإسلام، فدعاه ثم سأله: (مَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ؟ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا، وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا؟! قَالَ عُمَرُ: صَدَقَ، بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ! يَقُولُ: يَا جَلِيح، أَمْرٌ نَجِيح، رَجُلٌ فَصِيح، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! فَوَثَبَ الْقَوْمُ، قُلْتُ: لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا، ثُمَّ نَادَى: يَا جَلِيح، أَمْرٌ نَجِيح، رَجُلٌ فَصِيح، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! فَقُمْتُ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ!) رواه البخاري.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]. فكيف يستسيغون هذا التناقض الصارخ في نسبة الذكور لأنفسهم، ونسبة الإناث للَّه؟ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا! كيف؟ وقد تنزه ﷻ عن الصاحبة والولد! فذلك قول اللَّه تعالى هنا في سورة الطور، في سياق التحدي والتوبيخ: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۝﴾ ما هذا المنطق؟ ما هذا التهافت؟ ما هذا السفه؟ ما هذا الجهل المركب باللَّه؟

وإني لأعجب من الإنسان الغربي المعاصر، الذي بلغ من التقدم العلمي، في تسخير قوانين الطبيعة وسننها، وتطوير التفكير الرياضي الصارم، والتحليل الفيزيائي الدقيق، إلى مستويات ما كانت تحلم بها البشرية من قبل، ومع ذلك تجده في تفكيره الديني حبيس ظلمات الكنيسة وخرافاتها، ينسب للَّه الصاحبة والولد! عجبًا! ألا ما أتعس الإنسان بغير إسلام! وما أسفه عقله ولو كان رأس العباقرة! ثم ما أتعسه ولو ملك الدنيا وما فيها! وما قيمة سيطرة مادية في الدنيا، وما هي إلا وهم عابر من الأوهام العابرة، تنتهي بعد نهاية عمر الإنسان القليل القصير؟

وسِرُّ سَوْقِ هذه الآية في هذا السياق، هو بيانُ أن من كان عقله هكذا، من السفه والتردي بحيث يؤمن بهذه الموازنة المختلة الشنيعة بين الذكور والإناث، أو ينسب إلى اللَّه الولد والزوجة؛ لا يبعد في حقه أن لا يبصر براهين البعث والنشور، لبلادته الروحية، وسذاجته الفكرية، وهو لذلك أجدر بأن يكون ليوم الدين من الجاحدين المنكرين!

ثم يتوجه بالسؤال والإنكار على الكفار مرة أخرى، من خلال مخاطبة رسوله الكريم ﷺ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، بمعنى: أم أنك يا محمد تطلب منهم أجرة مالية معلومة، أو فائدة مادية ترجوها منهم؛ مقابلَ ما تبلغهم إياه من حقائق الإيمان، وجزاءَ ما تلقي عليهم من نذارة وبشارة؛ فهم إذن عاجزون عن اتباعك؛ بما أثقلت عليهم من الثمن الباهظ، وبما أوقعتهم فيه من مَغْرَمٍ ثقيل، لا يجدون له سدادًا! والْمَغْرَمُ: مصدر ميمي، معناه: ما يُفرض على الإنسان دفعُه من المال؛ عِوَضًا عما استفاده، أو عما أفسده، كضرائب الدولة ومغارم القضاء. كلَّا كلَّا! إنهم يعلمون جيدًا أن محمدًا ﷺ لا يطلب مالًا، ولا جاهًا، ولا سلطانًا، ويعلمون يقينًا أنه صاحب دعوة ورسالة، يحمل إلى الناس كلمات اللَّه ويبلغهم رسالاته، وهو يقول

كما قال الأنبياء قبله: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. لكنه الهوى الطاغي، وحب البقاء على شرك الجاهلية، الذي به سادوا ظلمًا على الخلق، وبه استعبدوا الناس بغير حق، هو الذي منعهم من قول كلمة الحق، وحجبهم عن اتباع الهدى والنور.

ثم ينتصب بعد ذلك برهان إنكاري، يسائلهم عن مصدر معلوماتهم مرة أخرى، لكن بطريقة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾، وهذه آية تكر على جميع ما قبلها من التهم والدعاوى بالإبطال، إنها ليست تكرارًا معنويًا لقوله تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ ... ﴿٣٨﴾ ﴾، بل هي أعلى من ذلك وأشمل؛ ولهذا عادت على جميع ما تقدمها من الإنكارات؛ لأن فيها دعوى الربوبية، أو على الأقل دعوى الحضور في الملأ الأعلى. والمقصود - إن شاء الله - أن الله ﷻ أنكر عليهم بهذه الآية جميع ما تقدم لهم من أقوال، كأنه قال: أم عندهم مفاتح الغيب الكلي، على ما وصف الله ﷻ نفسه، في قوله من سورة الأنعام: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أو هل عندهم الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ، فهم يستنسخون منه كما تستنسخ الملائكة العندية، وتكتب ما أذن الرحمن لها من مقادير التدبير الإلهي للكون، وشؤون الوحي والنبوات؟

وذلك أن الذي يتبجح بمثل تلك الدعاوى العريضة المغرورة، في حق الله ورسوله، وحق كتابه، وما جاء فيه من حقائق التوحيد، والإيمان بالبعث والنشور؛ إنما هو مُدَّعٍ بشكل غير مباشر لمثل هذا المقام العظيم! وهذا بقدر ما فيه من التوبيخ والإنكار؛ فيه تهديد ووعيد؛ إذ إنهم تسلقوا من الجبال العالية ما لا طاقة لهم به، فأنذرهم الجبار ﷻ أن تزل بهم القدم، فيكونوا من الهالكين، وليس ينتظرهم من تحتهم سوى عذاب الجحيم! وبذلك ختم الرد على المقولات كلها.

ثم شرع بعده في رد المفعولات، ومواجهة الغدرات، وفضح النيات، والمكائد المدبَّرات، فقال تعالى: ﴿ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾، وهذا وعيد جارٍ على أهل الكيد للدين وأهله، من الطغاة والكفار إلى يوم القيامة. والكَيْدُ: التدبير المخادع بقصد الإساءة والأذى، والتخطيط الماكر لإيقاع الضرر بالغير. وقد كانت قريش تجتمع بدار الندوة في لقاءات مغلقة، لتضع خططًا خفية للقضاء على

محمد ﷺ ودعوته، بمحاولة اغتياله، أو ضرب الحصار عليه، كما حصل في قصة حصار بني عبد المطلب وبني هاشم جميعًا، في شِعْبِ أبي طالب بمكة قبل الهجرة، إلا أبا لهب وبنيه فإنهم انحازوا إلى قريش. ومن ثم فإن اللَّه ﷻ توعدهم بأنهم هم الْمَكِيدُونَ، أي بأن كيدهم ومكرهم، سيعود عليهم هم أنفسهم بالخسران والهلاك. وهذا إعلام لهم بأن رب العزة سبحانه يكيد لهم، كما يكيدون لرسوله ﷺ، ويمكر بهم من فوق سبع سماوات، وأنهم واقعون في الهلاك قريبًا! فلينتظروا هل من إِلَهٍ من آلهة الباطل والزور، بمقدوره أن يحميهم، أو ينصرهم من اللَّه رب العالمين!

ومن ثم قال بعدُ مباشرةً: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، وهذا في نفس الوقت تبكيت لهم وتقريع، على ما هم عليه من الظلم الأكبر، وهو الشرك الأعظم باللَّه؛ إذ عبدوا من دونه آلهة أخرى، ما أنزل اللَّه بها من سلطان، ولذلك قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: تَنَزَّهَ اللَّهُ وترفَّع وتعالى، عن أن يكون له شريكٌ في الْمُلْكِ، وفي ربوبيته للعالمين. فهو اللَّه الواحد الأحد، لا والد له ولا ولد، ولم يكن له كفوًا أحد، كل معبود سواه باطل، وكل شيء غيره زائل، وهو الإله الحق، المعبود وحده بحق. فما أضل الشرك وأهله، وما أبعدهم عن الهدى والنور! وإنما الشرك هو سبب ما وقعوا فيه من جميع هذه الافتراءات والمجازفات، فكانوا بذلك من الهالكين.

ثم انتقل الخطاب في الخواتيم إلى بيان طبيعة هؤلاء الكفار الذين سلط عليهم الرحمن هذه التحديات والتقريعات، فكشف أنهم من العناد والجحود؛ بحيث لو عُلِّقَ العذاب على رؤوسهم لما آمنوا ولما خضعوا! فأي حوار ينفع بعد ذلك مع هؤلاء؟ قال تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾، والكِسْفُ أو الكِسَفُ: جمع كِسْفَةٍ، وهي: القطعة من الشيء الممزق أو المنكسر [1]. والمقصود أنهم لو شاهدوا بأعينهم كِسَفَ السماء ساقطة عليهم؛ لما آمنوا أنه عذاب اللَّه قد نزل بهم! ولقالوا كما قال الكفرة قبلهم، ممن نزل بهم عقاب اللَّه: إنه مجرد سحاب أسود محمل بالأمطار، تلبد وتراكم بعضه على بعض.

وما زلنا في بلاد المغرب الأقصى نذكر حادثة مثل هذا؛ إذ تلبدت الغيوم في فصل

---

(١) الصحاح، واللسان، مادة: « كسف ».

الصيف، فوق مخيم جبلي شهير، عُرِفَ بالفواحش والخمور والفجور، فظن أهل المخيم - وكانوا بالمئات - أنه مطر عابر، وأنها سحابة صيف، ولكن ما هي إلا لحظات حتى تدفقت السيول الرهيبة من الجبال، وغمرت الوادي كله بطوفان لا قِبَلَ للناس به، ولا شوهد في تلك المنطقة على الإطلاق! فهلك خلق كثير، وجرفت السيول عددًا من السيارات والمخيمات، فصارت الحادثة ذكرى للذاكرين. ولكن ما أقل المعتبِرين مع الأسف الشديد! وما تزال كوارث العالم تتنزل - من حين لآخر - بعذاب الله على بلاد كثيرة. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا حتى يحبون أن يعلموا! نسأل الله النجاة لنا ولكم وللمؤمنين.

كذلك كان النموذج الذي حاوره القرآن من كفار قريش، خاصة كبار طغاتهم، كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة، وأمية رأس الكفر، وغيرهم. ولذلك قال الله ﷻ لرسوله في تتمة الآيات: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، أي فاتركهم يواجهون مصيرهم الأسود! والتعبير بفعل الأمر هنا: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾، ليس معناه فدع دعوتهم، ولا اترك نصيحتهم، وإنما هو تعبير مجازي يفيد الوعيد الشديد، إنه كناية عن التهديد والترهيب. كما تقول لمن يُقْبِلُ على خطر وهو لا يسمع النصيحة: دعوه! اتركوه! وهو لا يعني اتركوا نصحه ودعوته، وإنما هو تقريع وتوبيخ؛ مبالغةً من الناصح في بيان الخطر المقبل بجهله عليه. وإنما يقال له ذلك بعد أن يمرد على العناد والمكابرة [١].

وحتى لو فرضنا أن الآية فيها إشارة إلى أن الله - تقدست أسماؤه - قد طبع على قلوب أولئك الطغاة بالكفر، وتحدد عند الله مصيرهم، وانتهى كل شيء؛ فإنها لا تلغي الاستمرار في القيام بواجب البلاغ؛ فلعل من بينهم من ليس من شاكلتهم، وإن كان ما يزال معهم على كفره، ولعل الله ينفعه بالتذكير. أما أولئك الطغاة ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، وهو يوم القيامة، عندما يصعقون بالعذاب والعياذ بالله. والصَّعْقُ: الوقوع في إغماءة أو هلاك؛ بسبب ضرر خطير نازل بالإنسان، مأخوذ من الصاعقة الرعدية. وإضافةُ لفظ « يوم » إلى الضمير العائد على

---

(١) ن. تفسير الطاهر ابن عاشور للآية.

الكفار: ﴿ يَوْمَهُمُ ﴾؛ هو للدلالة على حتمية وقوع ذلك اليوم، وملابسته لهم قطعًا، وشهودهم لعذابه. وإنما عبر بذلك؛ بسبب ما سبق من إنكارهم إياه، وسخريتهم من خبره.

ثم وصف حالهم يومئذ، وما يكونون عليه من الذلة والهوان، والخزي والخذلان، فقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾، وفيه توبيخ لهم وتهكم؛ بسبب ما سبق لهم من كيد لرسول الله ولدعوته، وبيان أن ذلك الكيد هو الذي أوردهم موارد الهلاك في جهنم، فلا ناصر لهم اليوم، ولا منقذ لهم من عذاب الله، قد ضل عنهم كل ما كانوا يعبدونه من دون الله، وباؤوا بأشنع الخذلان والعياذ بالله.

ثم ختم هذه الملحمة الكبرى من التحديات، بوعيد من عذاب دنيوي قريب، سوف يرونه ويذوقونه قبل يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾، بمعنى: وإنَّ لهم - بما ظلموا؛ أي: أشركوا بالله أولًا، ثم بما تعدوا على رسوله ﷺ، وعلى المستضعفين من المؤمنين - عذابًا دون عذاب الآخرة وقبله. وفعلًا، قد نزل بهم من عذاب الله ضروب من البلاء، منها القحط والجفاف، وتسلط الأوبئة والأمراض، ثم حصد رؤوسهم في الحروب والغزوات! لكنهم مع ذلك لم يعلموا أنما ذلك كله رسالات من عذاب الله، وتجليات لغضبه عليهم ونقمته، فلم يحسنوا قراءة الإشارات من تلك الرسالات. وإنما عدم علمهم بذلك ناشئ عن كبريائهم وطغيانهم، واعتصامهم بكفرهم وأهوائهم.

هذا، وقد يدخل في معنى العذابِ الدُونِ عذابُ القبر؛ لأنه عذاب واقع قبل البعث والنشور. وهو عذاب مستقل عن عذاب جهنم وسابق عليه. أعاذنا الله وإياكم منه، ومن عذاب جهنم، ومن كل عذاب. آمين.

ثم جاءت خاتمة السورة كلها، عبارة عن التفاتة رحمانية كريمة، تتوجه إلى شخص الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - في غمرة مواجهته للطغاة، على ما يجد ﷺ من المشقة في حمل أمانة هذه الرسالة العظمى، التي ناءت بها السماوات والأرض والجبال، رسالة كلفه الله بها من فوق سبع سماوات، فأخذها ﷺ تلقيًا من عند الله، وبلاغًا للعالمين، فجاهد بها في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين. ولقد صبر - عليه الصلاة والسلام - على ما وجد في سبيل ذلك من العنت والأذى، صبر أولي العزم من الرسل، وزيادة.

فمن هنا تنزلت عليه هذه الخواتيم من سورة الطور، فجاءت مرتبطة بسياقها الجزئي الخاص، وبسياق الدعوة الكلي العام، وكانت الآيات كلمات ذات جمال وجلال، تنزلت عليه ﷺ بالتأنيس، والتثبيت، والتطمين، والتأمين، وإلقاء أنداء السكينة والسلام. ثم وجهته إلى مسلك الرضا بالله، وحكمه وقضائه. كما وجهته إلى مورد التزود الكريم، من مَعِينِ الصبر، والذكر، والصلاة، مما هو الأساس المساعد على تحمل مشاق الدعوة، والصبر على تكاليفها الكبيرة، في طريق الجهاد الطويل. قال جل ثناؤه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩ ﴾، بمعنى: واصبر يا محمد ﷺ على ما قضى الله لك به وحكم، من تكليفك بأمانة النبوة ووظيفة الرسالة، وحمل ما لم تطق الجبال حمله!

ولقد صبر محمد ﷺ، ولقد جاهد محمد ﷺ، ولقد بَلَّغَ محمد ﷺ، ولقد دعا إلى الله بالليل والنهار، وقام بحقوق ربه على أكمل وجه وأرضاه، فكان بذلك سيد الأولين والآخرين، فلم يكن يُرَى بالنهار إلا داعيًا، أو غازيًا مجاهدًا، أو عابدًا لله في مسجده، أو مُذَكِّرًا لأصحابه ومعلمًا. ولم يكن يُرَى بالليل، إذا هجعت النفوس، إلا قائمًا بين يدي ربه متبتلًا، ينتصب وحده في جوف الليل، عابدًا باكيًا حتى تتفطر قدماه! فإذا هجع نامت عيناه ولم ينم قلبه، وإذا قام قام ذاكرًا لله على كل حال، لا يفتر عن التسبيح والاستغفار. كثير الصوم، دائم الغزو في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله. بأبي وأمي هو من رسول كريم!

تلك لمحة من صبر رسول الله ﷺ، ولقد كان أكمل الصابرين، في دينه ودعوته، ما تردد ولا تلكأ قط! وبذلك أمره رب العالمين: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾، بمعنى: فإنك بمرأى منا، وبمشهدٍ مُرَاقَبٍ بأعيننا أبدًا، نراك في كل أحوالك، لا تغيب عن مَرْآنَا ولَا طرفةَ عين، فأنت إذن محروس محفوظ، لا يصل إليك شيء من أذى الكفار، ولا يضرك كيدهم أبدًا. فاصبر على دعوتك، واثبت على منهجك، وامض في سبيلك التي رسم الله لك، لا تهتم بشيء، غير أداء أمانتك وبلاغ رسالتك.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ - على ما في حرف « الباء » من الدلالة على الإلصاق، كما يقول النحاة - فيه ما لا يوصف من معاني المحبة لرسوله ﷺ، وجمال اللطف والود، وفيض الرحمة والسكينة والسلام، والإحاطة بالرعاية والعناية،

والتلطف والتحبيب والتقريب. وإن ذلك لمقام لم يبلغه نبي قبله ﷺ، على وِزَانِ هذه الدرجة العالية الرفيعة.

والرب العظيم ﷻ يبصر جميع خلقه، مؤمنهم وكافرهم، بل هو بكل شيء بصير، لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع البصير. ولكن هذا ليس هو المقصود في هذه الآية، وإنما النظر المقصود هو نظر رحمة خاصة، ونظر حماية وعناية، ونظر حفظ وتمكين؛ بما لا يكون لأي مخلوق. إنه تعبير عن منزلة المحبة العالية الرفيعة، التي لمحمد ﷺ عند رب العالمين. ولا أجمع لذلك الفضل كله من قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾.

ثم قال بعدُ سبحانه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩ ﴾، والتسبيح في القرآن كثيرًا ما يُقْصَدُ به الصلاة، فرائضها ونوافلها. كما قد يُقْصَدُ به الذِّكر اللساني، بترديد عبارات التسبيح والتنـزيه، من مثل قوله: « سبحان اللّٰه وبحمده، سبحان اللّٰه العظيم »، أو نحوها من الصيغ، ومنه ما هو واقع داخل الصلاة، ومنه ما هو واقع خارجها، وهو على كل حال كثير؛ ولذلك فقد اختلف المفسرون في تأويل المقصود بالتسبيح هنا اختلافًا كثيرًا. وهو اختلاف لا يضر؛ لأن الذي علم الغاية أدرك أن المقصود هو الارتباط بذكر اللّٰه على كل حال، سواء كان ذلك بالصلوات أو بالأذكار، وسواء كان بالليل أو بالنهار. وسيرة النبي ﷺ مع ربه تبين ذلك أكمل بيان.

وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ ﴾، معناه: كلما قمت من نوم أو مجلس، فانهض إلى الصلاة، أو إلى ذكر اللّٰه تسبيحًا بإطلاق. والتعبير بفعل « القيام » فيه دلالة على العزم على العمل، ولا يكون القيام إلا من نوم أو مجلس راحة. وإن كانت كل مجالس النبي ﷺ عملًا وتعليمًا، لكن القيام منها يعني النهوض إلى ما هو أعظم، كالصلاة المفروضة مثلًا. ثم قال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩ ﴾، إشارة إلى صلاة الليل عمومًا فرائضها ونوافلها، وما يكون فيها من تهجد وقيام، وكذا من تسبيح واستغفار بالأسحار. وأما إدبار النجوم فواضح أنه الفجر؛ لأن معنى الإدبار: الغياب والاندثار. وهو شامل لصلاته النافلة والفريضة، وما يلحقهما من تسبيحات لسانية وأذكار. والمقصود في نهاية المطاف أن يشتغل الداعية إلى اللّٰه بعبادة اللّٰه، وذكره على

كل حال، متقلبًا في ذلك ما بين منازل الليل والنهار. فذلك أكبر الزاد - مع الصبر - للثبات بإذن اللَّه على طريق الدعوة الشاق الطويل. واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن الداعية مأمور بالثبات على الحق، ولو انقلبت الدنيا كلها عليه، والتذكير بحقائق الإيمان الكبرى، لا يضره من خالفه، ولا يلتفت إلى ما يبثه المرجفون والمثبطون، حتى ينصره اللَّه أو يلقى ربه داعيًا إليه. وإنما شروط النصرة الإلهية للدعوة والدعاة، راجعة إلى التحقق بأمرين اثنين في العمل الدعوي، **أولهما**: الإخلاص الكامل للَّه في الدين والدعوة، والتجرد من الأهواء الذاتية، والشخصانية، والزعاماتية، والحزبية، والقبَلية، والقومية، وغيرها من الأهواء. فإنما المجاهد من جاهد لتكون كلمة اللَّه وحدها هي العليا، من غير خلط. ومن خلط ارتفعت عنه ولاية اللَّه، ووكله اللَّه إلى نفسه وهواه. **والثاني**: الانضباط الدقيق إلى أحكام الشريعة، وحِكَمِهَا، ومقاصدها، وميزان أولوياتها، كما هي في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه، لا كما تمليها الأهواء ورغبات النفس. وعدم تجاوز أي حد من حدود الشريعة في الممارسة الدعوية، مهما قل أو صغر. فإذا ما تحقق للداعية ذلك ورسخ فيه؛ فله أن يخاطب أعداء الدعوة بلسان اليقين: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝ ﴾.

الرسالة الثانية: في أن الداعية الذي اتخذ لنفسه أجرة من ضرع دعوته، يغرمها أتباعه بشكل مباشر أو غير مباشر، أو اتخذ قضيته أو مظلمته وسيلة يتاجر بها في العالم ويثري ماله؛ هو داعية هالك لا محالة. وما كان لدعوته تلك أن تثمر خيرًا للأمة. نعم، للأمة أن تفرغ رجال العلم والدعوة المخلصين لهذا الشأن، وعليها أن تقوم بشؤونهم المادية، من غير إسراف ولا تقتير. فهذا أمر لا غبار عليه ولا نكير. ومن عَفَّ أَعَفَّهُ اللَّه وكفاه. وإنما الخطير هو أن تتحول الدعوات هنا أو هناك، إلى مجرد شباك لجمع الأموال، وقضاء أغراض ذاتية ومصالح شخصية لهذا الداعية أو ذاك، ويبقى العمل الدعوي مجرد طلاء رقيق على السطح لخداع الناس. نقول ذلك لأننا نعلم أن فتنة المال على الدعاة - إذا أقبل عليهم - هي أخطر من فتن السجن والتشريد. وقد ثبت في الحديث تخوف النبي ﷺ من هذا، والتحذير الشديد منه.

فعن عَمْرِو بنِ عَوْفٍ الأنصاري ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ! وَلَـكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ!** »[١].

الرسالة الثالثة: في أن إسماع الكفار تحديات القرآن نصًا، فيه فوائد عديدة، منها تحطيم معنويات طغاتهم، ممن مَرَدَ قلبُه على الكفر، وانغلق عليه. ومنها زلزلة أركان التصورات الإلحادية والكفرية، في قلب من له قابلية للتفكر والتدبر والمراجعة، ممن يملك حظًا من الموضوعية والنزاهة النظرية. وكذا خلخلة مفاهيم المعتقدات الباطلة، من الأديان المنحرفة كالنصرانية واليهودية، فلعل ذلك يجعل الكافر يفكر في مصيره الوجودي بروية، ويعيد النظر في موقفه السلبي من دين الإسلام، فيكون بذلك إن شاء اللَّه من الناجين. وما قصة جبير بن مطعم عنّا ببعيد، وقد مرَّ تفصيلها في البيان العام. بل إن أغلب قصص إسلام كبار الصحابة - رضوان اللَّه عنهم - إنما كان بسبب سماع هذا القرآن، وخاصة منه آيات الترهيب والنذارة.

وقد رأينا في زماننا هذا عددًا من الأساتذة في الثانويات والجامعات الحديثة، ممن اشتهر عنهم الإلحاد والكفر الصريح، زمنًا ليس باليسير، وناضلوا من أجله نضالًا شديدًا، رأيناهم بعد ذلك قد تابوا توبة نصوحًا، ودخلوا المساجد منيبين إلى اللَّه، خاشعين مستغفرين. وإنك لا تخطئ بعضهم في الصف الأول من صلاة الفجر. فسبحان من بيده قلوب عباده يقلبها بين إصبعيه كيف يشاء.

الرسالة الرابعة: في أن مَنْ أشهر عداوته للدين وأهله، وأعلن الحرب على اللَّه، فقد عرض مصيره للهلاك، ووضع نفسه تحت وابل العذاب، مما يصيبه من غضب اللَّه ونقمته في الدنيا والآخرة، اللَّهم إلا أن يكتب له اللَّه توبة قبل موته، فيصلح في الأرض بعد إفسادها. وعليه؛ فإن الكيد العالمي اليوم للإسلام والمسلمين، مآله إلى الخسران المبين. وأن كل ما يبيتونه من تخطيط شيطاني، وتدبير عدواني، فاشل لا محالة. وأما ما يصل منه إلى المسلمين من الأذى والضرر؛ فإنما هو ابتلاء لهم، وإيقاظ من غفلتهم، وإخراج لهم من غمرة شهواتهم التي أردتهم قرونًا. وذلك أن

---

(١) متفق عليه من حديث طويل.

اللَّه ﷻ محيط بكيد الكائدين، ومكر الكافرين. قال ﷻ: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقد سبق قوله تعالى فيما تدارسناه هنا من سورة الطور: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾. تلك قاعدة إيمانية ثابتة إلى يوم الدين.

ومن ثم فالمؤمن البصير يرى أن جحافل الكفر الغازية لبلاد الإسلام والمسلمين، سيأتي عليها يوم تتحطم فيه بإذن اللَّه. وإنما علامة ذلك ظهور جيل المؤمنين الخالصين للَّه، وللَّه وحده.

الرسالة الخامسة: في أن الصبر والتسبيح بحمد اللَّه، صلاةً وذِكْرًا للَّه على كل حال، من أهم المغذيات لثبات الداعية على الحق، وعلى مشاق الدعوة والجهاد. وقد تواتر في كتاب اللَّه أنه ما من رسول أرسله اللَّه إلى قومه، إلا وقد ألزمه بالتزود لذلك بإدامة الذكر والتسبيح والصلاة. وقد قال ﷻ من قبلُ لموسى وهارون، لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: ٤٢]. والأمر بذلك في حق رسول اللَّه ﷺ كثير جدًّا في كتاب اللَّه، كما رأيت هنا في سورة الطور، وفي غيرها، بل في أغلب سور القرآن المجيد؛ ولذلك فقد كانت حياة النبي ﷺ ترجمة فعلية لهذا المسلك العظيم، وتطبيقًا له على أرفع مثال.

ومن ثم فمن علامات الضعف، أن تجد رجال دعوة ما على لين في دينهم، وفتور في صلاتهم وأذكارهم. بل ربما وُجِدَ منهم من يعتبر ذلك مجرد كماليات في الدين، لا علاقة لها بأمر الإصلاح والتجديد. وهذا ضرب من الانحراف في الفهم للإسلام أصلًا، ولطبيعة رسالته الربانية. وإنما الدين عبادات محضة في الإيمان والعمل، قبل أن يكون شيئًا آخر.

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلق في هذا المجلس راجع إلى محاولة الاقتباس من خُلُقِ رسولِ اللَّه ﷺ، الذي به نال مقام العناية الأكبر، المشهود له بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ... ﴿٤٨﴾ ﴾. صحيح أن ذلك مقام خاص بمحمد ﷺ، ولكن للمؤمن أن يقتبس من نوره، ما هو مأذون فيه لأمته. وذلك أنه ما من معجزة من معجزاته ﷺ إلا ولأمته منها نصيب،

بدرجة الكرامة والبشارة. كما قاله غير واحد من أهل العلم.

والذي يحيا في دينه ودعوته بمرأى من اللَّه ﷻ - على هذا المعنى - يكون مشمولًا بعناية اللَّه من كل جوانبه، لا يتحرك حركة إلا بتسديد من الرحمن، ولا يقصده أحد بالأذى إلا واللَّه له بالمرصاد. وإنما مدخل هذا يكون من باب التحقق بولاية اللَّه، في الدين والدعوة. على ما قال اللَّه ﷻ في الحديث القدسي المشهور: « **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ! وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ. وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ. فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ!** » (١). وهو ما جاء مجملًا فيما تدارسناه من خاتمة الطور: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝﴾.

إلا أن لهذا التقرب المذكور في الحديث شرطًا لا يتحقق إلا به، ألا وهو الإخلاص. فمجاهدة النفس على الإخلاص في كل شيء، هو الطريق الوحيد لتحقيق القرب بالعبادة، والسير الصادق إلى اللَّه؛ حتى يتطابق ظاهر الإسلام في عمل العبد بباطن الإيمان في قلبه، مطابقة تامة كاملة. وهذا هو معنى « الإحسان »، الذي قال رسول اللَّه ﷺ في تعريفه: « **الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » (٢). وما الإحسان إلا نتيجة لمكابدة الإخلاص.

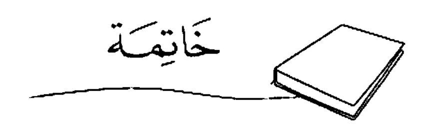
فإذا صَفَتِ الأعمال على مقام الإحسان في الدين والدعوة، بما كابد صاحبها من الإخلاص؛ رجا أن يكون إن شاء اللَّه من عباد اللَّه المخلَصين - بفتح اللام - وكان بإذن اللَّه في كل أمره مشمولًا بعناية خاصة من اللَّه. فلا يخطو في دعوته وفي كل أمره، إلا على عين اللَّه وتسديده، على ما فصله في الحديث القدسي المذكور.

* * *

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه، وهو جزء من حديث جبريل المشهور، وقد رواه مسلم بطوله عن عمر بن الخطاب ﷺ. وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ مختصرًا.



خاتمة

تلك كانت سورة الطور، سورة التحديات والتقريعات. سورة قوية الوقع، شديدة النذير؛ بما امتازت به من بناء حجاجي رفيع، وأسلوب خطابي بليغ، وحقائق إيمانية عميقة، تحطم أسوار الكفر حول القلوب، وتكسر أغلاله العتيدة. وإنها إذا كانت تهز كيان الكافر هَزًّا، وتزلزل وجدانه زلزالًا؛ فإن وقعها على قلب المؤمن أعمق وأشد. وقد سمعها بعض السلف الصالح، وهو على حال من الخشوع فأغمي عليه كما سيأتي بيانه [١]. ولذلك فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها أحيانًا في بعض الصلوات الجهرية، الفجر والمغرب خاصة، كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما، من حديث أم سلمة، وجبير بن مطعم رضي الله عنهما.

وإن فيها لشفاء عظيمًا من الوساوس والهواجس، تطهر القلب تطهيرًا، وتكنسه كنسًا، وتنفضه من أعشاش الشياطين. ثم توقظه بقوة، وتخرجه من دركات الكسل والغفلة، إلى درجات اليقظة والصحوة؛ وذلك بما تشعل في الوجدان من فتيل الخوف والرهب. خاصة لمن تهجد بها من الليل، وتدارسها بالنهار. فجدير بالداعية إذن أن يستصحبها في قلبه، ويجريها على لسانه، حتى تكون - هي ومثيلاتها - أساس خطابه، في مجالسه ومجامعه.

حكاية: روى ابن أبي الدنيا بسنده عن هشام بن حسان رحمه الله قال: (انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن [يعني البصري]، فانتهينا إليه وعنده رجل يقرأ [وَالطُّورِ]، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ ﴾ بكى الحسن، وبكى أصحابه، وجعل مالكٌ يضطرب حتى غُشِيَ عليه!) [٢].

---

(١) يروى ذلك عن مالك بن دينار رحمه الله، كما بالهامش التالي. وقد روي شيء مثله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكن بسند ضعيف. ن. تفسير ابن كثير للسورة.

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا، الأثر رقم (٩١).

فيا إلهي العظيم!

أولئك الأنبياء والصديقون والصالحون، كلما ذكروك خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا..

عرفوك فخافوك، وما قسا قلبٌ إلا من جهله بالله..

فاللَّهم يا مولاي الكريم، افتح لي من نور معرفتك، ومن كنوز العلم بك؛ ما أشاهد به عظمة مقامك المهيب.. فلعل هذا الصخر القاسي بقلبي ينهار لرؤية جلالك، ويتحطم من تجلي عظمتك، حتى يصير كبرياؤه دَكًّا، ويخر سلطان النفس الأمَّارة صَعِقًا. وعسى أن تصفو مرآةُ الروح، المثقلة بغبار الخطايا والذنوب، فتعكس من جمال التقوى ما يبلغني رضاك، ويجعلني بقربك. آمين.

* * *



مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم

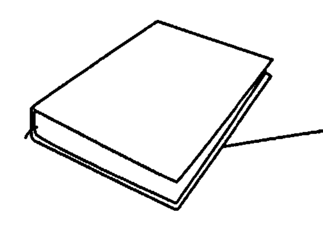
من التلقي إلى البلاغ

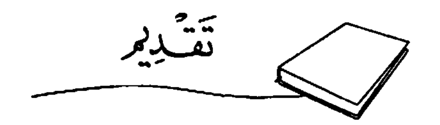
المدارسات القرآنية

٨ - سورة النجم

وهي مكية، وعدد آياتها (٦٢)

وهي تتضمن ثلاثة مجالس





تقديم

سورة النجم سورة مكية، ذات طابع خاص قضيةً وأسلوبًا. إنها سورة يدور موضوعها الرئيس حول إثبات أن الوحي هو المصدر الوحيد لمعرفة الله ﷻ ، وما يجب له من توحيد وإخلاص في ربوبيته وألوهيته. وأما ما انحرفت إليه البشرية من عبادة الأوثان والأصنام، قديمًا وحديثًا، فإنما مصدره الهوى والظن الكاذب. وبهذه الحجة القوية جعلت السورة تدحض كل مظاهر الشرك التي كانت سائدة عند العرب في الجاهلية، وتبني قواعد التوحيد ببيان أن الله وحده هو رب العالم، وأنه هو وحده المدبر لكل الملكوت، فلا شيء يكون في هذا الوجود إلا بإذنه. هذه هي القضية الكبرى لسورة النجم.

والوثنية ما تزال هي قضية الدعوة الكبرى في العصر الحديث، فأغلب سكان الأرض ما يزالون على الوثنية الغليظة الصريحة الصارخة، كما هو الوضع في شعوب شرق آسيا. وقد زرت بعض الجزر النائية هناك، فرأيت صنم بوذا منصوبًا في كل مكان، توقد حوله الشموع الصغيرة، ويركع الناس بين يديه ثم ينصرفون. ورأيت معابد وثنية بشعة المنظر، بني بعضها على شكل هندسي يمثل صنمًا لِتنِّين ضخم! إن الوثنية الخشنة ما تزال تحتل أجزاء كبيرة من الكرة الأرضية. وإني لأتوجس من أهلها شرًا على المسلمين في العالم، لا سمح الله - والذي يتابع التحالفات السياسية والعسكرية في العالم اليوم لا يغيب عنه ذلك.

ثم هذه كنائس النصرانية في العالم باختلاف مذاهبها، ملأى بأصنام نحتوها بأيديهم للمسيح عليه السلام وأمه، على ما زعموا! كما صنعوا أصنامًا أخرى لبعض الحواريين، وبعض رهبانهم الكبار. وقد سمعت أحد القساوسة الأمريكيين، ممن كتب الله له الهدى فأسلم، يتحدث أنهم كانوا إذا أرادوا السفر؛ دعوا « القديس فلانًا »، وإذا أرادوا قضاء حاجة دعوا « القديس علانًا » وهكذا. يتوجهون تلقاء صنمه المنصوب في الكنيسة فيركعون ويدعون! ثم قال القسيس المسلم معلقًا: فما الفرق بين هذا وبين الوثنية؟

إن الزعم بأن في الأرض اليوم أديانًا سماوية زعم باطل! فإنما هو دين واحد فقط تجوز نسبته إلى اللّه. قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وكان عبد اللّه بن عمر ﷺ يكره نكاح الكتابيات ويقول فيهن: (لَا أَعْلَمُ مِنَ الإِشْرَاكِ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ: رَبُّهَا عِيسَى، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللّهِ) [١].

ولذلك كله كان صدر سورة النجم منطلقًا قويًّا، أو قاعدة متينة، بُني عليها نص السورة؛ لتحطيم كل هذه المعتقدات الباطلة، بما أقسم عليه الرحمن من حقيقة الوحي الكريم، الذي تلقاه نبي الإسلام، محمد عليه الصلاة والسلام. وقد كشف لنا القرآن المجيد من أجل ذلك، عن مشاهد رائعة مهيبة، ملتقطة من عالم الغيب العميق في الملأ الأعلى، بدا فيها أمين الملائكة جبريل عليه السلام، على قرب من أمين الأرض محمد ﷺ، على مقامين اثنين: مقام أرضي وآخر سماوي. وصحبتهما أثناء ذلك تجلياتٌ عظيمة مدهشة، ومعجزات باهرة، لا يملك معها المؤمن إلا الخضوع لعظمة اللّه الواحد القهار.

ولقد جاءت السورة بهذه الحقائق الغيبية العظمى، في أسلوب لغوي متين، يمتاز بالقصر الشديد في الجمل والآيات، والاكتناز الثقيل بالحقائق والمعاني؛ ما يندهش له القارئ أو المستمع لكتاب اللّه أنَّى كان كافرًا أو مسلمًا.

والحقيقة أنه لا ينهض في التعريف بكتاب اللّه شيء غير كتاب اللّه.

فإلى المجلس الأول من سورة النجم.

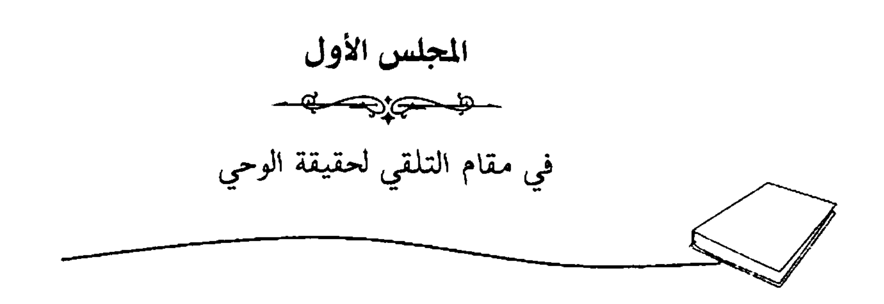
واللّه المستعان.

---

(١) رواه البخاري.

المجلس الأول

في مقام التلقي لحقيقة الوحي



١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾.

٢ - البيان العام:

بهذا القَسَم الإلهي العظيم انطلقت أول كلمات سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾.

وإنه لمشهد رهيب مهيب، مشهد النجم السائر في الأفق بليل، يمضي لامعًا بقوة، وهو يتنقل بين منازله، حتى يهوي إلى مغربه فيغيب عن الأنظار، ضاربًا في فلكه، بعيدًا بعيدًا عن مجرة الأرض، بمسافات لا يكاد يحصرها عَدٌّ، ولا يستوعبها خيال.

أو هو مشهد النجم المذنب، الخارق لسواد الليل في الأفق البعيد، على هيئة شهاب ناري، تتطاير شظاياه الملتهبة في السماء هنا وهناك، يراه الناس يهوي من أفق بعيد مجهول، حتى يسقط في مكان ما من كواكب الفضاء الخارجي، أو ربما سقط على سطح الأرض نفسها، فيكون له من الهول في نفوس الناس ما يكون.

وسواء كان الأمر هذا أو ذاك، فإن المؤمن يرى في حركة النجوم السيارة، والمذنبات الهاوية، سواء منها الكبيرة والصغيرة، تجليًا من تجليات حكمة الربوبية، والتدبير الإلهي للكون. فلا شيء يتحرك في الوجود كله إلا بإذن اللَّه، ولا شيء يكون إلا بأمر اللَّه، ولا يسقط نجم أو يهوي إلا بعلمه. إن المنطق الإسلامي يرى حركة الكون كلها دليلًا على القدرة الإلهية المحيطة بكل شيء، وتجليًا عظيمًا لاسم اللَّه: « الحي القيوم » ﷻ.

ولقد قرأت بعض المقالات المترجمة، عما كتبه علماء غربيون حول ظاهرة المذنبات، فوجدت أنهم يتكلمون بمنطق أعمى، منطق يحلل الظواهر كلها تحليلًا ماديًّا ميتًا، لا روح فيه على الإطلاق، ويفسر الارتطامات بنظرية الاحتمالات العشوائية. ولا يبصرون يد اللَّه – سبحانه – وهو يحرك كل شيء في الأرض وفي السماء. وأما الإنسان المسلم فقد اتخذ القرآن المجيد مبصارًا واضحًا، به يقرأ حركة الكون، وبه يزن كل شيء في هذا الوجود. قال ﷻ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ويُقْسِمُ الرحمن سبحانه بالنجم إذا هوى، وهو بذلك يُقْسِمُ بمظهر من مظاهر قدرته وعظمته. يُقْسِمُ على أن هذا الذي يتكلم به رسوله ﷺ هو وَحْيٌ منه تعالى. وَحْيٌ نزل من السماوات العلى، فخرق نورُه الطبقات والظلمات، حتى وصل الأرض، إنه حقيقة ربانية قوية باهرة، تمامًا كذلك النجم الملتهب، الخارق للفضاءات بإذن اللَّه. وكما أن النجم يحمل أسرارًا من عالم الفضاء الخارجي؛ فكذلك هذا الوحي يحمل أسرار الملأ الأعلى.

فالرسول ﷺ إذ ينطق به فإنه ينطق بعلم، ومن ثم كان جوابُ القَسَم هو قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾، أي: إن محمدًا – عليه الصلاة والسلام – لم ينحرف جهلًا، ولم يضل عن الحق والهدى فيما يتكلم به، ولا هو قد غوَى – والغَيُّ ضد الرشد – بمعنى أنه لم يزغ قلبه عن الهدى بسبب تعلقه برأي فاسد. ولا هو ﷺ ينطق عن داعية هواه، وبما تشتهيه نفسه من الآراء والتصورات والأفكار. وقد عبر هنا عن شخص الرسول ﷺ بقوله:

﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾؛ تعريضًا بكفار قريش، الذين كانوا يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، فهو منهم قبيلةً، وفيهم نشأ عُمُرًا، ويعرفون جيدًا صدقه وأمانته، ومع ذلك لما جاءهم بالهدى كذبوه عُلُوًّا واستكبارًا. فالمقصود بالصحبة هنا إذن، الصحبة الاجتماعية، لا الإيمانية.

ثم حصر طبيعةَ ما يتكلم به الرسول ﷺ في حقيقة واحدة، هي قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾. ومعنى الوحي في اللغة: الإعلام الخفي، والإخبار السري، سواء كان بلفظ، أو كتابة، أو إشارة، أو إيماء [1]. وهو في الشرع: كلام اللّٰه المنزل على رُسُلِهِ بواسطة الملَك جبريل عليه السلام. قال ابن الأنباري: (سُمِّيَ وَحْيًا؛ لأَنَّ الملَكَ أَسَرَّهُ على الخلق، وخَصَّ به النبيَّ المبعوثَ إليه) [2].

وقوله تعالى: ﴿ يُوحَىٰ ﴾ تأكيد لحقيقة الوحي، بما يدل على التجدد والاستمرار. ثم قال سبحانه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾، أي: علَّمه إياه مَلَكٌ عظيم، وهو جبريل عليه السلام؛ إذ خلقه اللّٰه سبحانه على هيأة ذات قُوى شديدة. وقُوى: جمع قوة؛ بما يفيد أن جبريل عليه السلام يملك طاقات لا حصر لها؛ بما يمكنه من تدمير البلدان، وهدم الجبال، وتفريغ البحار، ولو صاح بأهل مدينة لجعلهم جميعًا هلكى خامدين! وهو في كل رحلة من سفارته يخرق السماوات العلى خرقًا، فيكون في الأرض في أقل من لمحة البصر، ثم يعود مثل ذلك! وقد جعل اللّٰه له سلطانًا على جميع الملائكة، فما منهم مَلَكٌ إلا وهو يطيعه. هذا الملَك العظيم هو الذي جعله اللّٰه أمينَ وحيه إلى رسله في الأرض، فلا تثبت الشياطين في طريقه على الإطلاق.

ثم زاد الرحمن سبحانه في وصف جبريل عليه السلام، فقال: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ... ۝ ﴾، والْـمِرَّةُ تطلق على القوة المادية الجسمانية، وتطلق على القوة العقلية، والذكاء الكبير، وهو المقصود هنا؛ لأن الأول سبق ذكره.

---

(١) قال صاحب الصحاح: (الوَحْيُ: الكتابُ، وجمعه وُحِيٌّ. والوَحْيُ أيضًا: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وَحَيْتُ إليه الكلامَ وأوْحَيْتُ، وهو أن تكلِّمه بكلامٍ تخفيه) مادة: « وحي ». ومثله نصًّا في اللسان. ومما زاد: (قال أبو إسحاق: وأَصل الوحي في اللغة كلها: إعلامٌ في خَفَاءٍ، ولذلك صار الإلهام يسمى وَحيًا. قال الأزهري: وكذلك الإشارةُ والإيماءُ يُسَمَّى وَحيًا، والكتابة تُسمَّى وحيًا) مادة: « وحي ».

(٢) لسان العرب، مادة: « وحي ».

ثم قال: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ﴾ والمقصود أن جبريل عليه السلام، لما علَّم محمدًا ﷺ ما علمه من القرآن، عند ابتداء الوحي - وكان النبي ﷺ لا يراه إلا في صورة بشر - استوى إلى السماء، وقد تحول إلى هيئته الملائكية التي خلقه الله عليها. وكان محمد ﷺ قد طلب منه أن يكشف له عن صورته الملائكية الأصلية، التي فَطَرَهُ اللَّه عليها [1]. والأفق الأعلى: هو في الغالب أفق خارج الفضاء الأرضي؛ ولذلك وصفه بالأعلى. **فمن هناك بدأ جبريل عليه السلام يتجلى لمحمد رسول الله ﷺ** في صورته النورانية العظيمة، كأنه الكوكب الدري. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾، بمعنى أن جبريل عليه السلام جعل يدنو من الأرض، لكن هذه المرة على صورته الملائكية، يدنو شيئًا فشيئًا، على هيئة التدلي، أي كما يتدلى السِّراجُ في القبة. والتعبير بالدنو والتدلي كليهما فيه إيحاء جميل بحال اللطف والهدوء، في وصف نزول جبريل عليه السلام، وأنه كان نزول رحمة وسلام، ولم يكن هويًا ولا انقضاضًا!

ومن ثم فإنه عليه السلام جعل يدنو ويتدلى فوق رأس محمد ﷺ حتى صار قريبًا منه جدًا، بما يمكن قياسُ فَارِقِهِ بنحو: ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾. فمعنى ﴿ قَابَ ﴾: قَدْر، والقَابُ في العربية: المقدار والمقياس. والقَوْسُ: عودُ الرَّمْي، وهو عُودٌ مُقَوَّسُ الشكل، على قدر ذراع تقريبًا، يُشد من طرفيه بِوَتَرٍ من جلد، فترمى من خلاله السهام. والعرب تستعمل هذا التعبير في قياس المسافات القريبة. كأنه قال: فاقترب جبريل من محمد عليهما الصلاة والسلام، حتى صار بحيث لا يفصله عنه إلا نحو قوسين أو ذراعين. وقوله: ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، هو بمعنى: أو أقل من ذلك، والمقصود بيان عدم استيفاء المسافة الفاصلة بينهما تمام القوسين، بل أقل قليلًا. وكل ذلك لتأكيد القرب الحقيقي المحسوس، كما وُصِفَ، ولتشخيص هذا الحدث العجيب، بما يرسخ عباراته في الحقيقة الواقعة، ويرفع عنه كل احتمالات المجاز.

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ ﴾؛ أي أن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ بواسطة الملاك جبريل عليه السلام، على هذه الهيئة الموصوفة، ما أراد أن يوحيه إليه من الحقائق والآيات. وقد أبهم الكلام الموحَى به؛ لتفخيمه وتعظيمه، وأنه ليس مما يدركه الإنسان بالكسب والاجتهاد. والتعبير عن شخص محمد ﷺ هنا بلفظ

---

(١) سيأتي بيانه بدليله إن شاء الله.

« عَبْدِهِ »، فيه تكريم له عليه الصلاة والسلام، وبيان لدرجته الرفيعة عند ربه؛ وذلك لِمَا للإضافة في مثل هذا السياق من خصوص العناية والتعظيم.

وهذه هي المرة الأولى التي رأى فيها الرسولُ ﷺ جبريلَ عليه السلام في صورته الملائكية، وكان ذلك في أول البعثة. وما رآه على هيئته تلك إلا مرتين كما نص عليه القرآن، الأولى هي هذه، والثانية كانت في ليلة الإسراء والمعراج، عند سدرة المنتهى، كما سنبيِّنه بحول الله. فأما الرؤية الأولى فقد وقعت كما وصف الله تعالى ههنا، وقد صحت فيها أحاديث تفصِّل المشهد بعض تفصيل، منها ما في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في بيان قول الله عز وجل: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ قَالَ: (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ ستمائة جَنَاحٍ!)[1]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ (**رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ!**)[2]؛ فتصورُ مَلَكٍ بهذه الخلقة النورانية العظيمة، متدليًا ما بين السماء والأرض، يسد بهيئته أرجاء الفضاء؛ يملأ القلب رهبةً وفزعًا؛ لولا أنه نزل بالسكينة والسلام على رسول الله ﷺ، فسبحان الرب العظيم الذي خلقه وصوره. وإنها لآية من الله لرسوله محمد ﷺ؛ إذ كشف له من الحُجُبِ، ما يبصر به هذا المَلَك العظيم، ويعاين معنى اليقين.

ولذلك قال سبحانه بعدها: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ ﴾، أي ما أخطأ قلبُ محمد ﷺ حقيقةَ جبريل إذ رآه ببصره، وهو يدنو منه ويتدلى، ولا تلبس عليه أمره، ولم يكن تجليه الخاص له، مجرد وهم، أو خيال، بل كان حقيقة. فقلبُه ﷺ كان مستيقنًا من أن هذا الذي يراه الآن ببصره، هو الملك جبريل نفسه عليه السلام، قد تجلى في صورته الملائكية بإذن الله، وقد أعطى الله لرسوله محمد ﷺ من قوة الإدراك والبصر، ما يرى به هذا الجسم النوراني العظيم؛ ولذلك صدَّق القلبُ النظرَ تصديق يقين. ولربما لو تجلى جبريل لغير محمد ﷺ من البشر لكان هلك! فما من أحد يقدر على معاينة أنوار الغيب إلا من هُيِّئ لذلك تهييئًا.

والآية رد على المشركين المكذبين بالوحي، المنكرين لحقيقة تلقي محمد ﷺ لجبريل عليه السلام. ومن ثم بادرهم بالتوبيخ والإنكار؛ لِمَا صدر عنهم من التكذيب،

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه البخاري.

فقال ﷻ : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ ﴾، بمعنى أتجادلونه بالباطل فيما هو يراه بعينه حقيقة لا خيالًا؟ والْـمُمَارَاةُ والْـمِرَاءُ هنا: الجدال الشديد، والتشكيك [(١)]. وهو تشنيع على من يسبق التكذيبُ إلى لسانه، ويجادل فيما لا علم له به.

وأما المرة الثانية التي رأى فيها محمد ﷺ جبريلَ على صورته، فقد كانت ليلةَ عُرِجَ به ﷺ إلى السماوات العلى، وذلك عند سدرة المنتهى. فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ ﴾ أي: ولقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عليه السلام على صورته الملائكية مرة أخرى، فالنزلة هنا بمعنى المرة. وكان ذلك في السماء السابعة عند سدرة المنتهى. وهذه الآيات فيها من العمق الغيبي ما لا قدرة للعقل البشري على الإحاطة به؛ ولذلك فهو يرسخ الإيمان بالغيب لدى المؤمن؛ بما يمكنه من درجة اليقين. والكلام في الإسراء والمعراج بغير علم من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه الصحيحة مجازفة. وإنما لنا أن نتكلم فيه بما نص عليه القرآن، وبما بيَّنته السنة النبوية الثابتة. وحديث الإسراء مشهور مُخَرَّجٌ في الصحيحين وغيرهما، وهو حديث عجيب طويل، إلا أن عبارة الرواة اختلفت في تحديد رقم السماء التي توجد بها سدرة المنتهى، فكان الاختلاف ما بين السماء السادسة والسابعة، وكل ذلك في الصحيحين.

ففي حديث أنس بن مالك عند مسلم، - ويُرْوَى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أيضًا - قال ﷺ: « **ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ. ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْـمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ! قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ؛ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ!** » [(٢)]، وفي تتمة الحديث مراجعة موسى عليه السلام لرسول اللَّه ﷺ، بطلب التخفيف من اللَّه ﷻ، فما زال الرحمن - جل ثناؤه - يخففها حتى جعلها خمس صلوات فقط.

---

(١) جاء في القاموس: (والمِرْيَةُ بالكسر والضم: الشَّكُّ، والجَدَلُ. ومَارَاهُ مُمَارَاةً ومِرَاءً، وامْتَرَى فيه، وتَمَارَى: شَكَّ). مادة: « مري ».

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فواضح أنه لا يجمع بين هذه السدرة وسدر الأرض إلا الاسم فقط، كما أن الحديث نص على أنها في السماء السابعة. ويطابقه حديثُ مالكِ بْنِ صَعْصَعَةَ ﷺ عند البخاري وفيه: « **فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ (...) وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ!** » .. إلى آخر الحديث [1].

لكنَّ حديثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فيه أنها في السماء السادسة، وفيه من أوصاف السدرة ما ليس في غيره. قَالَ ﷺ: (**لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا. قَالَ: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾، قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا: الْمُقْحِمَاتُ!**) [2]، بمعنى: وَغُفِرَتِ الْمُقْحِمَاتُ لمن لم يشرك بالله. والْمُقْحِمَاتُ: الكبائر التي تقحم صاحبَها في النار. وأغلبُ شُرَّاحِ الحديث على ترجيح أنها السماء السابعة، وأن في رواية السادسة وهمًا من أحد الرواة.

فهنالك إذن، في ذلك الأفق البعيد جدًّا، عند سدرة المنتهى، في السماء السابعة، كانت رؤية محمد ﷺ لجبريل ﷺ على هيئته الملائكية مرة أخرى، فقد أخرج أحمدُ عَنْ عبدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فِي بيانِ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَلَهُ ستمائة جَنَاحٍ، يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ!** » [3].

والظاهر أن جبريل ﷺ في رحلته مع النبي ﷺ ليلةَ الإسراء والمعراج، لم يزل محتفظًا بصورته البشرية، التي اعتاد محمد ﷺ أن يراه عليها، وذلك خلال الرحلة كلها، لكنه لما بلغ به سدرة المنتهى، التي هي مَجْلَى الأمر الإلهي، كما سيأتي بيانه، رأى جبريلُ فيضَ النور الرباني يتجلى على السدرة، فلم يملك إلا أن عاد إلى صورته

---

(١) رواه البخاري. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في دلائل النبوة، وأبو يعلى، وابن حبان. وأصله مختصرًا في الصحيحين. وحسنه الألباني في رسالة الإسراء والمعراج. كما حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

الملائكية، فخرَّ ساجدًا لله الواحد القهار. فرآه النبي ﷺ كذلك. وهذا مشهد نادر لطيف نُصَّ عليه في رواية حسنة لحديث ابن مسعود ﷺ، جاء فيها: « **فَلَمَّا أَحَسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ عَادَ فِي صُورَتِهِ وَسَجَدَا** »[1].

فتلك قصة الرؤية الثانية، وذلك بيان قول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ ﴾ وجنة المأوى: اسم من أسماء الجنان، ومنزلة من منازلها العليا، وقد ثبت في حديث أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْـمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْـجَنَّـةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ** »[2]، والْـمَأْوَى في اللغة: اسم مكان من أَوَى يَأْوِي، إذا قصد إلى مكانٍ ما طلبًا للراحة والسكينة والأمان. والإيواء: الإسكان والضيافة والإكرام، وجنة المأوى هنا: اسمٌ عَلَمٌ على درجة عالية من درجات الجنان؛ كجنة الفردوس وجنة الخلد وجنة النعيم وجنة عدن. فكلها منازل في الجنة الكبرى، أو قل جنات.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾، الغشيان: المخالطة والتغطية والدخول في شيء. تقول: غَشِيَهُ الحزنُ أو السرور: إذا خالطه. وغشيه الماءُ: إذا غمره وأحاط به. وقد فسرت الأحاديثُ المذكورة ذلك بأنه النور المتجلي عن وحي الله، وما ينزل من أمره تقدست أسماؤه؛ لأن السدرة هي منتهى وصول الخلق من الملائكة وغيرهم، فمنها يتلقون ما يتلقون من أمر الله.

ونظرًا لعظمة مشهد السدرة؛ إذ يتجلى عليها النور؛ فإنها تصير على حال من الجمال، ومشهد من البهاء، لا طاقة للعقل ولا للخيال البشري على استيعابه؛ ولذلك أبهمه الله في الآية إبهامًا، فقال: ﴿ مَا يَغْشَىٰ ﴾ للدلالة على التعظيم والتفخيم. وفي حديث أنس وأبي ذر المذكور قبلُ، أنه ﷺ قال: « **فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ؛ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى!** » وقد وَصَفَ ﷺ ذلك الْحُسْنَ النازل بالسدرة، في حديث ابن مسعود ﷺ، فقال:

---

(١) رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، وأبو الجعد في مسنده، وأبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة. وحسنه الألباني في رسالة الإسراء والمعراج.

(٢) متفق عليه.

« فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ». ولعل المقصود بالفراش هنا أسراب الملائكة التي تأوي إليها، كما ورد في بعض الروايات [(١)]. والحقيقة أن معاني هذه العبارات جميعًا هي من أعمق أعماق الغيب، وأنها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والقصد أن رب العزة - جل ثناؤه - قد أكرم رسوله محمدًا ﷺ بمقام رفيع، لم ينله أحدٌ من الرسل والأنبياء قبله، وأنه أراه من عظمة ملكه، وجلال سلطانه، ما لا قِبَلَ للخلق به.

ولذلك قال سبحانه بعدُ: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾. بمعنى أن النبي ﷺ إذ كان يرى ما يرى، من تجليات النور، وآيات ربه الكبرى، عند سدرة المنتهى؛ لم ينحرف له بصرٌ يمينًا ولا شمالًا، ولا طغى في النظر بأن تجاوز الحد المأذون له فيه، بل بقي ثابتًا على مشهد السدرة وأنوارها، وما أتيح له من جمال الجنة وثمارها، ملتزمًا بأدب العبودية بين يدي الرب المعبود، على أكمل ما يكون الأدب. فلم يتجول ببصره فيما لم يُرفع له من مشاهد ولا كُشف له من حجاب، ولم يبحث بعينيه عن مصدر الوحي الإلهي النازل على السدرة، بل بقي ﷺ غاضًا بصره في خشوع عظيم، وخضوع تام، ولذلك مدحه الله بهذه الآية وأثنى عليه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.

ثم ذيَّل الرحمنُ - جل ثناؤه - المقطعَ كله بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾، وهي آية مناسبة لكل ما قبلها؛ لأن النبي ﷺ لم يزل يرى من الآيات العظيمة - وهي هنا بمعنى: الدلائل والخوارق المعجزة - مذ رأى جبريل في أفق السماء بأجنحته الستمائة، وهو ﷺ بالأرض، إلى أن أسري به ليلًا فوق دابة البراق، خارقًا المسافات الأرضية، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن هناك انطلق خارقًا المسافات الفضائية، وطبقات السماوات، فكان لا يمر بسماء إلا رأى فيها من آيات الله الكبرى ما يبهر القلب، وكان يلتقي في كل سماء نبيًّا، أو أكثر، من الأنبياء

---

(١) ففي رواية ضعيفة لحديث الإسراء عن أبي هريرة، وصفَ فيها رحلة النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام، فلما بلغ سدرة المنتهى قال: « فغشيها نور الخلاق ﷻ، وغشيتها الملائكةُ أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة، قال: فكلمه الله عند ذلك ». وهو جزء حديث طويل جدًّا رواه الطبري، وابن أبي حاتم في التفسير، والبيهقي، والبزار. وضعفه ابن كثير في تفسيره. ونقل الطبري في التفسير أيضًا عن الربيع قال عن السدرة: « غشيها نور الرب، وغشيتها الملائكة من حُبِّ الله، مثل الغربان حين يقعن على الشجر ». كل ذلك عند الطبري في تفسير قول الله ﷻ: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾.

والرسل الكرام، من آدم أبي البشر، إلى المسيح عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

حتى ارتقى إلى السماء السابعة؛ حيث وجد إبراهيم ﵇، وشاهد البيت المعمور تدخله آلاف الملائكة، وشاهد جبريلَ متجليًا في صورته الملائكية، يتناثر من ريشه شعاعاتُ الدر والياقوت، خاضعًا لربه خاشعًا، على أكمل ما يكون الخضوع والخشوع، ورأى ما ذكرنا من كراماتٍ على سدرة المنتهى، ومدخل جنة المأوى ورحابها الفسيحة. وهذا كله مفصَّل في أحاديث الإسراء في الصحيحين وغيرهما. ثم رأى ما الله به عليم، مما لم يفصل لنا هنا وبقي ضمن التكريم الخاص برسوله ﷺ، ولم يُكشف للخلق عن مضمونه، على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾ وهو في الوقت نفسه تأكيد وترسيخ للحقائق المذكورة، وأنها ليست مجرد تخييلات أو تمثيلات، بل هي حقائق يقينية كبرى!

ويجوز أن يكون من بين تلك الحقائق، أن النبي ﷺ قد تلقَّى كلام الله ﷻ عند سدرة المنتهى بصورة مباشرة، أي من غير واسطة الملَك جبريل، كما حصل لموسى ﵇ في الأرض عند جانب الطور الأيمن. فقد ذهب طائفة من الشراح والمفسرين إلى أن رب العزة ﷻ كلم نبيه محمدًا ﷺ هنالك بغير واسطة الملَك، وفرض عليه الصلوات على ما جاء مفصلًا في أحاديث الإسراء. وهو خلاف بين العلماء ذكره ابن حجر ﵀ [١]. ومن المفسرين الذين على مذهب التكليم الإلهي لمحمد ﷺ، الإمامُ ابن كثير، وأبو حيان، والبقاعي، والألوسي، والشوكاني، والطاهر ابن عاشور، وغيرهم [٢]. قال ابن كثير ﵀ في تفسير قوله تعالى: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]: (يعني: موسى، ومحمدًا ﷺ، وكذلك آدم) [٣]، وقال الشوكاني فيها: (وهو موسى، ونبينا سلام الله عليهما) [٤].

---

(١) فتح الباري (٧/٢١٦).

(٢) ن. ذلك عند تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. إلا الطاهر ابن عاشور فقد ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٦].

(٣) ن. تفسيره للآية.

(٤) ن. تفسير الآية في فتح القدير للشوكاني.

والتكليم لمحمد ﷺ هو ظاهر الخطاب، وهو مقتضى السياق في أغلب أحاديث الإسراء، ففي حديث أنس المذكور قبلُ أن النبي ﷺ قالَ: « **ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ. قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ؛ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ** » (١)، ولم يزل النبي ﷺ يطلب التخفيف من ربه بنصح من موسى ﷺ، كما هو مفصَّل في الحديث؛ إذ قال ﷺ: « **فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى** ﷺ، **حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً** ».. إلى آخر الحديث (٢)، وفي حديث مالك بن صَعْصَعَةَ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قالَ: « **فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي** » (٣)، وفي لفظ آخر عند البخاري: « **فَنُودِيَ: إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا** » (٤)، وهذا شبيه من وجه بقول الله ﷻ في حق موسى ﷺ: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ إلى آخر الآيات [طه: ١١، ١٢]. ذلك، والله تعالى أعلم.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو هنا في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن الوحي حقيقة كونية، وضرورة إنسانية، وهو أعظم نعمة تلقاها البشر في الأرض. فعالم الشهادة مكشوف لعالم الغيب، بينما عالم الغيب محجوب عن أهل الأرض. ومصير البشر خارطته كلها مرسومة في كتاب الغيب. ومن ثم فَسَيْرُ الإنسانِ من غير تلقي خارطته، ضربٌ في التيه، وخبط في الظلمات. إن البشرية لم تستطع البقاء في الأرض كل هذه القرون العديدة إلا بالوحي، وما من حضارة - حتى ولو كانت كافرة - إلا ومنطلقها الأول هو الوحي. ولا إمكان على الإطلاق للعقل البشري أن يسلك مسلك الاجتماع العمراني؛ لولا توجيهات تنزلت عليه من السماء ابتداءً.

(١، ٢) رواه مسلم. (٣، ٤) رواه البخاري.

إن الوحي هو الذي علم الإنسان التوحيد أول ما علمه، والوحي هو الذي علم الإنسان تنظيم علاقات الزواج والتناسل، ومعرفة الحلال من ذلك والحرام؛ بما تجده إلى اليوم متقاربًا بين جميع الملل والنحل إلا قليلًا.

ثم إن الوحي هو الذي علم الإنسان أصل اللغة، والوحي هو الذي علم الإنسان ضروب الصناعة والفلاحة، وما قصص الأنبياء عنا ببعيد، فقد أُلِينَ الحديدُ لداود عليه السلام، وعُلِّمَ صناعة الدروع. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] والسابغات هي: الدروع الحديدية السابغة، أي: الوافية الكافية. وقال سبحانه أيضًا: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وأُسِيلَتْ لسليمان عَيْنُ القِطْرِ، وهو النحاس، فصنع منه أدوات وآلات عديدة. قال ﷻ : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣]. وصنع نوحٌ عليه السلام قبل ذلك أول سفينة حقيقية في التاريخ، بوحي من الله وتعليم. قال سبحانه: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

وهذا وغيره يبين لنا أن منشأ الحضارة البشرية كلها، سواء منها ما هو مادي أو معنوي كله انطلق من الوحي. ثم طور الإنسان من ذلك ما يسر اللَّه له من التطوير؛ بناءً على اكتشاف سنن اللَّه فيما رأى من وحي اللَّه أولًا، ثم فيما سُخِّرَ له من كنوز الطبيعة.

ومن هنا نرى أن المؤرخين للأديان، والتاريخ البشري القديم، يذهبون في تخمينات لا أساس لها من الصحة على الإطلاق؛ إذ يتحدثون عما يسمونه بـ « الإنسان البدائي » بما يشبه الحديث عن وحش! ويزعمون أن الوثنية هي أصل الأديان جميعًا، ثم تطور الدين نحو التوحيد بتطور العقل البشري! بينما هذا القرآن الكريم قاطع في أن آدم أهبط إلى الأرض نبيًّا موحِّدًا، فلم يزل بنوه من بعده رغم ما قد حصل بينهم من خطايا، على

دين التوحيد الكامل، وقد صحت الأحاديث أنهم استمروا على ذلك قرونًا. ثم وقع الانحراف إلى الشرك، بعد نحو عشرة قرون؛ فَبُعِثَ نوح أول الرسل إلى أهل الأرض، وكان من قصته ما كان.

إن بداية الإنسان في الأرض، انطلقت من يوم انطلقت، على أساس قول الله ﷻ: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

لقد كان الوحي - ولم يزل - نعمة على الإنسان ورحمة. فلو فرضنا أن البشرية نُبِذَتْ في متاهات الأرض على غير هدى؛ لما استطاعت أن تخطو خطوة واحدة، في بناء استقرارها واجتماعها الحضاري والعمراني، ولجعلت تتطلع إلى أي نور يشرق عليها من السماء، عساها تهتدي إلى مسلك الحياة السليم. لكن العناية الإلهية قد تجلت بالرحمة منذ الأزل، فكانت بعثة الرسل والأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، تضع للإنسان معالم الطريق، في السير إلى ربه وعبادته، وفي تطوير حضارته وشؤون دنياه.

فليس عبثًا إذن أن أقسم الله ﷻ بالنجم، على صدق ظاهرة الوحي، وأنها حقيقة عظمى من حقائق الإيمان، الضرورية لحياة الإنسان. وفي القَسَمِ بالنجم إذا هوى لَفْتٌ لنظر الإنسان نحو السماء، عساه ينتبه إلى أنها مصدر الهدى والنور، وعسى يتنزل عليه شيء من ذلك، كما تهوي أجزاء النجوم. على ما قال تعالى فيما تدارسناه: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾.

الرسالة الثانية: في أن جبريل ﵇ هو مَلَكُ الوحي الذي يقوم بسفارة الرحمن إلى رسله؛ ولذلك فقد اعتنى القرآن بتعريفه ووصفه، حتى يعرف المسلمون فضله، ويقدِّروه قدره، ثم يعلنوا محبته. وقد فصَّلت الآيات والأحاديث - مما ذكرنا بعضه في البيان العام - في بيان قوته وجمال خلقته، بما يملأ القلب تعظيمًا وتمجيدًا لله الذي خلقه. فسبحان الله العظيم، الخالق العظيم.

فجبريل ﵇ هو أمين الملائكة، وهو أميرهم في السماء وفي الأرض. فقد قال

اللَّه تعالى في حقه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

ولمكانته العظيمة عند الرحمن كان سبحانه يميزه عن الملائكة، ويفرده عنهم بالذكر، بعد ذكرهم إجمالًا في سياق واحد، كما في قوله تعالى عن النبي ﷺ: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] وقوله سبحانه: ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾ [المعارج: ٤]، والروحُ اسمٌ أو لقبٌ لجبريل عليه السلام، كما في قوله سبحانه: ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ [النبأ: ٣٨] وقوله أيضًا في ليلة القَدْر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ [القدر: ٤]. ومن تسبيحات النبي ﷺ في صلاته: أنه كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: « **سُبُوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ** »[1].

وما من مؤمن صالح في الأرض إلا وجبريل عليه السلام يحبه، فقد ثبتَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ! فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ! فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ!** »[2]، ومن ثم كان جبريل عليه السلام حبيبَ المؤمنين الصالحين، له مكانة خاصة في قلوب المسلمين. وكان له في الكتاب والسنة ما كان من الاعتناء والتقدير. وبهذا وجب الاعتقاد والعمل، واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

الرسالة الثالثة: في أن عالَم الغيب عالَمٌ يفوق عالَمَ الشهادة سعةً وقوةً، أضعافًا كثيرة. وتحصيل العلم بالغيب، مما هو مأذون فيه، زادٌ ضروري للمؤمن؛ وذلك للتحقق أولًا بأركان الإيمان اعتقادًا وعملًا، ثم لتغذية النفس بلباس التقوى والورع، واستشعار الرهبة الكبيرة والخشوع العظيم، كلما طرق العبدُ أبواب الغيب العالي في مسلك العبادة.

فعلى قدر علم العبد باللَّه، وبمقامه العظيم، ثم بملكوته الممتد من السماوات إلى

---

(١) رواه مسلم عن عائشة مرفوعًا.
(٢) متفق عليه.

الأرض؛ يكون إيمان المؤمن وتقواه. ففي صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ تَزْنِي! يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا! »[١]، وفي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ، وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ! وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ! » [ثم قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه]: (وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ!)[٢].

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ؛ فَخَطَبَ فَقَالَ: « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ! وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا! »، قَالَ [أَنَسٌ]: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ! قَالَ: غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ!، فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا!)[٣]، والخَنِينُ: بكاءٌ بصوت مخنوق في الصدر.

ولهذا وذاك كان أغلب القرآن حديثًا عن الغيب بكل أبعاده، وربطًا لقلوب المؤمنين بحقائقه الإيمانية الكبرى على كل حال. وما كان ذلك ليكون مجرد تسلية للناس في كتاب الله، حاشاه! بل هو برهان قاطع على أن حياة الروح هي الحياة الباقية، وأن ما دونها مصيره إلى زوال. وكفى بذلك نذيرًا لمن يسلخ من عمره الأيام لاهيًا، وهو لا يدري.

الرسالة الرابعة: في أن الأدب عند مشاهدة الآيات، سواء منها الظاهرة العامة، أو الإكرامية الخاصة، أن يلتزم العبد بكمال الخشوع والخضوع لله، ولا يخرج عن مقام الفقر والتذلل بين يديه تعالى. وقد رأى رسول الله ﷺ ما رأى من آيات ربه

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، وصحيح الترغيب، وفي تخريج سنني الترمذي وابن ماجه، ثم في السلسلة الصحيحة.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

الكبرى، مما لم يتح لأحد من البشر على الإطلاق، فظل بصره خاشعًا، لا يزيغ ولا يطغى. وكذلك كان عليه الصلاة والسلام، كلما رأى شيئًا من الآيات الكونية، التي يراها الناس أجمعون، مثل ظواهر الكسوف والخسوف؛ إذ كان ﷺ يفزع إلى ذكر الله وإلى الصلاة. فعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: (خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ فَزِعًا يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ، فَقَامَ يُصَلِّي بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ، مَا رَأَيْتُهُ يَفْعَلُهُ فِي صَلَاةٍ قَطُّ. ثُمَّ قَالَ: « **إِنَّ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي يُرْسِلُ اللَّهُ، لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرْسِلُهَا يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا، فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ، وَدُعَائِهِ، وَاسْتِغْفَارِهِ!** ») [1].

هكذا ينظر المؤمن إلى آيات الله، ولا يبقى حبيس المنطق الفلكي الرياضي، وحسابات الخسوف والكسوف، بل يتجاوز ذلك إلى مشاهدة قدرة الحسيب الأعظم، الله ﷻ ، الذي وضع سنن الأفلاك والنجوم. فلا يرى المؤمن الحقُّ حركةً في الكون، عاديةً أو غير عادية؛ إلا وتذكر أن لله موعدًا يهدم فيه هذا النظام الكوني كله، ويطويه طيًّا! فيكون ذلك أدعى إلى تجديد التوبة والاستغفار.

ومن ثم فإن المؤمن كلما نظر في الآيات، وجب أن يرتقي نظره من مشاهدة عظمة المخلوق، إلى مشاهدة عظمة الخالق، ومن مشاهدة مرآة الجمال إلى مشاهدة عين الجمال، ومن رؤية السُّنة الكونية والقانون الطبيعي، إلى رؤية رب السنة والقانون. فما الآيات الكونية في ذاتها، وما كل ما تعلق بها من سنن أو خوارق، سوى حُجُبٍ تتخفى من ورائها يد الله الصانعة لكل شيء، والمحركة لكل شيء. وتتستر خلفها تصرفات الربوبية وشؤونها العظمى. والإنسانُ الكافر يبقى نظره حبيس القانون الطبيعي والحساب الرياضي، فيتيه في الظلمات. وأما المؤمن فإنه يفتح بقلبه نوافذ الروح، فينفذ ببصره إلى ما وراء الحجب، وينعم بمشاهدة النور، ويرتوي من منابع الحق والجمال، فيصير بذلك إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين، المتفرد بالجلال والجمال.

الرسالة الخامسة: في أن « الوحي » اسم من أسماء القرآن، وصِفَةٌ من صفاته، فهو معنى جوهري كامن فيه، باقٍ إلى الأبد، لم ينقطع بانقطاع الوحي الذي حدث في

---

(١) متفق عليه.

التاريخ، ولم يرتفع عنه أبدًا. وفرقٌ بين هذا وبين المعنى المصحفي للقرآن؛ لأن هذا معنى مرتبط برسوم الكلمات، وبشكل تسطيرها على المصحف، أو بنمط طباعتها على الورق. والقارئُ الذي يبقى حبيس الرسوم فقط، لا يبصر حقيقة القرآن، ولا يكتشف طبيعته.

أما الذين يقرؤون القرآن اليوم حقيقة، فإنما هم الذين يقرؤونه على أنه وَحْيٌ، أي أنهم إذ يتلونه، أو يتلى عليهم؛ يسمعون كلام الله! على ما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. ونعتقد أن هذه المقدمة هي المدخل الأكبر؛ لاكتشاف حقيقة القرآن، والاستفادة من نوره، وبركاته، وهداه. وبيان ذلك بحول الله هو كما يلي:

لا شك أن كل المسلمين اليوم يؤمنون بأن هذا القرآن هو وحي من الله، ولكنهم يحبسون ذلك المعنى بصورة شعورية، أو لا شعورية، في التاريخ الذي كان. هذا غالب أحوالهم. وهذا هو موطن الإشكال! إن تعامل المؤمن مع القرآن على أنه مصحف، شيءٌ حسنٌ، وليس مشكلة في حدِّ ذاته، ولفظ المصحف قد يرادف القرآن في بعض الأحيان [(١)]. ولكن المشكلة هي حينما يجرده - من حيث لا يدري - من صفة الوحي الكامنة فيه. ولا يكون هذا بالنسبة للمؤمن إلا من باب الغفلة. وإذا استحضر تلك الصفة جعلها - في أحسن الأحوال - مجرد حدث وقع في تاريخ القرآن.

---

(١) يراد بالمصحف في اللغة: السِّجِلُّ من الجلد أو الورق، الجامع لعدد من الصُّحُف المكتوبة، ففي اللسان: (إنما سمي المصحف مصحفًا؛ لأنه أُصْحِفَ، أي: جُعِلَ جامعًا للصحف المكتوبة بين الدفتين) مادة: « صحف ». والعبرة إنما هي بما في داخل المصحف وهو القرآن. وإنما يسمى قرآنًا بقراءته، وبجمعه لكلام الله ﷻ. كما حكاه الزركشي في البرهان (١/٢٧٧). وقد أجمع علماء القرآن من أهل السنة على تعريف القرآن بأنه: (كلام الله المعجز، المنزل على محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته). فتبين أن المصحف هو وعاء للقرآن، وليس هو عين القرآن؛ لأن القرآن هو كلام الله، مكتوبًا كان أو مقروءًا أو مسموعًا. فالمصحف مكتوب فيه كلام الله. وقد تُستعمل عبارتا « المصحف » و « القرآن » على سبيل الترادف؛ باعتبار أن المصحف مدونة للقرآن وجامع له. وفي مثل هذا يقال: لا مشاحة في الاصطلاح. وإنما قصدنا في هذه الرسالة الخامسة أعلاه، تنبيه القلوب إلى الارتباط بالقرآن، الذي هو كلام الله الحي الذي لا يموت، حتى لا تبقى النفوس حبيسة الرسوم والأشكال، وعدد الصفحات والأجزاء؛ فتحرم من كنوز القرآن. والله الموفق للخير والمعين عليه.

نعم الوحي حدث كان ثم انقطع، ولكنه في نفس الوقت صفة لازمة لهذا القرآن، لا تفارقه إلى يوم الدين. **إن مصطلح الوحي في القرآن له دلالتان:**

الأولى: مصدرية، وهي الدالة على الوحي بالمعنى الذي وقع في التاريخ، أي نزول جبريل بالآيات والسور على قلب محمد ﷺ. وهذا أمر كان ثم انقطع طبعًا بوفاة النبي ﷺ.

والثانية: دلالة اسمية، وهي ناتجة عن الأولى؛ حيث سمي وحيًا بسبب أنه في الأصل نزل من السماء.

لكن معنى الوحي في هذه الدلالة الثانية صار صفة لازمة للقرآن أبدًا، لا ترتفع بانقطاع نزول الوحي. بل انقطع الوحي وبقي القرآن وحيًا؛ ولذلك جعل اللَّه مصطلح « الوحي » اسمًا ثابتًا من أسماء القرآن، كسائر أسمائه الأخرى، مثل التنزيل، والفرقان، والذكر، والهدى، والنور، والروح، وغيرها. فهي أسماء للقرآن ذات معنى وصفي، وكذلك الوحي. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد سمى اللَّه تعالى الوحي الذي أنزله نورًا؛ لِمَا يحصل به من الهدى، كما سماه روحًا؛ لِمَا يحصل به من حياة القلوب)[١]. فاستعمل الوحي هنا بالدلالة الاسمية. وشاهده من القرآن قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. أي: بالقرآن. وكذلك قوله في صدر سورة النجم مما تدارسناه هنا: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾، فالضمير « هو » يعود على ما ينطق به محمد ﷺ من القرآن، فسماه وحيًا، بيانًا لمصدره السماوي، وأكده بالفعل الدال على الحدث: « يُوحَى ». فصارت اللفظة ذات دلالة اسمية مأخوذة من الجملة الاسمية: « هو وَحْيٌ ».

وأما من السنة ففي الأثر الصحيح ما ملخصه: (أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ ﷺ - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ - قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ (...) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلَا نَتَّهِمُكَ، كُنتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَتَبَّعْ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ!)[٢].

---

(١) ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: ١١].

(٢) رواه البخاري.

فواضح جدًّا أن كتابة الوحي هنا هي بمعنى كتابة القرآن، أي الوحي بالمعنى الاسمي؛ لأن الوحي بالمعنى المصدري لا يتلقاه ولا يسمعه أحد غير النبي ﷺ.

والوحي بمعناه الاسمي اصطلاح جرى عليه غير واحد من العلماء المعتبرين، من مثل ما رأينا في نص ابن كثير قبلُ، وأيضًا كما هو واضح من قوله رحمه الله في موطن آخر: (أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار)[1]. فإصغاء الكفار إلى الوحي إنما معناه الإصغاء إلى القرآن؛ لأن المعنى الأول مستحيلٌ قطعًا. وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧] قال: (﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: هذَا الوَحْيُ والقُرآنُ ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾)[2]. فاستعمل رحمه الله عبارتي « الوحي » و « القرآن » على سبيل الترادف والتفسير.

وخلاصة الكلام أن قراءة القرآن باعتباره وحيًا، معناه: تلاوته باعتباره وَحْيًا حَيًّا، أي بما هو كلام الله المتجدد أبدًا، ونوره المتوهج سرمدًا. ذلك أن من يقرؤه بهذا المقام الإيماني يجد نفسه تتزكى وتترقى بمعارج الروح، نحو الملأ الأعلى، ويشاهد بقلبه أن هذا القرآن ما يزال يحتفظ بصلته القوية بالسماء، صلة توقظ القلب، وتحييه وتزكيه. كما يجد أن كل كلمة فيه تخاطبه هو في نفسه، أو في مجتمعه وزمانه. وهذا معنى ثبات صفة الوحي للقرآن، ثبوتًا اسميًا خالدًا أبدًا. ومن ألطف الأحاديث الدالة على هذا المعنى، ما رواه أبو شُرَيْحٍ الخُزَاعِيّ رضي الله عنه قَالَ: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « **أَبْشِرُوا، أَبْشِرُوا! أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟** » قَالُوا: بَلَى، قَالَ: « **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ** [أي: حَبْلٌ]، **طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا!** »)[3]. وعن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « **كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ!** »[4]، وهذان الحديثان من أدق التعابير على ما قصدناه بالقرآن الوحي.

---

(١) عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢].

(٢) ن. الآية في تفسير السعدي.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب، وعبد بن حميد في مسنده. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب.

(٤) رواه الترمذي وحسنه، وكذا البيهقي في شعب الإيمان، كلاهما عن زيد بن أرقم مرفوعًا. كما رواه=

فتبين إذن أن مشكلة الأمة اليوم مع القرآن، هي فقدانها لهذا المعنى العظيم في تعاملها معه، وأنها في أحسن أحوالها تشتغل بالقرآن المصحف، أي بالرسوم والأشكال أو الأنغام، وغفلت عن الاشتغال بالقرآن الوحي، إلا قليلًا. والمشتغل بالقرآن المصحف فقط، يبقى حبيس رسوم الكلمات والسطور، ولا يتجاوزها إلى استشراف أنوار تلك الكلمات، ومشاهدة تجليات تلك الآيات، وذلك هو الوحي، وذلك هو القرآن، الذي إذا قرأه المؤمن بحقه تنزلت عليه السكينة، وغشيته الرحمة، وآنسته الملائكة، وذكره اللَّه فيمن عنده. وهي الغاية التي تسعى مجالس القرآن إلى إحيائها في الأمة بإذن اللَّه. ونحسب أن تجديد هذا المعنى في الأمة، ومكابدته بين شبابها تخلقًا وتحققًا؛ كفيل بتجديد جميع أركانها إن شاء اللَّه. ذلك، وما التوفيق إلا باللَّه.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا في بيان كيفية التحقق بتلاوة القرآن باعتباره وَحْيًا، لا باعتباره مجرد مصحف، حبيس صفحات معدودة، ورسوم محدودة! على ما فصلناه في الرسالة الأخيرة. **وأما التخلق بتلاوة القرآن وَحْيًا يَصِلُ القلبَ باللَّه، الربِّ العظيم المتكلم بهذا القرآن؛ فله أربعة مسالك، نجملها بتوفيق اللَّه فيما يلي:**

المسلك الأول: استحضار المعنى الأول لمصطلح الوحي، وهو المعنى المصدري للكلمة، أي الوحي بما هو تنزيل للآيات من عند اللَّه، بواسطة الملك جبريل على قلب محمد ﷺ، وبما هو سفارة عظيمة يقوم به الروح الأمين، جبريل عليه السلام، من السماء إلى الأرض. وكذا مشاهدة جميع تجليات معجزة الوحي، مما ورد في الكتاب، وصحت به السنة النبوية الشريفة. وذلك مثل نزول الملك وتدليه في الفضاء، على صورته النورانية فوق محمد ﷺ، كما هو مبين في سورة النجم وفي الحديث الصحيح. وهذا أمر كان قد وقع كثيرًا ومرارًا وتكرارًا، لكن الذي وقع مرتين منه إنما هو مشاهدة النبي ﷺ لذلك ببصره مشاهدة حسية. وإلا فأغلب الوحي نزل به جبريل على صورته، فيتلقاه عنه محمد ﷺ سمعًا دون رؤية بصرية.

= أحمد، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى، عن أبي سعيد الخدري. ورواه أحمد أيضًا عن زيد بن ثابت. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة، وفي تحقيق سنن الترمذي. كما صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

فاستحضار هذا الحدث الكوني الهائل، وما يقع من خرق هذا النور العظيم، لطبقات السماوات والفضاءات نحو الأرض، يجعل المؤمن يقرأ القرآن الآن، وهو يشعر بقيمة ما يقرأ، وأن الذي بين يديه معدن ثمين لا يُقَدَّرُ بثمن، لو اشتعل نوره بقلبه لوصله بالسماء، وهو معنى قراءة القرآن وحيًا.

المسلك الثاني: استحضار أن المتكلم بهذا القرآن هو اللّٰه رب العالمين، تكلم به سبحانه في الأزل، ثم جعله محفوظًا في اللوح المحفوظ، إلى أن أذن بإنزاله إلى السماء الدنيا، ثم بتنزيله إلى الأرض مُنَجَّمًا، على ما قضَى وقدَّر. فأن تشعر وأنت تقرأ، بأن اللّٰه ﷻ هو الذي يتكلم، فهذا مما لا تسعه الروح هيبةً وإجلالًا! فإذا قرأت القرآن إذن؛ فاستمع وأنصت؛ فإن اللّٰه يخاطبك! فالتلاوة منك والخطاب من اللّٰه ﷻ. وإن لذلك ما له من الأثر العظيم على النفس؛ إذ يفتح القرآنُ بصيرتَها على منافذ الروح، فتتلقى عن اللّٰه أسرار الهدى والنور. وتلك هي قراءة القرآن وحيًا.

المسلك الثالث: استحضار أن اللّٰه - تبارك وتعالى - يخاطبك أنت بهذا القرآن، ويكلمك به في خاصة نفسك. وتلك معجزة من معجزات هذا القرآن، فكما أنه خطاب للناس جميعًا، وللأزمنة والأمكنة جميعًا؛ فإنه أيضًا خطاب لكل نفس في نفسها، بخصوص زمانها ومكانها وظروفها، يجيب عن أسئلتها، ويلبي حاجاتها. إنه كالمرآة ما نظر فيها ناظر إلا كشفت له صورته، وبينت له ما فيها من حسن أو قبح. فالقرآن مرآة النفس، ومشرحة القلب. وأنت إذ تستحضر أن اللّٰه يخاطبك بهذا القرآن، ويحدثك في خاصة نفسك، يأمرك، وينهاك، ويوجهك، ويزجرك، ويعدك، ويتوعدك، ويبشرك، ويحذرك؛ تستحضر أنه سبحانه في كل ذلك يراك، وأنت تقرأ الآن، وينظر إليك ويراقبك، على ما ورد في الحديث القدسي: « **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** »[1].

فقراءة القرآن على مقتضى هذا المسلك، باعث لأشواق الروح في القلب؛ بما يفيض عليه من نور الوحي، المكنوز في كلمات اللّٰه.

(١) متفق عليه، عن أبي هريرة مرفوعًا.

المسلك الرابع: مكابدة التخلق بحقائق هذا القرآن، وممارسة تدبره ومدارسته بالليل والنهار، وعمران خلوات الأسحار بترتيله، تبتلًا بين يدي اللّٰه الواحد القهار. فالمكابدة التطبيقية الفعلية للقرآن، ومجاهدة أهواء النفس وشهواتها بحقائقه الإيمانية؛ هي التي ترتقي بالتلاوة إلى مقام المناجاة. وذلك هو المقصود بقراءة القرآن باعتباره وحيًا. وفي الحديث الصحيح: « **إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ!** »[1]، وقراءة القرآن في الصلاة وخاصة صلاة الليل، لهو من أقوى أسباب صلة القلب باللّٰه، والتخلق بأخلاق القرآن. وكذا نقل الأقدام إلى مجالس القرآن، ومدارسته، والارتياع من حياض الجنة عبر أبوابه.

فمن تحقق بهذه المسالك الأربعة؛ انفتحت منافذ الروح في قلبه، إن شاء اللّٰه، وكان ممن يقرؤون القرآن بوصفه وحيًا كريمًا من اللّٰه، يتجلى عليه نور اللّٰه وجلالُه العظيم، وكان بإذن اللّٰه من المؤمنين المتدبرين الخاشعين. وذلك هو المقصود. وما التوفيق إلا باللّٰه، ولا حول ولا قوة إلا به وحده، جل علاه.

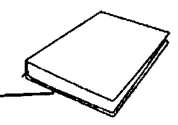
* * *

---

(١) متفق عليه.

المجلس الثاني

في مقام التلقي لأسرارٍ لطيفةٍ من الموازنة بين الهدى والضلال
وبيانِ بُعدِ ما بين تُرّهَاتِ الشرك وحقيقة الدين الخالص
والفرق بين مصدر هذا وذاك
واختلاف مصير أصحابهما في نهاية المطاف



١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٢٨ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾.

٢ - البيان العام:

كان مطلع السورة مما تدارسناه في المجلس الأول، بيانًا لحقيقة الوحي، وكشفًا لعدد من الخوارق المعجزات، والمشاهد النورانية المتعلقة به، انطلاقًا من موقع التلقي في الأرض، وانتهاءً بآخر منزلة في الملأ الأعلى، عند سدرة المنتهى. ولقد رأينا خلال

ذلك كله من آيات الجمال والجلال، ما يخشع له القلب وتبتهج به الروح.

فناسب بعد ذلك أن ينتقل الخطاب القرآني إلى بيان تهافت دين الهوى والظن الواهم، في مقابلة دين الوحي العالي الكريم، المتجلل بأنوار اليقين، وفضح الضلال الذي يتخبط فيه المشركون، بما اتخذوا من أصنام وأوثان، يعبدونها من دون اللَّه رب العالمين، ثم بيان ما يعانون من السفه العقلي والشلل الفكري؛ إذ ينحتون أحجارًا بأيديهم، ويجعلون لها أسماء من تلقاء أنفسهم، ثم يؤنثونها بأهوائهم، فإذا بها تتحول في أوهامهم، إلى آلهة تُعبد من دون اللَّه الواحد القهار. فذلك قول اللَّه ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾.

إنه سؤال توبيخ وتهكم واستنكار، فقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾، هو بمعنى: أتظنون هذه الأصنام الثلاثة آلهة حقًّا؟ أوَتزعمون ذلك؟ هل أوحت لكم بشيء كما أوحى اللَّه إلى رسوله ﷺ؟ هل رأيتم شيئًا من آياتها، كما رأى محمد ﷺ من آيات ربه الكبرى؟ أم أنها مجرد أحجار صماء بكماء، لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعًا؟ فكيف تتجرؤون على هذا الزعم الباطل السفيه؟

وفي الآية حذف لسؤال إنكاري آخر، تقديره: « أتجعلونها بناتِ اللَّه؟ » وهذا تقدير معنوي يدل عليه ما بعده من قول اللَّه تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾؟.. وهذه الأصنام الثلاثة المذكورة هي أشهر ما عبدت قريش وأحلافها في الجاهلية؛ حيث أدمنوا عبادتها حتى صارت مستند أيمانهم وعهودهم، فكانوا يقولون في حلفهم: « واللَّاتِ والعُزَّى » وكانوا يُعَبِّدُونَ أسماءَ أبنائِهم لها، فيقولون: « عبد العُزَّى »، وذكر الزمخشري أن العرب كانوا إذا شَرعوا في عملٍ قالوا : « بسم اللات، بسم العزى » [1]. وغير ذلك من مظاهر التعظيم لها في أشعارهم وخطبهم كثير.

فأما اللَّاتُ فهي اسمٌ لصنم منحوتٍ من حجر، كان منصوبًا بالطائف، وقد بنوا عليه بناءً، وجعلوا له أستارًا كالكعبة، وله سدنة، وكانت قريش وجمهور العرب

---

(١) ن. الكشاف للزمخشري عند تفسيره لأول البسملة من سورة الفاتحة.

يعبدونه ويعظمونه. وأما العُزَّى فهي أيضًا اسم لصنم من حجر، نُقِشَتْ عليه صورة شجرة، وقد نُصب ببطن نخلة، وهو اسم مكان ناحية مكة، وجُعل عليه أيضًا بناء وأستار وسدنة، وكان معظَّمًا جدًّا عند قريش. وقيل: إن العزى كانت عبارة عن ثلاث شجيرات، تأوي إليهن شيطانة، فتعبدها العرب. والراجح الأول؛ لأن العزى صنم قديم عند العرب، ولعله كان محاطًا بشجيرات أو نخلات اتُّخِذَتْ هي أيضًا أوثانًا. ومعلوم أن الشياطين تأوي إلى جميع الأصنام والأنصاب، حجرًا كانت أم شجرًا، كما تأوي اليوم إلى الأضرحة والمزارات. وأما مناة فهي اسم لصنم آخر من حجر، كان منصوبًا في الْمُشَلَّلِ، والْمُشَلَّلُ: جبلٌ يشرف على منطقة قُدَيْدٍ، بين مكة والمدينة إلى جهة البحر، فعلى ثَنِيَّتِهِ نُصِبَتْ مناةُ. وكانت الأوس والخزرج يطوفون حولها في الحج، عوضًا عن الصفا والمروة.

ووصفُ « مَنَاةَ » بكونها « الثَّالِثَةَ الأُخْرَى » ذم وتهويل وتحقير وتشنيع. فالثالثة رغم أنها كذلك في العد والترتيب التلقائي، إلا أن لها دلالة أخرى هي المقصودةُ أصالةً، وهي عَدُّ الشَّرِّ، وهو كما تقول العرب في المصائب: « ثالثة الأثافي! » (١)، وأما قوله: ﴿ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ فهو مِثْلُ ذلك أيضًا استفظاع وتشنيع، وهو كما يقال - على سبيل التهويل - لمن جاء بزلة: « هذه فضيحة أخرى! ».

هذا هو الراجح من أقوال المفسرين، في ذكر هذه الأصنام الثلاثة، وضبط أماكنها وصفاتها. وقد تعددت في ذلك أقوالهم واختلفت (٢). كما أنهم بالغوا في بحث اشتقاق أسمائها، وساقوا لذلك قصصًا مختلفة ومتناقضة، مما لا ينفع العلم به، ولا يضر الجهل به. والعبرة عندنا أنها أسماء أصنام، كانت تُعبد من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ ﴾، إبطالٌ لِمَا

---

(١) كما في قولهم: « رماه بثالثة الأثافي »، أي بمهلكة عظيمة. والأثافي جمع أُثْفِيَّة، وهي الأحجار التي تُنصب في البادية على الأرض للطبخ عليها؛ حيث تُسند إلى ظهر جبل فتوقد فيها النار، ثم توضع فوقها القدر. والأثافي حجرتان ثالثتهما ظهر الجبل؛ ولذلك جعلوه مثلًا في عظائم المهالك والمصائب. وقد صنعوا « الْمِنْصَبَ » من حديد على ذلك الوِزَانِ، فجعلوا له ثلاث قوائم. ن. مادة: « أثف » و « ثفا » في اللسان، والقاموس المحيط، وتاج العروس.

(٢) ن. تحقيق هذه الأسماء والأماكن في تفسيري الطبري وابن كثير للآية. وهي مبينة بشكل جغرافي في كتب السيرة.

زعموه من أن هذه الأصنام هن بنات اللَّه، كما زعموه في الملائكة أيضًا، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. وقد صاغه بطريقة الاستفهام الإنكاري؛ لما فيه من التوبيخ والتقريع، ولما يحتويه من الكشف لسفههم، وبلادة عقولهم؛ إذ هم يستقذرون أن تُنسب البنتُ إلى أحدهم، ويأنف الرجل منهم أن تلد له زوجه أنثى، فإذا فعلت أظلمت الدنيا في عينيه. أما إن وضعت له ولدًا ذكرًا؛ فإنه يملأ الأسواق فخرًا وكبرياء. ثم هم مع ذلك ينسبون الأنثى للَّه، ويجعلون له بنات بأهوائهم وأوهامهم، سبحانه. ومن ثم ارتقى التعبير في مراتب السخرية والتهكم بهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾، ومعنى ضِيزَى: جائرة ظالمة، غير عادلة، من الضَّيْزِ، وهو: الظلم والجور [(١)]. والمقصود أنه لو اقتسم رجلان من البشر الأولاد، فحاز أحدهم الذكور لنفسه وترك الإناث للآخر؛ لكانت تلك إذن قسمة جائرة ظالمة، على عرف العرب في الجاهلية. فكيف تجعلون ذلك في القسمة بينكم وبين اللَّه؟ وهذا أشد التهكم والسخرية والتوبيخ، وأبلغ خطاب في الدلالة على تنزه اللَّه ﷻ عن الولد والصاحبة، وأنما هو اللَّه الواحد، الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد.

ومن ثم جاء التعقيب الرباني على ذلك كله قويًّا شديدًا حاسمًا، فقال سبحانه: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ... ﴾، بمعنى أن هذه الأصنام ليس لها من صفة الألوهية شيء، رغم أنكم اتخذتموها كذلك بالباطل، وسميتموها بما يدل على الألوهية ظلمًا، فاللَّاتُ عندهم - كما روي - تأنيث لفظ « اللَّه »، سبحانه وتعالى عن ذلك وتنزه. والعُزَّى تأنيث الأعَزّ، ومَنَاةُ هي بمعنى القدرة [(٢)]. فهي أسماء فارغة، لا حقيقة لها في الواقع؛ لأن مسمياتها مجرد أحجار صماء، لا تنفع ولا تضر. وإنما هي أوهام الشرك وظنون الهوى، ألقاها الشيطان في قلوب المشركين وآبائهم، فتوارثوا هذا الجهل الشنيع، وسموا الأحجار بأسماء الآلهة، ثم عبدوها، بغير حجة من اللَّه، ولا برهان من الوحي، ولا سلطان مبين.

ثم قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ

---

(١) تقول: ضَازَ في الحكم، أي: جَارَ عن الحق ولم يعدل، وضَازَهُ حَقَّهُ يَضِيزُهُ ضَيْزًا، أي: نَقَصَهُ وبَخَسَهُ. والضَّيْزُ أيضًا: الاعوجاج. ن. الصحاح واللسان، مادة: « ضيز ».

(٢) ن. تفسيرها عند الطبري، والزمخشري، وابن كثير، والشوكاني، وغيرهم.

ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، أي أنهم واهمون فيما يسمون من أسماء ويتخذون من آلهة، لا يعتمدون على شيء من العلم بحقائق الأشياء، ولا خبر عندهم في ذلك من السماء، وإنما هم يتبعون الظنون والأهواء، مما تزينه لهم أنفسهم وشياطينهم. وهذا هدى الله يخاطبهم به رسول الله ﷺ، أوحاه الله إليه علمًا يقينًا بالله في ذاته تعالى وصفاته، وبما يجب له من الإخلاص والتنزيه والتوحيد. ومع ذلك أعرضوا عن الهدى والنور، واعتصموا بأهوائهم وطغيانهم، فاستحبوا العمَى على الهدى.

ثم انتقل الكلام في نفس السياق إلى خطاب أعم، مُضْرِبًا عن ضلال المشركين، وملتفتًا إلى جنس الإنسان، ناعيًا عليه انسياقه الشهواني وراء متمنياته ورغباته التي لا حد لها، حقًّا كانت أم باطلًا، فقال سبحانه: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾؛ وذلك لأن المشركين اتخذوا آلهتهم؛ استجابةً لما تمنوه بجهلهم، من أن يكون لتلك الأصنام تأثير في أمورهم المعاشية، أو تكون لها قدرة الشفاعة لهم عند الله. لكن التعبير الاستفهامي المستعمل هنا بأداة « أم » الإضرابية، دال على معنى النفي، بمعنى أن الإنسان لا يملك أن يصل إلى كل ما يتمناه؛ ولذلك جاء عَقِبَهَا تقريرُ التوحيد لله، وأنه - سبحانه وتقدست أسماؤه - هو وحده المقدِّر والْمُدَبِّرُ لمقادير الدنيا والآخرة، ولا دخل لأي مخلوق - مهما كان - في شؤون ربوبيته ومشيئته سبحانه، فذاك قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾. وفي تقديم الحياة الآخرة على الحياة الأولى - أي الدنيا - إشارة لطيفة إلى أن قلب المؤمن يجب أن يتعلق بالآخرة أولًا، وقبل كل شيء، وأن الطريق إلى نيل خَيْرَيْهِمَا إنما هو إفراد الله بالعبادة، والتوجه إليه تعالى بالرَّغَبِ والرَّهَبِ، وحده دون سواه.

ويستطرد سبحانه في بيان هذه الحقيقة الإيمانية الكبرى؛ إمعانًا في دحض أوهام المشركين وأمانيهم الباطلة، فيقول ﷻ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، ولفظ « كَمْ » هنا للتكثير. والقصدُ الرد على أولئك المشركين الجهلة، الذين يتمنون شفاعة الأصنام عند الله سبحانه، والحال أن هؤلاء الملائكة الكرام البررة، المقربين عند الله حقًّا، وهم يعمرون السماوات العلى بألوف الألوف، عابدين لله خاشعين؛ ها هم أنفسهم لا تغني شفاعتهم عند الله شيئًا، ولا تنفع أحدًا، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم،

وفيمن يشاء من عباده، فيجري ذلك كله على وفق مشيئته تعالى ورضاه.

وقد كان هذا السياق أنسب لبيان عقيدة المشركين الفاسدة في الملائكة، وما كان من زعمهم أنهم « بنات اللّه » سبحانه، ودحض ذلك كله وإبطاله؛ ولذلك قال تعالى بعدُ مباشرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝ ﴾. والذين لا يؤمنون بالآخرة هم هؤلاء المشركون، المنكرون للبعث والنشور، الذين لا يرجون حسابًا ولا جزاءً. لقد كانت عقيدتهم في الملائكة فاسدة أشد ما يكون الفساد، فهم بجهلهم وظنهم الواهم اعتقدوا أن الملائكة قد خلقت على هيئة الأنثى، ثم زادوا تصورهم فسادًا لما جعلوهم بخيالهم الساذج بنات للّه، تمامًا كما اعتقدوه في آلهتهم الحجرية. وأنت ترى هنا هذه الجرأة الوقحة على اللّه وملائكته المكرمين البررة، وتَقَوُّلَهُمْ عليهم بما لا علم لهم فيه على الإطلاق، فلا هم شهدوا خلقهم، ولا هم تلقوا خبر حقيقتهم من السماء، بل لا مصدر لهم في ذلك ولا مستند، إلا اتباع الظن. والظنُّ هنا هو بمعنى الوهم. والظنُّ الواهم لا يغني في معرفة الحق شيئًا، ولا يفيد في علم أبدًا. فما أجهلها من مقولة، وما أسفهه من قائلٍ!

ومن ثم التفت الخطاب إلى الرسول ﷺ، فقال له ﷻ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ﴾، والمقصود بالإعراض هنا ترك مجادلتهم، وعدم الإلحاح على إقناعهم، والحرص الشديد على هداهم ونجاتهم؛ ما دام قد بلغهم رسالات اللّه، وأنذرهم وحذر، وبين على أتم ما يكون البيان. والمقصود هنا التهديد بسوء العاقبة، أما الدعوة فمستمرة لا تتوقف، كما بيناه فيما يشبهه من الآيات. ذلك أن من تولى عن سماع ذكر اللّه، بمعنى أنه أدبر عنه استكبارًا، ورفض الاستجابة لنداء القرآن، بعدما بلغه خطابُه ودعوته، ثم قصر همه كله على التمتع بشهوات الحياة الدنيا؛ فهذا لا يستحق من اللّه التفاتًا ولا عناية، بل يُقَابَلُ بالإعراض كما أعرض هو عن اللّه ورسوله ﷺ.

ثم قال معقبًا: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ... ۝ ﴾، أي أن تعلقهم بالحياة الدنيا، وملذاتها الفانية، هو غاية علمهم، ومنتهى عقولهم. وهذا احتقار لهم وتسفيه؛ لأن العقول الكبرى تفكر فيما وراء هذه الحياة الدنيا، وترتقي بمراتب العلم إلى إدراك أن

خلق الإنسان، على هذه الدقة من الصنع، وتسخير كل هذه المخلوقات، والسنن الجاريات، لتكون في خدمته وطوع مصلحته؛ لا يعقل أبدًا أن يكون لمجرد حياة عابرة فوق الأرض، تنتهي بنهاية العمر، بعد سنوات معدودات! لا بد إذن أن في الأمر سِرًّا وحكمةً. ولا يزال الإنسان الفَطِنُ يبحث ويتفكر، حتى إذا بلغه كلام الله أيقن أنه الجواب الحق، الكاشف للغز الحياة، والفاتح لأبواب السماء، والحياة الخالدة التي لا تفنى أبدًا. أما المنغلقون على معتقداتهم المظلمة، المنحصرون في مستنقع شهواتهم، غير عابئين بأي مصير أخروي؛ فإنهم البلداء حقًّا، الذين لا يفكرون ولا يتدبرون، والذين لم يُؤْتَوْا من العلم إلا ما يدركون به رغائبهم الحيوانية؛ ولذلك قيل فيهم: ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ﴾.

ثم علل سبحانه الأمر بالإعراض عمن تولى بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ۝ ﴾، أي إن ربك يا محمد هو أعلم بمن استكبر عن الحق واتبع هواه، فضَلَّ عن سبيل الله وصراطه المستقيم، وهو تعالى أعلم بمن وَقَرَ الإيمانُ في قلبه فخضع لرب العالمين، وكان من المهتدين. كل ذلك معلوم عند الله ثابت في كتاب القدَر. وهذه تسلية منه تعالى للنبي ﷺ وتلطف به، حتى لا يبقى متحسرًا على ضلال المشركين، متأسفًا على إعراضهم، فيكلف نفسه فوق طاقتها؛ بما يبذله من محاولات الإقناع الحجاجي، لقوم طبع الله قلوبَهم على الكفر العنيد.

ثم أتبعه ببيان أن ما كان من هدى وضلال، هو من محض مشيئته وقدرته، وتصرفات ربوبيته، فقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ... ۝ ﴾، أي أنه الرب المالك المتصرف في مملكته وحده. وهذه جملة تربط بين ما سبقها وبين ما بعدها، وتبني اللاحق على السابق بناءَ تعليل وتفسير؛ ولذلك قال بعدُ مباشرةً: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ۝ ﴾، بمعنى أن تصريفه تعالى لمقادير الهدى والضلال، هو لحكمة الجزاء الذي رتبه تعالى ليوم الحساب في الآخرة؛ حيث جازى المسيئين في الدنيا بما يستحقون من العذاب في الآخرة؛ جزاء ما أفسدوا في الأرض وأضلوا، فإنما هي أعمالهم يلقونها مكتوبة عليهم يوم الحساب. بينما جازى المحسنين بالحسنى، أي بالمثوبة الحسنى، وهي: الجنة، أو منزلة رفيعة من منازل الجنة.

ثم بيَّن خصال هؤلاء الفائزين بالحسنى، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ... ﴾، أي الذين لا يرتكبون كبائر الخطايا والذنوب؛ كالشرك، والسحر، والزنا، والربا، وقتل النفس بغير حقٍّ، وقذف المؤمنات المحصنات، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، وأشباهها من أمهات الرذائل والموبقات. والفرق بين الإثم والفاحشة، أن الإثم عام في كل خطيئة، بينما الفاحشة هي ما كان منها فادحًا غليظًا، والعياذ بالله! واللَّمَمُ في اللغة: الشيء القليل الصغير، أو الفعل الخاطف، كالجلوس العابر في المكان يعقبه انصراف سريع، فيقال: أَلَمَّ بالمكان الفلاني، بمعنى حضر به قليلًا ثم انصرف. ومثله قولهم: أَلَمَّ بالطعام: إذا أكل منه قليلًا [١]. واللَّمَمُ هنا في الآية كناية عن صغائر الذنوب؛ كالنظرة الحرام، والدخول في المتشابهات من الأموال والمعاملات. وقيل: اللمم هو الوقوع في الذنب ولو كان كبيرة، لكن من غير أن يكون له عادة، فيندم عليه ندمًا شديدًا، ويتوب منه توبة إلى الأبد. وكلاهما مناسب لمعنى اللمم؛ لأنه الشيء القليل العابر كما بيناه. وإن كان الأول أولى، أعني القول بأنه صغائر الذنوب، ودليله ما رواه الشيخان عن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ! فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ!** ») [٢]. ولذلك كان النبي ﷺ يقول:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا [٣]

فاللَّمَمُ على كل حال هو كل زلة عابرة، وكل صغيرة غير مداوَمة، وهذا لا ينجو منه إلا معصوم. ولكن ليس معنى الآية أن هؤلاء المؤمنين، يجتنبون كبائر الإثم والفواحش فقط، ثم لا يتورعون بعد ذلك عن ارتكاب اللمم، كلَّا طبعًا! وإنما الآية تقرير عن واقع، ووصف للطبيعة البشرية، وذلك أنهم يجتنبون اللمم أيضًا، ويحتاطون من صغائر الذنوب كما يحتاطون من كبائرها، لكنهم مهما اجتهدوا فإنهم لا بد بصفتهم بشرًا من أن يخطئوا، فيكون خطؤهم من قبيل اللمم، لا من قبيل الكبائر

---

(١) ن. الصحاح واللسان، مادة: « لمم ». (٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. كما رواه البيهقي في الشعب، والحاكم وصححه على شرط الشيخين. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وصحيح الجامع الصغير.

والفواحش؛ لأن هذه قد عصمهم الله منها بفضله. فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾ معناه إلا ما وقعوا فيه خطأً أو غفلةً من اللمم، مع كونهم على حال مستمرة من المراقبة والمجاهدة. والغفلةُ لا ينجو منها أحد.

ولذلك ختم السياق كله بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي إن ربك أيها النبي ﷺ كثير المغفرة لعباده، وأنه بتجاوزه عن المؤاخذة باللمم من صغائر الذنوب - وهي من الحرام - قد وَسِعَ عبادَه جميعًا برحمته ومغفرته، وأن المنة في ذلك كله لله وحده. فهذه بشرى أهداها الرحمن لرسوله ﷺ، تكريمًا له ولأمته، ونكايةً في أعدائه المشركين، الذين لا رب لهم يغفر خطاياهم.

ومن المعاني التبعية في الآية أن يقال أيضًا: إن ربك أيها العبد التائب من ذنبه واسع المغفرة، بمعنى أن الله - تقدست أسماؤه - يغفر الذنوب جميعًا، كبائرها وصغائرها، ما كان العبد يتوب منها صادقًا.

وهو سبحانه أعلم بعباده؛ لأنه الخالق لهم، العليم بمبتدئهم ومنشئهم، الخبير بتكوينهم، وبما فطرهم عليه من الضعف والقابلية للسقوط، منذ أن خلق الإنسان من طين الأرض، ثم جعله يتناسل بالنطفة المزروعة في الأرحام؛ حيث يخلق الله الأجنَّة على مراحل دقيقة، وبأسرار وراثية عجيبة، ورعاية روحية رفيعة. والأجنَّة: جمع جنين، وهو الإنسان ما دام حملًا في بطن أمه. سمي بذلك لاجتنانه، أي لخفائه واستتاره؛ إذ مدار مادة « جنن » في اللغة كلها على معنى الستر والخفاء.

فرب العباد، الخالق للعباد، أعلم بما فطر عليه الإنسان، من ضعف النفس، والميل إلى الشهوات؛ ولذلك قال سبحانه في ختام الآية: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾، أي: فلا تنزهوا أنفسكم عن النقص بادعاء الكمال، ولا تمدحوها عُجْبًا وفخرًا، وتبجحًا بدعوى الصلاح والتقوى، فهو تعالى أعلم بكم؛ إذ هو الخالق لكم، الخبير بخفايا أنفسكم وسقطاتها، وهو سبحانه أعلم بمن تاب إليه صادقًا، فلم يزل يبكي على خطيئته، نادمًا على زلته، متضرعًا إلى ربه في خلواته وجلواته، سالكًا مسلك الخوف والحذر، من غير رياء ولا تسميع؛ عساه يكون من المتقين. فما نجا من نجا إلا برحمة الله. فاللَّهم اجعلنا من التوابين واجعلنا من المتطهرين.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات الخمس التالية:

الرسالة الأولى: في أن عقائد الشرك والوثنية بشتى أشكالها، قابلة للظهور في أي بيئة وفي أي زمان، والإنسان إذا لم يكن محصنًا بعقيدة الدين الخالص، فهو مهدد بالوقوع في ظلمات الشرك. ومن ثم فخطاب القرآن عن الشرك والأصنام هو خطاب خالد أبدي، لا يتعلق بقريش فقط، ولا بمرحلة الجاهلية التي كانت في التاريخ فحسب، بل هو متعلق أيضًا بإنسان هذا الزمان. وقد كنت أظن ككثير من الناس أن الوثنية مرتبطةٌ بالأمية، والبدائية الثقافية والعمرانية، ثم اكتشفت أن ذلك غير صحيح، وأن الوثنية قابلة للظهور حتى في المجتمعات المسماة « متحضرة » و « متقدمة »، أي على مستوى علوم المادة. وليس ذلك منحصرًا في أوساط عوام الناس فحسب، بل في أوساط المثقفين أيضًا. ولقد وقعت الممارسة الشركية حتى بين بعض الأطباء، والمهندسين، ورجال الثقافة والفكر، وبعض كبار رجال الدولة والسياسة. ومن النوازل السيئة التي بلغتني، أن بعض الشباب المسلم جعل يمارس رياضة « اليوكا »، ذات الأصول الهندية، فلم يزل يتعمق في ممارستها ودراستها؛ حتى افتتن بمذهب من مذاهب الهندوسية، فاعتنقه وارتد عن الإسلام، والعياذ بالله!

والقصد من هذا كله عدمُ الاستهانة بما في القرآن من استطراد وتفصيل، في نقض عقائد الشرك والوثنية بشتى ضروبها؛ لأن الله وهو العليم الخبير سبحانه، عليم بأن البشرية بمن فيها من المسلمين معرضة للوقوع في ظلمات الشرك. ومن ثم فهذه الآيات وأضرابها، يجب أن تكون أساسًا من أسس التربية الإيمانية لأجيال الأمة.

الرسالة الثانية: في أن القول في الدين لا يجوز أن يكون إلا بعلم من الكتاب والسنة، لا بما تمليه الظنون والأوهام، ولا بما تشتهيه الأنفس وتتمناه من التصورات والأهواء. كما أن الحديث عن حقائق الإيمان ومشاهد الغيب، لا يجوز أن يخضع للتخرصات والظنون، ولا يجوز إثبات شيء من ذلك كله، كأوصاف الملائكة مثلًا، أو هيئات السماوات ومعارجها؛ إلا بنص من كتاب أو سنة صحيحة.

وربما وجدت في بعض كتب التفسير، وغيرها من كتب التراث، شيئًا من ذلك،

أعني وصف بعض الغيبيات بغير علم، فتجدهم يفصلون في إيراد الغرائب والعجائب، مما يتناقض مع حقائق الإسلام ولا ينتبهون. فكل ذلك من الإسرائيليات الباطلة، التي لا يجوز اعتمادها، خاصة منها ما خالف نصوص الكتاب والسنة الصحيحة. فالغيب في الإسلام علم، ولا يجوز الحديث فيه إلا بعلم.

الرسالة الثالثة: في أن معرفة توحيد الربوبية، والتحقق بمعرفة اللَّه ﷻ ربًّا، وتفرده بملكية العالم كله، وبتدبير شؤونه وتقدير مقاديره، وأن لا شفاعة عنده لأحد إلا بمشيئته ورضاه؛ كل ذلك وما في معناه علم ضروري لصلاح الإيمان، وسلامة الاعتقاد من الشرك، كبيره وصغيره؛ ولذلك تجد القرآن المجيد يفصِّل في تعريف حقيقة الربوبية وتجلياتها، تفصيلًا لا ينافسه تفصيل لشيء آخر، من مقاصد القرآن وقضاياه. إلى درجة أنه يمكنك أن تقول: إن القرآن الكريم هو كتاب التعريف باللَّه. وهذا معناه أن معرفة اللَّه ربًّا خالقًا لكل شيء، ومهيمنًا على كل شيء، ومدبرًا لكل شيء، وما يتعلق بذلك من توحيد اللَّه ﷻ في أسمائه وصفاته؛ هو أهم شيء ينبغي للمسلم أن يتعلمه ويتحقق به، إيمانًا وخُلُقًا.

الرسالة الرابعة: في أن من أهم مشكلات الكفر الدنيوية، الممتدة آثارها إلى الآخرة، أنه يجعل نظر صاحبه حبيس حدود العالم المادي، ومن ثم فإن كسبه العلمي إنما هو متعلق بعلوم الدنيا، وبما تلتقطه حواسه وتجاربه منها. ومن ثم فإن دعوته ينبغي أن تقوم على محاولة فتح بصيرته على منافذ الروح؛ عساه يبصر مساحات الزمن الأخروي، وامتداداته التي لا حد لها. كما أن تجديد الدين بين المسلمين أيضًا، يقوم على هذا؛ بسبب أن المرض الحاصل اليوم في الأمة، إنما هو غفلة مزمنة عن حقائق الآخرة، حتى آلت كثير من أحوال المسلمين إلى ما يشبه أحوال الكفار، فيما هم فيه من الضلال والعمى. ومن ثم كانت إشاعة علم الآخرة، مقصدًا أساسيًّا من مقاصد الدين. عليه تقوم الدعوة، وبه يتجدد الدين.

الرسالة الخامسة: في أن تزكية النفس [1]، بمعنى إطرائها، والشهادة لها بالصلاح،

---

(١) تزكية النفس في الإسلام له معنيان، أحدهما محمود والآخر مذموم؛ فالمذموم هو تزكيتها بمعنى الشهادة لها بالاستقامة، وهذا يكون من باب الفخر والعُجب والرياء، وادعاء التقوى والصلاح، وهو محبط للأعمال والعياذ باللَّه؛ ولذلك ورد النهي عنه ههنا في سورة النجم، فيما تدارسناه من قوله تعالى: =

والاستقامة والكمال، وتسميع الناس ما تقوم به من أعمال الخير، وكذا حب سماع المدح والثناء عليها من الغير، كل ذلك من أخطر محبطات الأعمال. والمؤمن المخلص لا يقوم بإطراء نفسه، ولا بمدح ذاته، ولا يفخر بأحواله وأعماله، ولا يُسَمِّعُ أعمالَه الصالحة لغيره، اللّهم إلا لمصلحة شرعية معتبرة. ولذلك فقد حذر النبي ﷺ من مخاطر التسميع في أحاديث كثيرة رهيبة، منها ما رواه جُنْدُب بْنُ عبدِ اللَّهِ البَجَلِيّ ﷺ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ! »[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ! قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ! وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ! وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ! »[2].

جعلني اللّه وإياكم من المخلصين، وغفر لي ولكم أجمعين.

٤ - مسلك التخلق:

ههنا منزلة عظيمة من منازل الجنة، ألَا وهي منزلة الحسنى. وإنما ينالها الذين أحسنوا. أي أحسنوا العبادة للّه، والاستقامة على صراطه المستقيم. **وإنما يتحقق ذلك للمؤمن بمسلكين اثنين:**

= ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾. وأما المعنى الثاني - وهو المحمود - فتزكية النفس: هو بمعنى تربية النفس وتهذيبها، وترويضها على مسلك الصلاح. وهذا من باب مجاهدة النفس وتخليصها من هواها، وهو مطلوب. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩].

(١) رواه البخاري عن جندب، ورواه مسلم عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم.

المسلك الأول: إخلاص التوحيد لله في ربوبيته وألوهيته. وهو مدار الآيات موضوع الدرس بهذا المجلس كما رأيت. ويلزم عن ذلك الثبات على الطاعات، من أصول العبادات ونوافل الخيرات.

المسلك الثاني: حفظ مكاسب المسلك الأول؛ باجتناب ما يخرمه ويهدمه، وهو كبائر الإثم والفواحش، ومدافعة اللمم. ذلك أن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ... ﴿٣٢﴾ ﴾، فيه معنى اقتضائي، وهو أنهم أخلصوا التوحيد لله أولًا، وبنوا عليه أعمالهم الصالحة، ثم حفظوها باجتناب كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم. وقد بينا قبلُ أن الاستثناء في اللمم معناه: إلا ما وقعوا فيه خطأً وغفلةً من اللمم. فخلاصة مسلك الحسنى إذن؛ أنه التزام صارم بالطاعات، وترك قاطع للمنكرات. ولك أن تلخصه بقول النبي ﷺ: « **قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ!** »[1]. ذلك، وإنما الموفق من وفقه اللّٰه، ولا حول ولا قوة إلا به.

* * *

(١) رواه مسلم وغيره.

المجلس الثالث

في مقام التلقي لموازين الجزاء في الدين
وأن الله قدير على إنجاز وعده،
بما لربوبيته تعالى من صفات العظمة والجلال

١ - كلمات الابتلاء:

قالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾.

٢ - البيان العام:

في هذا المقطع الأخير من سورة النجم، تتجمع خلاصات التوحيد، في شكل حِكَمٍ قصيرة مكتنـزة. وهي كلها تدور حول بيان موازين الجزاء الأخروي وقواعده، وتبين وجوهًا جليلة من عظمة الربوبية، وهيمنة الرب ﷻ على الدنيا والآخرة، خَلقًا وتقديرًا وتدبيرًا، وأن الخلق كلهم عبيد له، فمن تمرد عليه منهم أهلكه. حتى تختم السورة كلها بآيات عن القرآن المجيد، كلام الله رب العالمين، بما فيه من حِكَمٍ جليلة، وبلاغات مبينة؛

ما لو تفكر فيه الإنسان وتدبر حقًا لبكى، وخرَّ ساجدًا لله الواحد القهار.

ويبتدئ الخطاب بالتعجيب من نموذج بشري غريب الأطوار والأفكار، نموذج عاش في الوسط العربي الجاهلي بالمجتمع القرشي، ولم يزل وجوده مستمرًا طيلة التاريخ، متجليًا في صور شتى إلى يومنا هذا؛ ولذلك سجله القرآن، ونقضَ منطقه المنحرف، ثم أعلن إدانته إلى يوم الدين.

أخرج الإمام الطبري عن مجاهد وابن زيد أن الوليد بن المغيرة - وهو من أشياخ قريش - كان قد جلس إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فتأثر به الوليد تأثرًا بليغًا، حتى مال قلبُه إلى الإيمان بعض الميل، وعندما انصرف لقيه رجل من المشركين، فلما علم منه ميله إلى الإسلام؛ نفَّره منه تنفيرًا شديدًا، ونعى عليه ترك دين آبائه وأجداده، فقال له الوليد: إنني خشيت عذاب الله! فقال الرجل: أعطني شيئًا من المال وأنا أحمل عنك عذاب الله! ولم يكن العرب يومئذ يؤمنون بالآخرة أصلًا، لكن الرجل استغل ما وقع في قلب الوليد من إيمان مذبذب، فقال له ما قال. فأعطاه الوليد مالًا على قدر معلوم متفق عليه، عجَّل له بعضه وأجَّل بعضًا. ثم ارتد الأحمق إلى شركه، وقال في الإسلام قولًا شنيعًا! فلما عاد الرجل إلى الوليد يستقضيه بقية المال؛ أَكْدَى عليه الوليد، أي امتنع وتعاسر عليه (١).

ومن هنا سجل القرآن الكريم هذا الحدث العجيب بصورة مجملة؛ حتى تكون صالحة للعبرة في كل زمان وُجدت فيه، بشكل أو بآخر. وهي كما قلنا لم تكد تنقطع عبر التاريخ إلى يومنا هذا، فعلَّق عليها الرحمن بالكشف عن طبيعة موازين الجزاء الأخروي، وبيان أن لا أحد يمكنه أن يحمل جريمة غيره، أو يتحمل عنه ذنبه أو بعض ذنبه. بل كل نفس تدان بما كسبت. فذلك كله قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.. إلى آخر الآيات.

فقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾، سؤالٌ القصد منه

(١) ن. تفصيل الروايات في تفسير الآيات عند الإمام الطبري، وكذا في الدر المنثور للسيوطي.

الإعلام والتعجيب من حال المسؤول عنه، هذا الذي عرف الحق ثم تولى عنه وأدبر، وافتدى نفسه - على زعمه - من عذاب اللَّه بمال قليل ثم قطعه. فقوله: ﴿ وَأَكْدَىٰٓ ﴾ فعل مشتق من الكُدْيَةِ، وهي الصخرة العظيمة. وكانت العرب إذا حفر الإنسان بئرًا فواجهته أثناء الحفر كُدْيَةٌ؛ انقطع عن الحفر، فتقول فيه: أَكْدَى. فعبروا بالفعل بعد ذلك عن كل انقطاع مادي أو معنوي [1]. فكذلك حتى هؤلاء الذين يفتدون أنفسهم من عذاب اللَّه - على غير شرع اللَّه - لا يستمرون في العطاء، بل سرعان ما يبخلون وينقطعون. ويدخل في هذا المعنى بالتبع كل من منع الزكاة، وأعطى عوضها دراهم قليلة جدًّا؛ طلبًا للمغفرة بوهمه، ثم انقطع. فلا يبلغ ما أعطاه شيئًا يستحق الذكر، بالنسبة إلى ما وجب عليه من حق اللَّه، في ماله الضخم الوفير. وهذا نموذج كثير في زماننا هذا، مع الأسف.

وأشكالٌ من هذا الجهل الشنيع باللَّه واليوم الآخر، ما تزال تمارس اليوم في الكنيسة باسم صكوك الغفران، وباسم عقيدة الخلاص، وأن المسيح عليه السلام يتحمل بزعمهم كل جرائم المؤمنين به. ومثل ذلك يُمارس بصورة مشابهة من لدن أحبار اليهود وحاخاماتهم. وهو أيضًا يقع بصورة أخرى لدى بعض جهال المسلمين، الذين يقصدون بعض مشايخ الطرق الصوفية، يدفعون لهم الهدايا ليبشروهم بالمغفرة والرضوان!

ثم تابع الخطابُ الإنكارَ على هذا النموذج المختل، فقال سبحانه: ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾، بمعنى كيف يجيز هذا الأحمق افتداء نفسه من عذاب الآخرة، بما دفعه من مالٍ، لقاء أن يتحمل غيرُه عنه العذاب؟ فهل كان له علم بحقائق الغيب كيف تجري يوم القيامة، فهو يرى موازين الحساب كيف تنتصب وكيف تعمل، فتصرَّف بمقتضى ما رأى؟ أم أنه يتبع ما تمليه عليه أوهامه وأهواؤه؟ ذلك سؤال إنكاري شديد، يزلزل النفس الإنسانية، ويوقظ قلوب الجهلة باللَّه من غفلة الشهوات والأهواء.

ومن ثم جاء البيان الإلهي بعده واضحًا قويًّا، يكشف خرافية هذه التصورات الباطلة، ويوضح موازين الجزاء الأخروي، كما وضعها الرحمن، لا كما تتخيلها الأهواء والأوهام، فقال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى

---

(١) ن. مادة: « كدي » في الصحاح، والمحيط لابن عباد، ومادة « كدا » في لسان العرب.

وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾. والاستفهام « بأم » ههنا إضراب انتقالي؛ أي أنه إضراب عن الكلام السابق، وانتقال إلى استفهام إنكاري جديد، ينعي على هذا المفتدي الجهول، الركونَ إلى جهله، والاكتفاء بأوهامه، وعدم السعي الجاد في طلب العلم بالله، وبموازين الجزاء الأخروي كما وردت في كتب الأولين. فما دام هو لم يؤمن بمحمد ﷺ، فقد كان أولى به أن يتحقق من مسألة الفداء، بسؤال أهل الكتاب من أحبار اليهود، فعندهم التوراة، وهي المقصودة هنا بصحف موسى عليه السلام، ففيها تفصيل الحق فيما تصرَّف هو فيه بجهل. كما كان عليه أن يتتبع أخبار ما بقي متداولًا عند العرب، من حِكَمِ دين إبراهيم عليه السلام، ففيها الجواب عما تذبذب فيه واضطرب. وقد وصف الرحمن ﷻ نبيَّه إبراهيمَ هنا بأنه ﴿ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾، بمعنى أنه الذي أتم الوفاء بعهد الله، في كل ما أمره به من الطاعات، وأتم بلاغ رسالة الدين الخالص للناس. وفي هذا تعريض بالمشركين العرب، الذين حرفوا دين إبراهيم من التوحيد إلى الشرك، ولم يحتفظوا منه إلا بِحِكَمٍ متناثرة، يتداولها مَن سُمُّوا بالمتحنِّفين، أخذًا من « الحنيفية » دين إبراهيم عليه السلام. وهم قوم نبذوا عبادة الأوثان قبل مجيء الإسلام، ولم يزالوا يردِّدون بعض حقائق التوحيد المأثورة عن دين إبراهيم، فمنهم من مات قبل البعثة، ومنهم من أدركها ورغم ذلك لم يسلم، كأمية بن أبي الصلت، ومنهم من شهد لمحمد ﷺ بالنبوة ثم مات كورقة بن نوفل رضي الله عنه. فإبراهيم عليه السلام كان قد وَفَّى البلاغ وأتمه، ولو طلب هذا المشركُ المذكور هنا حقيقة الآخرة وموازينها، عند هؤلاء المتحنفين لوجدها.

ثم شرع سبحانه في ذكر ما في صحف إبراهيم وموسى، مما يناسب المقام، وينقض عقيدة الذين يظنون إمكان الافتداء من عذاب الله ببيع خطاياهم إلى الآخرين! قال ﷻ : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ وقد أُضمرت ههنا « أنْ » التفسيرية، بمعنى أنَّ ما في الصحف المذكورة هو أنْ: (لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى). وفعلُ وَزِرَ يَزِرُ وِزْرًا، معناه: أذنبَ ذَنْبًا، واقترف خطيئةً. والمقصود بالوَازِرَةِ: النفسُ المذنبة، حُذف لفظ « النفس » لدلالة السياق عليه. والمعنى أن ميزان الجزاء يوم الحساب قائمٌ على قواعد، منها أنه لا تُعَاقَبُ نفس بجريمة نفس أخرى، ولا إمكان يومئذ أن يتحمل أحد عن أحد شيئًا من الشر، بل كل مجرم يؤخذ بجريمته.

ثم قال في عمل الخير: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾، وهذا تتميم لمعنى الآية السابقة، على سبيل التقابل التكاملي، كما تتكامل ثنائيات الترغيب والترهيب في القرآن عمومًا. بمعنى أنه إذا كان ميزان الوزر كما ذُكر؛ فإنه أيضًا ليس للإنسان من الخير يوم القيامة إلا ما كان قدَّم لنفسه في الدنيا من عمل صالح، أو كان سببًا فيه؛ كالصدقة الجارية، والعلم المورَّث، والولد الصالح [1]، ثم ما خصه الدليل من عموم الآية، مما أكرم اللَّه به هذه الأمة كالنيابة في الحج عن العاجز، وقضاء الصوم عن الميت، والدعاء له، والتصدق عليه، ونحو ذلك مما صحت به النصوص. والعملُ يسمى عند العرب سعيًا؛ لأن الإنسان في العادة يسعى لاكتسابه. فذلك ما سوف يُرَى يوم الحساب، عندما تُعرض الأعمال على الميزان بين يدي اللَّه ﷻ . وهنالك يجزي اللَّه العبد الصالح الجزاء الأوفى، أي الأجر الأوفر والأكمل.

ثم استطرد الخطاب في بيان حِكَم أخرى من صحف إبراهيم وموسى، مما دعت الحاجة إلى بيانه للكفار الجهلة باللَّه، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾، وهذا ترسيخ لعقيدة البعث والنشور، التي أنكرها المشركون العرب وملاحدة هذا العصر، فالإنسان في هذه الحياة الدنيا سائر سيرًا يستغرق عمره كله، فإذا انتهى سيره وجد نفسه ماثلًا بين يدي اللَّه رب العالمين. والتعبير بلفظ ﴿ رَبِّكَ ﴾ هنا التفات خطابي إلى شخص النبي ﷺ، تسليةً له عما قابله به المشركون من الجحود والكفران، وتعريضًا بهم بأن لا رب لهم ينصرهم من اللَّه ﷻ .

واستمر الخطاب يفصِّل حِكَمًا أخرى من شؤون الربوبية، معرفًا بهذا الرب العظيم الذي إليه المنتهى، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾، وهذه آية عجيبة، دالة على أنه هو وحده - سبحانه - المتحكم في المشاعر الإنسانية، والعواطف البشرية، المتقلبة بين الضحك الذي هو التعبير البشري الفطري عما يجده الإنسان في قلبه من انبساط وسرور؛ وبين البكاء الذي هو التعبير الفطري أيضًا عما يجده من حزن وغم. فالضحك والبكاء، أو الحزن والسرور، كلاهما من الظواهر التعبيرية التي

---

(١) جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول اللَّه ﷺ: « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »، رواه مسلم.

تفرض نفسها على الإنسان فرضًا، متى توفرت أسبابها، وهو لا يستطيع لها ردًّا على الإطلاق، كما أنه لا يستطيع استبدال بعضها ببعض، متى غزاه الشعور بشيء منها. وذلك كله دليل عميق على ضعف الإنسان، وعلى أنه عبدٌ مملوكٌ لِمَالِكٍ، يتحكم في عواطفه ومشاعره، ويخلق فيه الإحساس باللذة والألم. وهذا تجلٍّ عظيم من تجليات الربوبية على العالم البشري.

والتعبير بضمير الشأن في الآية: ﴿ هُوَ ﴾، دال على الحصر والقصر، بمعنى أن الله وحده دون سواه، هو الذي أضحك وأبكى، سواء فيما يتعلق بمسرات الدنيا وأحزانها، أو فيما يتعلق بنعيم الآخرة وعذابها.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ ﴾، وهذه أيضًا آية من آيات الربوبية العظمى، تَقْصُرُ فعلَ الإماتة والإحياء على الله وحده، وتبين أن لا أحد يستطيع فعل شيء من ذلك سواه، فهو رب الموت والحياة وخالقهما، وجميعُ أسرارهما بيده وحده، فلا إمكان لمخلوق أن يطَّلع على شيء من خفاياهما. وفيها إشارة إلى أن الموت والحياة من أغرب حقائق الوجود! وأنهما من المعاني التي لا طاقة للعقل البشري على إدراك كنهها على الإطلاق. وإنما الذي نعرفه هو آثار الموت وآثار الحياة، وأعراضهما. ومن ثم فلا أحد يستطيع أن يضع تعريفًا جامعًا مانعًا لمفهوم الموت أو الحياة. وفي هذا تحدٍّ كبير للعقل البشري، وقهر للخلق أجمعين.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝ ﴾، ذلك أن الله - جل ثناؤه - قد خلق جميع جنس الحيوان - بما فيه من نوع الإنسان، وهو أرقى الأنواع وأكرمها - على هيئة الذَّكر والأنثى، وجعل استمرار النسل في الأرض مبنيًا على سنة الزواج، وجعل في نطفة المني عندما تعلق بالرحم أسرارًا عجيبة، من الخصائص الوراثية والدقائق التكوينية، التي ترسم صورة الإنسان بكل ما فيه من ملامح وسمات، ومن لون، وقامة، وهيئة، وصوت، وبصمات ... إلخ. كل ذلك مكنون في تلك النطفة الممناة، فهنالك داخلها إذ تعلق بالرحم؛ تتحدد طبيعة الإنسان الخِلْقية، ذكرًا سيكون أم أنثى. وذلك على حسب « كروموزومات » الأنوثة والذكورة الكامنة في النطفة. وكشفُ الحجابِ هنا عن هذه الآية العجيبة في أسرار الخلق، العاكسة لتجليات الربوبية الخلَّاقة؛ إنما هو تمهيد استدلالي لبيان أن الفاعل لذلك قادر

على إعادته مرة أخرى، وعلى إحياء الناس ليوم النشور، وهو قوله تعالى بعدُ: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧ ﴾. والنشأة: اسم مرة من الإنشاء، وهو الخلق والإيجاد. ووصفها بالأخرى هو بمعنى « الأخيرة » أي النشأة التي لا نشأة بعدها، وهي مقابلة في الدلالة للنشأة الأولى، التي هي خلقة هذه الحياة الدنيا. والمقصود أن اللّٰه تعالى قد ضمن إعادة الخلق للبشرية بعد بِلَاهَا، وبَعْثِ جميع مَنْ في القبور ليوم النشور.

وبما أن كمال نعمة الخلق لا يكون إلا بضمان نعمة الرزق؛ فقد بيَّن سبحانه أنه هو وحده المقدِّر لمقادير الأرزاق، المهيمن على جميع خلقه عطاءً ومنعًا، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ ﴾، فالإغناء: تمليك المال الوافر، الذي يسد الحاجة ويغني عن الناس. والإقناء: تمليك أصول الأموال، للانتفاع الشخصي والاستهلاك الذاتي، مما عدا الْمِلْكَ التجاري، كامتلاك البقر للحلب مثلًا، والسيارة للركوب، والبيت للسكن، والبستان للاستفادة من ثمره، والتنزه فيه، وما شابه هذا وذاك. فالقِنَى في الحقيقة هو تمام الغِنَى؛ ذلك أنه قد يُوجَدُ المال نقدًا بيد الإنسان، من الذهب والفضة أو ما ينوب منابهما من النقد المعاصر، ولكن قد لا يجد الإنسان ما يشتري، ولا ما يقتني بماله ذاك؛ إذا منع اللّٰه الثمرة، أو عطل حركة التجارة، أو رفع الأمن عن البلاد والعياذ باللّٰه. فَخَلْقُ اللّٰه للنعم من أنواع المكتسبات، والمدَّخرات، والمطعومات، والملبوسات، وسائر العُروض وأصول الأموال، وتيسير اكتسابها للإنسان، هو الذي يعطي للغنَى حقيقته التامة (١).

فإذا كان هذا الرب العظيم، هو الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، المدبِّر لكل شيء؛ فبأي حق يتوجه العبيد إلى غيره بالعبادة؟ كيف وكل معبود سواه إن هو إلا خَلْقٌ من خلقه، وجزء من صنعه؟

(١) قال ابن عباد: (قَنَا الإنسانُ غَنَمًا، يَقْنُو قُنْوًا وقُنوانًا وقُنْيَانًا واقْتَنَى يقْتَنِي اقْتِناءً: وهو أنْ يَتَّخِذَهُ لنَفْسِه لا للبَيْع (...) وَيُقَالُ: قَنَاهُ اللّٰهُ وأَقْنَاهُ: أي جَعَلَ له ما يَقْتَنِيهِ. وتَقَنَّى: بمعنى اقْتَنَى). المحيط في اللغة، مادة: « قنو، وقني ». وفي الصحاح: (قَنَوْتُ الغنمَ وغيرها قِنْوَةً وقُنْوَةً، وقَنَيْتُ أيضًا قِنْيَةً وقُنْيَةً، إذا اقتنيتَها لنفسك لا للتجارة). مادة: « قنا ». وفي اللسان: (القِنْوَةُ والقُنْوَةُ والقِنْيَةُ والقُنْيَةُ الكِسْبةُ (...) قَنَوْتُ الشيءَ قُنُوًّا وقُنْوَانًا واقْتَنَيْتُه كسبته. وقَنَوْتُ العنزَ: اتخذتها للحلب. وله غنم قِنْوَةٌ وقُنْوَةٌ: أَي خالصة له ثابتة عليه. والكلمة واوية ويائية. والقِنْيةُ: ما اكتُسب، والجمع قِنًى. وقد قَنِيَ المالَ قَنْيًا وقُنْيانًا - الأُولى عن اللحياني - ومالٌ قِنْيانٌ: اتخذته لنفسك). مادة: « قنا ».

ومن ثم كانت تتمة السياق التعريضَ بمشركي العرب، على ما هم فيه من شرك وَثَنِيٍّ، وخاصة من انحرف منهم إلى عبادة النجوم، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾، والشِّعْرَى: نجمٌ دري البريق، كانت تعبده قبيلة خزاعة العربية. وكان أول من أحدث ذلك فيهم رجل يقال له: « أبو كبشة »؛ حيث صرف قبيلته عن عبادة الأصنام إلى عبادة النجم. والراجح أنه نقل ذلك عن عُبَّادِ الكواكب والنجوم، الذين كانت العرب تمر بهم في رحلاتها التجارية، وليس هو أول من أحدثه كما يقول بعض المفسرين، وإنما كان أول من فعله من العرب. ولذلك كانت قريش تكني النبي ﷺ ابن أبي كبشة، حاشاه عليه الصلاة والسلام؛ باعتبار أنه خالف دين آبائه بالدعوة إلى التوحيد، كما خالفه أبو كبشة بعبادة النجم من دون الصنم. فجاءت هذه الآية الكريمة لتحسم الموقف، وتلحق الشِّعْرَى باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى! وتقرر أنها جميعًا معبودات باطلة. فالله رب العالمين هو ربها، وهي أفقر ما تكون إليه. وأن الشِّعْرَى نجم كسائر النجوم، يسير في فَلَكِهِ مقهورًا بأمر الله وسلطانه العظيم [(١)].

ثم شرع الرحمن في عرض النُّذُرِ من أيام الله، وما وقع على أعدائه ﷺ من العقاب في الأرض؛ ترهيبًا للمشركين من عُبَّادِ الشِّعْرَى وغيرها من المعبودات الباطلة، قديمًا وحديثًا. فعذاب الله إنما وقع على الجاحدين لحقوق الربوبية، مما تم بيانه في هذا

---

(١) وقد جعل الطاهر ابن عاشور رحمه الله هذه الآية هي ختام ما قُصد بيانه، مما في صحف إبراهيم وموسى؛ لعلة أن قوله تعالى الآتي بعد: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾، أمرٌ حدث بعد زمنهما بقرون؛ لأن الشعرى – وهي نجم من نجوم السماء – لم تعبدها إلا بعض قبائل العرب في زمن متأخر. فجعل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾ وما بعدها، معطوفًا على « ما » الموصولة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ ﴾ بمعنى: أم لم ينبأ بذلك وبأنه هو رب الشعرى... إلخ.
ويجوز أن يكون السياق مستمرًا، وتكون الآية تابعة لسياق الآيات المعطوفات على قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ ﴾، ولا مانع يمنع من أن يكون قوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ ﴾، مما ذكر في صحف إبراهيم وموسى، كما أنه لا مانع من أن تكون الشعرى قد عبدت زمن إبراهيم وقبله، خاصة وأننا نعلم من كتاب الله أن عبادة النجوم أمر قديم، وقصة إبراهيم نفسه خير شاهد على ذلك.
ويجوز أن يكون المقصود بما في صحف إبراهيم وموسى، هو ما يجيب عن القضية فقط، أي ما عجَّب منه تعالى رسولَه ﷺ؛ إذ قال سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝ ﴾، على ما بيناه قبلُ، وهو يبتدئ من قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ ﴾. وكل ما بعده هو استطراد بياني من القرآن.

السياق القرآني المهيب. وسَوْقُهُ ههنا إنما هو لبيان أن وقوع تلك الأيام على الظالمين مرة أخرى، في أزمنة أخرى؛ ليس ببعيد! قال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ ﴾.

فأما « عادٌ » فقد قيل إنها أقدم قبائل العرب، وهم قوم هود. وقد ذَكر الطاهر ابن عاشور رحمه الله أن سِرَّ وصفها بـ « الأولى »، راجع إلى كونها أول العرب ذِكْرًا في التاريخ، وهي أول العرب البائدة، كما أنها أول أمة أُهلكت بعد قوم نوح (١). وأما ثمود فهم قوم صالح، وهم أيضًا ممن قطع الله دابرهم، فما أبقى منهم من أحد. وقدَّم القرآنُ ههنا ذكر عاد وثمود، على ذكر قوم نوح؛ لأن أولئك عرب، يلتقون مع عرب الجزيرة زمنَ البعثة، في أصول عرقية واحدة، وخصائص ثقافية واحدة. ومن ثم لم يزل ذكرهم مستمرًا في أشعار عرب الجاهلية وحِكَمِهم، كما أن آثارهم وأطلالهم كانت ما تزال شاخصة قريبًا من ديارهم، وعلى طرقهم. وذلك كله أدعى بقريش ومن ولاها من قبائل العرب إلى التفكر والاعتبار.

وأما وصف قوم نوح بأنهم: ﴿ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ ﴾؛ فإنما كان بسبب أن مدة بقاء نوح عليه السلام فيهم كانت أطول بكثير، ورغم ذلك لم يؤمن منهم إلا ثلة قليلة جِدًّا!

وأما الْـمُؤْتَفِكَةُ فمعناها المنقلبة، يقال: أَفِكَهُ فَأْتَفَكَ بمعنى: قلَبه فانقلب. ومنه سمي الكذبُ إِفْكًا؛ لأنه قلبٌ للحقيقة (٢). والْـمُؤْتَفِكَةُ هنا وصف لمدائن قوم لوط؛ لأن الله ﷻ قلَبها رأسًا على عقب، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢]. وقد جمع الله عليهم الخسف والرجم والعياذ بالله! وهو مفهوم من قوله تعالى هنا في سورة النجم: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ ﴾، فـ « أهوى » هو بمعنى أسقط في هاوية، وهو معنى الخسف. والخسفُ زلزال عمودي، يجرف ما فوق الأرض نحو باطنها. وأما التغشية فهي التغطية، وهي إشارة إلى ما تراكم عليهم من الرجم بالحجارة! والتعبير بقوله: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾، بما فيه من إجمال وغموض

---

(١) ن. تفسير الآية في التحرير والتنوير.

(٢) لسان العرب، مادة: « أفك ».

مقصود؛ دال على هول ما وقع هناك، من رجم رهيب وعذاب غريب، مما لا تصفه العبارات ولا تحيطه الكلمات. نسأل الله السلامة والنجاء!

ثم عقَّب الجبار ﷻ على ذلك كله بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ ﴾ وهذا سؤال إنكاري يحمل معنى التقريع والتوبيخ، توجَّه به الحق سبحانه إلى جنس الإنسان. وسياقُه مبنيٌّ على ما سلف من بيان صفات الربوبية وجلالها، بمعنى أنك أيها العبد إذا عرفت من صفات ربك ما عُرض عليك آنفًا، من أنه هو الرب المتفرد بصفات الخلق والتدبير، والرزق، والرعاية، والعطاء، والإماتة، والإحياء، والبعث، والنشور؛ فبأي حق بعد ذلك تشكك في نعم الله؟ وفي أيٍّ من تلك النعم العظيمة ترتاب؟ وماذا منها تستطيع جحوده وإنكاره؟ فالآلاء هي: النعم، والتماري هنا هو: المجادلة بقصد التشكيك في الحق. ومن ذا يتمارى بنعم الله، وينسبها إلى غير خالقها إلا أعمى!

ثم اختتم الحق سبحانه السورة بهذه الآيات الشديدة الوقع على القلب، آيات فيها من قوة النذارة ما جعل كفار قريش يسجدون لله رَهَبًا، بعد سماعها مباشرةً من الرسول ﷺ، وهو يتلوها عند البيت! قال ﷻ : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝ ﴾..! وقد ثبت أن النبي ﷺ قرأها بمكة قبل الهجرة، فلما بلغ نهايتها سجد، فسجد مَنْ حوله مِنَ المسلمين والمشركين جميعًا، إلا الطاغية أمية بن خلف، فقد تَلَكَّأَ عن السجود! ففي الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: (أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ: « وَالنَّجْمِ » . قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ!) [1].

فأما قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾، فهو القرآن. وقد قيل هو الرسول ﷺ. وكلاهما مناسب للسياق، والمغزى واحد. لكن كونه القرآن أرجح؛ لارتباطه الصريح بما قبله وما بعده. وكما يسمى الشخص « نذيرًا » يسمى به الكلام أيضًا. فالرحمن ﷻ يشير إلى ما تُلي من آيات السورة ههنا، أو إلى كل القرآن،

---

(١) رواه البخاري.

فيخبر المخاطبين بأن هذا الذي يسمعونه ليس تقوُّلًا من محمد ﷺ، وقد اتهمته قريش بذلك، وإنما هو نبأ عن أمر خطير، وتحذير من هول قادم، يهم مصير البشرية، ومصير كل إنسان في نفسه. إنه يوم القيامة! يوم القيامة بما ينطوي عليه من جزاء وحساب، ومآل شقي أو سعيد. إنه نذير من النُّذُرِ التي تنزلت وحيًا من عند اللَّه، وجاء بها الرُّسل كلهم إلى أقوامهم منذرين عبر التاريخ.

ثم قال بعدُ مباشرة، على سبيل البيان لنذارة هذا النذير: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ ﴾، ومعنى أَزِفَتْ: قَرُبَتْ جدًّا حتى ضاق وقتها، وأوشكت أن تقع! والمقصودُ يومُ القيامة. وقد اشتَقَّ لها الرحمن اسمًا من صفة القرب، فسماها الآزِفَة! وعبر بالفعل « أَزِفَ » وباسم الفاعل منه؛ لتأكيد حقيقة القرب الشديد لليوم الآخر، ولوقوع أهوال القيامة. فجاءت الجملة بقصرها هذا قوية جدًّا، مركَّزة المعنى، أشبه ما تكون بصفعة شديدة مفاجِئة! فقال: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾..! نعم أزفت بأهوالها وأحداثها الرهيبة، وهي أهوال وأحداث لا يكشف غمتها إلا اللَّه وحده، ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾؛ فلا ملجأ منه تعالى إلا إليه!

ثم توجه في النهاية بالخطاب إلى الجاحدين الساخرين، بصيغة سؤال إنكاري شديد، موبخًا إياهم على عدم إيمانهم بهذا القرآن، وعلى استهزائهم بحقائقه وآياته، وعدم الخضوع لسلطانه، فقال ﷻ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝ ﴾! وقد كان الكفار يعجبون مما جاء به هذا القرآن، من أمور البعث، والإحياء بعد الموت، وإعادة الخلق، وأخبار الآخرة عمومًا، وسائر حقائق الإيمان. وإنما كان عجبهم عجب تكذيب وإنكار، واستبعاد لما جاء به الوحي من أخبار، فكانوا يتندرون بذلك في مجالسهم، ويضحكون سخرية من الرسول ﷺ، ومما جاء به من هدى. وكان أولى بهم أن يبكوا كما بكى العارفون بالحق! على نحو ما جاء في قوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، لكن كبرياء الكفرة يجعلهم سامدين لاهين، غافلين عن الحق، لا تلين قلوبهم للإيمان، ولا يخضعون للَّه رب العالمين. والسُّمود معناه: الغفلة والتكبر اللاهي، غير المبالي؛ ولذلك جاءت آيات السياق تحطم في نفوسهم هذا الكبرياء المتعالي، وتُخنس في قلوبهم ذلك العُجْبَ

الشيطاني. ومن ثم خاطبهم الله ﷻ من مقام ربوبيته العظيم، آمرًا إياهم بالدخول فورًا في فلَك عبوديته، والانتظام بمسلك طاعته، وترك حياة التمرد على الرب العظيم، والتبرء من الجحود للحق المبين، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝ ﴾.

فهذا الأمر الرباني، الخاتم لتلك القوارع الشديدة، كفيل بزلزلة الكبرياء الجاهلي، الكامن في تلك النفوس الجاهلة بالله، وخلخلة ما بها من تصورات باطلة حول طبيعة القرآن، وحول حقيقة هذا الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام. وكذلك الأمر كان!

وبذلك ارتبط آخر السورة بأولها، واكتمل الغرض المقصود منها؛ ببيان أن لا طريق إلى الله إلا عبر هذا القرآن المجيد، المنزل وحيًا على قلب محمد ﷺ.

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في الرسالات السبع التالية:

الرسالة الأولى: في أن هذا القرآن هو كتاب الموازين الإلهية، التي لا يكمل إيمان المؤمن إلا بالعلم بها، والتخلق بحقائقها إيمانًا وعملًا. وقد جاءت سورة النجم - كما رأيت - مكتنزة بهذه الموازين الربانية الحكيمة. ذلك أن موازين القرآن هي التي تشكل منهاج إقامة الدين في حياة الأمة، وهي أساس التوازن في سير المؤمن إلى ربه، وهي النور الموجه لبصيرته في فهم حقائق الدين، والضابط لكيفية تنزيلها في حياته. فموازين القرآن هي قواعد قرآنية، جامعة لأصول الإيمان وكليات الشريعة. وهي مبثوثة في كتاب الله، ومبيَّنة في سنة رسول الله ﷺ. فمن موازين القرآن مثلًا في مجال العقيدة، قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النساء: ١٧١]، وفي مجال الشريعة قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وفي مجال الدعوة قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي مجال الجزاء الأخروي ما تدارسناه من قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ ﴾، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ ﴾، وكذا قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، ونحو هذا وذاك في القرآن كثير. فبمثل هذه الموازين يستقيم فهم المؤمن للدين ويستوي عمله.

الرسالة الثانية: في أن من موازين هذا الدين أن الإنسان يوم القيامة رهين عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وأنه لا أحد ينوب عن أحد في تحمل العقاب، وأن لا ملجأ

في ذلك من اللَّه إلا إليه. وهذه قاعدة هامة في حياة المسلم؛ لما لها من أثر بليغ في الوقاية من الانحرافات الشيطانية، التي توهم الإنسان إمكانَ النجاة في الآخرة؛ إذا هو اتَّكل في عمله على غيره، ومسح ذنوبه فيه! كما هو الحال في العقائد الباطلة للنصارى واليهود، وبعض التصرفات المنحرفة لجهلة المسلمين. ومن ثم فإن اللَّه ﷻ قد قرر في القرآن بصيغ شتى، وفي مواطن شتى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ وذلك من أجل بناء الفهم الصحيح لعقيدة المسلم، وضبط عمله الأخروي، وكذا حفظه من الاغترار بدجل الدجاجلة وتلبيسات المشعوذين.

ثم إن هذا الميزان بعد هذا وذاك، قاعدةٌ كلية كبرى؛ لضبط كثير من التصرفات الدنيوية في مجالات شتى؛ كأحكام القضاء، وبعض عقود المعاملات، وأحكام التقويمات الأخلاقية في الشهادات، وفي التعديل والتجريح، وغيرها من المجالات الشرعية والاجتماعية، التي تنبني عليها أمور عملية هامة في الدنيا والدين.

الرسالة الثالثة: في أن طلب العلم باللَّه ربًا واحدًا، ومعرفةَ ما يجب له من الحقوق على عباده؛ واجبٌ على كل إنسان أنَّى كان. وهو شرط أساس في صحة السير إلى اللَّه ﷻ، ولا وصول لجاهل باللَّه. وإنما أهلك كثيرًا من العُبَّادِ جهلُهم باللَّه. وأصولُ العلم باللَّه مبثوثة في كتاب اللَّه، ثم في سنة رسول اللَّه ﷺ، ولا عذر لمسلم بجهلها. كما أنه أول واجب على غير المسلم أن ينظر فيه ويطلبه. وقد احتج الرحمن جل ثناؤه - كما رأيت - على كفار قريش بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى! فالإنسان بما هو عبدٌ مخلوق مفروضٌ فيه أن يبحث عن خالقه. ومَن بحث عن ربه مخلصًا وَجَدَهُ؛ لأن اللَّه - تقدست أسماؤه - إذا علم صدق عبد ضال، يطلب سيده بإخلاص؛ هداه إليه برحمته. وكيف لا؟ وهو الرحمن الرحيم، الحليم الصبور، الغفور الشكور!

الرسالة الرابعة: في أن العقاب الدنيوي سُنة إلهية جارية إلى يوم القيامة. وما عَرْضُ مهالكِ الأمم البائدة في القرآن؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم؛ إلا لإثبات هذه الحقيقة؛ ولذلك قال ﷻ بعد ذكر مهلكة قوم لوط، خسفًا ورجمًا بالحجارة المسوَّمة: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]. وقد أشرنا في مجالس سابقة إلى حوادث من ذلك في عصرنا الحديث، فلا داعي للإعادة. وإنما العبرة ههنا بالتذكير.

الرسالة الخامسة: في أن أهم خبر جاءت به نذارة هذا القرآن، بعد خبر الإيمان

بالله، هو خبر الآخرة. فهي النبأ العظيم، وهي أهم باعث على طلب العلم بالله وبدينه، وأهم ضابط لعمل المسلم، وتحقيق تصرفاته على موازين الشريعة، وهي المنشط الأكبر لحادي الخوف والرجاء، والصبر على مشاق السير في الطريق إلى الله.

الرسالة السادسة: في أن بكاء الخشية إنما يكون على قدر علم العبد بالله واليوم الآخر؛ ولذلك قال سبحانه عن العلماء بالله: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۩ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۞ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۩ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١١١]. وإنما أتممنا سياق الآيات ههنا إلى آخر سورة الإسراء - زيادةً على محل الشاهد من بكاء الخشية - لما فيها من دعوة صريحة إلى طلب العلم بالله، ومعرفة ما أثبت سبحانه لنفسه من أسماء وصفات؛ إذ التحقق بذلك هو سر الخشية والخشوع، ومنبع الرِّقَّةِ والدموع!

فبكاء الخشية نعمة، لا يؤتاها إلا من بلغ من منازل العلم بالله واليوم الآخر، ما يفتح نظرَه على حقائق اليقين؛ ولذلك فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه في مناسبات شتى: « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا! » [١].

الرسالة السابعة: في أن الفرار إلى الله، والخضوع لجلاله سجودًا وعبادةً، هو مسلك النجاة من عذاب الدنيا والآخرة، وأن سجود القلب والجوارح هو خير ما ينال به العبد رضا الله. وقد رأيت فيما تدارسناه كيف قدَّم سبحانه الأمرَ بالسجود على الأمر بالعبادة؛ لأنه وإن كان منها فهو أفضلها وأرقاها، فقال تعالى: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴾. وقد قال النبي ﷺ للذي سأله مرافقتَه في الجنة: « فأعني على نفسك بكثرة السجود! » [٢]، والمقصود بذلك كله تقديم الصلاة على سائر العبادات؛ لطي

---

(١) جزء حديث سبق تخريج بعض صيغه بالمجلس الثالث من هذه السورة. وبعضها هو في الصحيحين.

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ قال: كنت أبيت مع النبي ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: « سَلْ »، فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ « أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟ ». قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ».

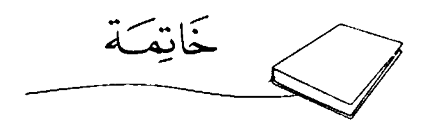
المسافات في الطريق إلى اللَّه، والإكثار من السجود بالليل والنهار. واللَّه الموفق للخير والمعين عليه.

٤ - مسلك التخلق:

وهو هنا دائر حول التخلق بموازين القرآن، والتحقق بمقتضياتها المنهاجية، كما عرَّفناها في الرسالة الأولى بهذا المجلس؛ حتى تجري تصرفات الإنسان على هداها.

وأما **المسلك العملي لذلك** فهو قائم أساسًا على مداومة التدبر للقرآن الكريم، والتوقف مليًّا عند كل ميزان من موازينه؛ لمعرفة فحواه، والتحقق بمقتضاه. حتى إذا استقرت حقيقته المنهاجية في النفس، جعل المؤمن ينظر إلى حقائق الأشياء من خلاله، ويرتب سائر أعماله وتصرفاته على وفقه. فإذا عَلِمَ مثلًا: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أيقن أنه مسؤول وحده عن خطاياه، وأن لا نجاة له إلا بما قدَّم من عمل صالح، فبطل عنده الارتهان بالوساطات الكاذبة، والوعود الشيطانية الواهمة، وشمَّر عن ساعد الكد والعمل، وقَوِيَ في نفسه وازع الخشية والمحاسبة، والخوف والرجاء، وصارت التقوى له خُلُقًا ثابتًا. وهو معنى التخلق بهذا الميزان. كذلك، فما من ميزان من موازين القرآن إلا وله ثمرة خلقية، يمكن التحقق بها - إن شاء اللَّه - بما ذكرنا هنا من مسلك عملي.

* * *



خاتمة

هذه هي سورة النجم، ذات الحقائق الإيمانية العظمى .. وإنها لمن أجمع السور في التعريف بحقيقة الوحي وعمقه الغيبي؛ ولذلك فهي من أنفع سور القرآن في تلبية أشواق الروح إلى مشاهدة نور الوحي، كيف كان تنزله على النبي ﷺ، وكيف تلقاه عن الملك جبريل عليه السلام.

والسورة بما لها من تأثير قوي في هذا الشأن، وفي التعريف بشؤون الربوبية، وحقائق التوحيد والإخلاص، وعرض بعض الموازين الإلهية في الجزاء الأخروي؛ فإنها كفيلة بوضع المؤمن على هُدًى من أمره في سيره إلى اللّه، وترسيخ إيمانه بمقام اليقين. ومن ثم كانت آياتها ذات أثر فعال في مجال التزكية الإيمانية، عظيمةَ الأثر في تلقين العلم باللّه وبكتابه المبين. كما أنها بذلك كله، وبما تتميز به من وقع سماعي مهيب؛ مفيدةٌ جدًّا للداعية إذ يلقيها في المجالس العامة والخاصة، بأسلوب خطابي قوي. وقد رأيت كيف أخضعت هذه السورة الجليلة أعناق المشركين بمكة؛ إذ تلاها رسول اللّه ﷺ عليهم؛ فانبهرت بها قلوبهم، وكانوا للّه من الساجدين، ولو إلى حين!

فاللّٰهم إنا نعوذ بك أن نكون من الجاهلين لِقَدْرِك، الهاجرين لكتابك، الغافلين عن عبادتك. اللّٰهم إنا نستجير برحمتك، وبنور علمك، اللّٰهم اجعلنا لآلائك من الشاكرين، ولنعمائك من الحامدين، اللّٰهم ارزقنا حبك وحب رسولك الكريم، وقَدِّسْ قلوبَنا بنور كتابك العظيم، اللّٰهم بلغنا منازل المتقين، واجعلنا لك من الساجدين العابدين. آمين!

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

فريد الأنصاري.

- ولد بإقليم الرشيدية، جنوب شرق المغرب سنة (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب - المحمدية، المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد ابن عبد اللّٰه، كلية الآداب، فاس، المغرب.

- عضو المجلس العلمي الأعلى للمملكة المغربية.

- رئيس المجلس العلمي المحلي بمكناس.

- عضو اللجنة العلمية لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان المولى إسماعيل.

- عضو مؤسس لمعهد الدراسات المصطلحية، التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة السلطان محمد بن عبد اللّٰه بفاس.

- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- رئيس سابق لشعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب، جامعة السلطان المولى إسماعيل بمكناس، المغرب، لسنوات: (٢٠٠٠ - ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م).

- أستاذ زائر بدار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا بالرباط لسنتي:

(٢٠٠٣ - ٢٠٠٤م إلى ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م).

- أستاذ بمركز تكوين الأئمة والمرشدات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.

- رئيس وحدة الدراسات العليا: (الاجتهاد المقاصدي: التاريخ والمنهج)، بجامعة السلطان المولى إسماعيل بمكناس.

- وأستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة بالجامعة نفسها.

- ثم أستاذ كرسي التفسير بالجامع العتيق لمدينة مكناس.

صدر له من الدراسات العلمية:

١ - الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب: دراسة في التدافع الاجتماعي، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط. الأولى: (٢٠٠٠م).

٢ - مفاتح النور: دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نيسل بإستنبول، ط. الأولى (٢٠٠٤م).

٣ - الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة، مكناس/ المغرب، ط. الأولى (٢٠٠٧م).

٤ - بلاغ الرسالة القرآنية، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٥ - جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٦ - الفطرية : بعثة التجديد المقبلة، من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٧ - قناديل الصلاة « كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة »، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٨ - مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

٩ - مفهوم العَالِميَّة، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠٠٩م).

١٠ – الدين هو الصلاة والسجود للّه باب الفرج، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١١ – سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٢ – كاشف الأحزان ومسالح الأمان، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٣ – المصطلح الأصولي عند الشاطبي: (أطروحة دكتوراه)، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١٠م).

١٤ – ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى اللّه. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

١٥ – هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها؟ دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

ومن الأعمال الأدبية:

١ – جداول الروح: شعر مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح، مطبعة سندي، مكناس (١٩٩٧م).

٢ – الوعد: شعر، مطبعة أنفوبرانت، فاس (١٩٩٧م).

٣ – ديوان الإشارات، طبع دار النجاح الجديدة، منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب (١٩٩٩م).

٤ – آخر الفرسان: رواية، نشر دار النيل، إستنبول (٢٠٠٦م).

٥ – ديوان القصائد: شعر، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

٦ – كشف المحجوب: رواية. دار السلام، القاهرة، ط. الأولى (٢٠١١م).

هذا، وقد توفاه اللّه تبارك وتعالى يوم الجمعة

(١٨ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ) الموافق (٦/ ١١/ ٢٠٠٩م).